

رواية

الرواية
الحائزة على جائزة
اتحاد كتاب مصر
2023

غيوم فرنسية

ضحى عاصي

دار دؤن



غيوم فرنسية

ضحى عاصي: غيوم فرنسية، رواية

طبعة دار دَوْنُ الأولى: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ١٣٤٩٩ / ٢٠٢٣ - الترقيم الدولي: 7 - 370 - 806 - 977 - 978

جَمِيعُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالتَّشْرِيحِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تُعبر عن رؤية الناشر بالضرورة
وإنما تعبر عن رؤية الكاتب.

© دار دَوْنُ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

ضحى عاصي

غيوم فرنسية

رواية



إهداء

إلى روح المثقف والمترجم الكبير
بشير السباعي

وشكر خاص

إلى الباحث ماركو الأمين

هذه الشخصيات خيالية
مبنية على خلفية أحداث تاريخية.

هاجت فحول الجاموس التي أخرجها يعقوب من معاصره ومعاصره غيره للزيت والسيرج، وحصرها بين قوتين من العسكر، عندما تم رشق أجسامها بأسنة الرماح تزاممت وتدافعت على البوابة، ترحزت الأحجار التي وضعها الثائرون الذين هجموا على شارع القبيلة وسوق النصارى من نقطة كانت مهملة، ودخلوا دزب الجنية. أغلق الثائرون البوابة ووضعوا وراءها أحجاراً، انفتحت البوابة بتدافع فحل الجاموس، فدخل العسكر (الفرنسوية) وقبضوا على الثائرين.. وهكذا نجا نصارى الأزيكية من مذبحه مؤكدة بفضل تلك الطريقة التي لم تكن لتخطر على بال أحد سوى يعقوب!

كانت تلهت بالخطى وهي حيرى مسرعة لا تعلم إلى أين تتجه، هل تتجه إلى معسكر الفرنسييس؟ فهو الأقرب لها، أم تذهب إلى زهرة ابنة الشيخ العطيفي صديقة طفولتها؟ ولكن الفرنسييس هناك يدكون بولاق! لم تهدأ المدينة، فهذا الذي فجر بها الغضب لم يزل، وأصبحت البلاد في حال، وأمست على حال.

القاهرة تشتعل.. يا رب ارحم.. اليوم الفرنسييس في كل مكان، والأهالي يحاربونهم، ولكن لماذا يدخل الأهالي بيوتنا ويستحلونها؟ حسبونا عليهم لأننا نصارى مثلهم، نصوح باشا نادى: اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم، عثمان كئخدا يُعطي البقشيش على رؤوسنا، يقطعون رقابنا، ويأخذون رؤوسنا في أجولة، رأس الفرنسييس بخمسائة درهم، ورأس النصراني بمئتي درهم، المشايخ والأهالي، ومعهم المماليك وأتراك خان الخليلي والمغاربة، تجمعوا على التلال خارج باب النصر، ومعهم النبايت والعصي والسلاح، دخلوا علينا في كل مكان، وأخذوا يفتشون عن أي مسيحي ليذبحوه، ويفضحون النساء ويجلدوهن عرايا، ويقطعون رؤوس الأطفال أمام أمهاتهم، دخلوا على البيوت وقطعوا رأس البنية من أجل الذهب!

لا نجاهة لي إلا بمشيئة الله.. ذهب أبي مع رجال المعلم يعقوب ليصنع المتاريس ولم يعد.. أما فضل زوجي، فقد اختفى منذ بدأت الهوجة، لم يعد من الورشة، ولا أعلم عنه شيئاً، لا أستطيع الوصول إلى أي منهما، الشوارع مليئة بالعسكر المماليك وأتباعهم، فكان الهروب إلى لا مكان، حتى الحي

المتحصن الذي هرب الجميع إليه، هجموا عليه من سوق النصارى ودخلوه،
وقفلوا الباب ووضعا وراءه أحجارًا كبيرة وثقيلة حتى لا يفلت أحدا!
قررت محبوبة أن تظل في دارها، أصبحت ملامحها أكثر حدة من ذي قبل،
اختفت منها النظرة الحانية، عيناها صارتا عيني صقر، تلك الرموش الكثيفة
التي كانت تسدلها كالليل الرخيم تحوّلت إلى ما يُشبه الأسمم التي ترمي بها
من يفكر في أن يقتحم بينها، كانت نظرتها التي ملأها الكبرياء والتحدي جديرةً
بأن تجعل كل من يحاول الاقتراب منها يفرُّ هاربًا من أمامها خوفًا. افترشت
حصيرتها في هذا المنزل شبه المتهدم في الحارة الجوانية، كانت ليلة شديدة
القسوة، فضّلت ألا تضيء المصباح، كي لا ينتبه أحد إلى وجودها، قضت ليلتها
تدعو: «يا رَبِّ اسْتَمِعْ صَلَاتِي، وَأَنْصِتْ بِحَقِّكَ إِلَى طَلِبَتِي. اسْتَجِبْ لِي بِعَدْلِكَ، وَلَا
تَدْخُلْ فِي الْمَحَاكِمَةِ مَعَ عَبْدِكَ، فَإِنَّهُ لَنْ يَنْتَزِكَ أَمَامَكَ كُلَّ حَيٍّ؛ لِأَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ
اضْطَهَدَ نَفْسِي، وَأَذَلَّ فِي الْأَرْضِ، أَجَلَسَنِي فِي الظُّلُمَاتِ مِثْلَ الْمَوْتَى مُنْذُ
الدَّهْرِ». ظلت تبكي وتدعو وتصلّي سنع صلوات، كانت هي أنيستها في هذا
الفرع، بينما المحروسة تموج بغضبٍ لا طاقة لأحد به.

(٢)

كان قلبي يدق بشدة ضرباتٍ عديدةً متواليةً، وأنا في الطريق إلى البيت،
هل سأجدها؟ عجيب أمر الإنسان! كم من الشجاعة تتولد فيه عندما يواجه
الموت؟! ليلة أمس كنت أقف أمام الثائرين غير خائف من أي شيء، ولا على
أي شيء، لا أملك من الأسلحة إلا الإزميل وسراق التمساح اللذين كانا فيما
مضى عالمي الذي أستمتع به، أصنع بهما الأثاث لأبيعه لبيوتات المماليك،
أفرح بكل قطعة أنتجها، أتفاخر بأنني من صنعتهما الأثاث لأبيعه لبيوتات المماليك،
هذا الكتخدا، اليوم لا طائل من كل هذا، هرب المماليك، الكل يهاجم بيوت
الكل، الناس تُخفي أشياءها وأموالها، ولا طاقة لأحد بمثل هذه المُنع والتي
حتماً ستتكسر في مدهمة البيوت ونهبها، اليوم أصبح الإزميل وسراق
التمساح أداتين أستخدمهما فقط لأحمي نفسي ومحبوبة، والآن بعد أن هدأت
أصوات المدافع بدأ صوت الخوف يعلو بداخلي يُرعبني ويهزني، الخوف ألا
أجد محبوبة؛ فقد دخلوا على البيوت وقتلوا الناس، هل سأجدها؟ أم سأجد
أشلاءها؟

على الرغم من رائحة الموت حولي في كل مكان، إلا أن ابتسامه علت

وجهي وشعورًا بداخلي يطمئنني أنها هناك تنتظرنني بتلك النظرة الساحرة التي لمحتها يومَ وقعتُ عيناها عليها لأول مرة في عرسٍ في حارتنا، كانت مختلفة هادئة، لا تتصرف مثل الأخريات، لا ضحك ولا صخب، كأنها طائر شارد مخلوق فوق الجميع، تظهر غرتها من تحت الطرحة الموشاة بالقصب، ترتدي في أدنيتها قرطين مصنوعين من الذهب الشفتشي، وقعَ برقها للحظة مكنتني من أن أرى هذا الجمال الصارم، وتلك النظرة التي ظهرت واختفت في أقل من ثانية، لم يكن عمرها قد تجاوز السادسة عشرة، ولكنها حقًا لا تُشبه الأخريات، بداخلها شيء ما يجعلك لا تملك إلا أن تفكر فيها، شيء ما يجذبك إليها، وكأنك منقاد بدون عقل، شيء ما يجعلها تلحُّ عليك في كل لحظة، يجعلك أسيرًا لهذا الطيف المهيمن الذي يحاصرك أينما كنت، ربما كان غموصًا يطل من ملامحها وقسمات وجهها، ومن حاجبيها البارزين الدقيقين العاقدين، أو من عينيها اللوزيتين العسليتين اللتين تخترقانك بنظرتهما الحادة كصقر، أو من خديها العالين وأنفها المدبب الشامخ الذي يعطي انطباعًا بجرأة وصرامة تصل أحيانًا إلى حد العبوس. في البداية قاومتها، شعرت قليلًا بالرهبة من صرامتها، وحاولتُ أن أنساها باندماجي أكثر في العمل في الورشة وفي تصنيع الأثاث عند «أبونا عبد الملك»، أكثرتُ من زيارة الكنيسة والتي كنت لا أرتادها كثيرًا، ولكن طيف محبوبة ظل ليالي طويلة يطاردني، أفكر في تلك الفتاة المختلفة والتي خلقت بداخلي تحديًا ما، لا أحب الأشياء العادية ولا النساء العاديات، لا شيء سيخرجني من تلك الحالة إلا الزواج منها. محبوبة غزال، أبوها جرجس غزال ويصا، معجوني شهير في قريته بأسيوط، فقير ولكنه من الأعيان، أعيان الفقراء، نَعَم حتى الفقراء لهم أعيانهم الذين يقدرّونهم ويكبرون لرأيهم، كبرت محبوبة في عالمها الصغير وهي ابنة كبيرهم، يعاملونها معاملة تليق بابنة الكبير، امتلكت في عالمها الصغير عزة نفس الأميرات، لم تكن تعلم أن خارج حدود قريتها الصغيرة عالمًا كبيرًا كبيرًا جدًّا، اكتشفتُ أن هناك ممالك وعثمانيين بالعكس، وجدت أباهما ينحني وينزل من على بغلته إذا مرّوا أمامه. ويأخذ يساره في مرورهم، حتى وسط القبط كان هناك من لا يشبهون أباهما في كلامه وملبسه، ويبدون أكثر قوةً منه، ولا يقابلونه بنفس الاحترام الذي تعودت أن تراه في عيون كل من يقابل أباهما في قريتها، أدركتُ هذا عندما نزح أبوها من القرية بعد أن ماتت أمُّها وتزوج من إحدى قريباته التي رفضت أن تعيش معه في الصعيد،

كانت محبوبة وقتها في الثالثة عشرة. عدة سنوات في المحروسة لم تستطع أن تزيل من روحها وملامحها عزة نفس «ابنة الكبير».

قضت محبوبة على حُلم الرهينة في نفسي فقبل أن أراها لم يكن لديّ رغبة في الزواج، وكنت أميل أكثر لفكرة الرهينة التي تراود معظمنا، وعارصتها أمي بشدة، على الرغم من تمسكها الشديد بالدين ومواظبتها على حضور قدّاس الأحد، كانت أمنيتها القوية أن ترى أبنائي وأبناءً أبنائي، أكبر من فضيلة الرهينة عندها، وليلة عددينا الذي لا يتجاوز عشرة آلاف في مدينة يسكنها فوق المائتي ألف، لم نكن نحتاج أن نفعل مثل شباب المسلمين وفتياتهم، ونسجل أسماءنا كراغبين في الزواج في «محكمة الخرق»، تلك المحكمة التي تقع في الميدان الكبير المعروف ببيع الخرق والملابس، فقد كانت نساؤنا يلتقين في الصلاة في «بيت النساء»، وكان من السهل أن تتعرف أمي على من تصلح للزواج، ولكنني أبدًا لم أستجب لمحاولاتها الدائمة للفت انتباهي لبعضهن، حتى وقعت عيناى على محبوبة.

عاودتني المخاوف كلما اقتربت من الحارة، ولكن لا شيء يوحى بالموت، فلا أثر لنواجٍ ولا عديد، ولكنه هدوء قاتل، وكأنها حارة مهجورة تركها أهلها منذ قرون، بعض البيوت مهدّمة، ولا أثر لضحكات الأطفال في الحارة، كان قلبي يزداد انقباضًا كلما اقتربت من البيت، دفعتُ الباب الخشبي بيدي ففتح معي، لم يكن موصدًا بالمزلاج «محبوبة راحت، مستحيل أن تكون هنا ولا توصلد الباب، من المؤكد أنهم قتلوها».

كاد قلبي أن يقتلع مني، دخلتُ من الباحة إلى حجرتنا لأجد محبوبة ساجدةً تضرب ميطانيات، وفي يدها، سبحة، شعرتُ بي، ولكنها استمرت في صلاتها ولم تقطعها.

أمّا أنا فكنت أحمد الله وأنظر لها، وفي لحظة استبدت بي الرغبة فيها، رغبةً أعادتني إلى تلك الليلة التي ذهب رجال الدين وجوقة الترتيل لإحضارها، الليلة التي دخلتُ عليّ فيها بكامل بهائها في ثوب زفافها وقد رُيّنت بزهور البرتقال، وكان وجهها مغطى بخمار رقيق يشفُّ عن قسماتها التي أضاعت ما خلّفه، فسخرتني، كما سخرتني من قبل يومٍ ما إن وقع برقعها في العرس.

كان الأطفال يحملون الشموع، والشمامسة يضربون الصنوج مرتلين: «الذوكصا مبارك الآتي باسم الرب»، «وابؤرو أندي دي هيريني»، «يا ملك السلام أعطنا سلامك». كنت أشعر بألحانهم تدقُّ الآن في أذني، تذكرت

كلَّ شيءٍ، كلَّ تفصيلةٍ، كيف بدأ الكاهن في مباركة الملابس وأخذ في تليسي أنا ومحبوبة عند الطاولة التي تتوسط أكبر قاعات المنزل، وقد وضع عليها الإنجيل داخل علبة من فضة، يحيط بها ستة من الصلبان المصنوعة أيضًا من الفضة، على كلِّ منها ثلاث شمعات يجاورها خاتم الزواج وصليب من الذهب. أنهت محبوبة صلاتها، ارتمت في حضني مجهشةً بكاءٍ متواصل، كنت أحاول تهدئتها ضاحكًا، لماذا تبكين الآن؟ لقد نجونا نحن الاثنين بأعجوبة. لم يُعطنا جرجس غزال فرصة لأن نستعيد دفء ليلتنا الأولى، عاد بعد تلك العكسة العصبية، وكان في وجهه بعض آثار جروح، وحريق بسيط في يديه. لم يكن وحده كان معه أبونا عبد الملك كاهن كنيسة وصاحب ورشة النجارة التي أعمل بها.

أسرعت محبوبة بإحضار بعض الماء لتنظيف مكان الجرح، كان جرجس ينظر إلى محبوبة بلهفة لا تقل عن لهفتي عليها، وربما تزيد.
- حمد لله على سلامتكم يا بنتي.

تحدث أبونا عبد الملك والذي كان على غير جرجس أقل هلعًا وأكثر هدوءًا بالرغم من أنه أيضًا لم يخلُ من الجروح التي تركت آثار دمائه على عباة السوداء.

- حمد لله على سلامتنا كلنا، هذه الليلة كانت مختلفة حقًا، ليلة شاقة بكل معانيها، الهجوم كان يزداد علينا من كل جانب، حتى تهدمت كل الأماكن المجاورة لحارة النصارى من شدة هجومهم علينا، راح منا الكثيرون، ولولا ستر الله وشجاعة المعلم يعقوب، ما كنت أعرف كيف ستنتهي تلك العكسة. هدأ عمي جرجس، وبعد أن تناولنا العشاء استطرد أبونا عبد الملك حديثه قائلاً:

- المعلم يعقوب رجل بمائة رجل، رجل لم تأت به ولادة، كيف خطرت له فكرة أن يبني قلعة ويسورها بسور وأبراج وباب كبير، وكذلك بنى أبراجًا في ظهر الحارة جهة بركة الأزبكية، وعمل السور المحيط والأبراج طيقانًا للمدافع وبنادق الرصاص، وقام بتوزيع الشباب الملازمين للوقوف ليلاً ونهارًا، على باب القلعة الخارجي والداخلي، وبأيديهم البنادق.

أكمل جرجس ما قاله أبونا:

- هدم المعلم يعقوب أيضًا بعض الدور التي في آخر شارع القبيلة من جهة قنطرة الدكة، وجعل منها حصنًا ليكون حي القبط في الأزبكية محصورًا بين

القلعة والحصن، لولاه كنا دُيِّحنا كلنا مثل نصارى الرملة وبين السورين، سرح جرجس قليلاً: يا ليتني كنت شاباً.. ما كنت تركته. نظر إليّ فجأة وكأنه انتبه أو أدرك شيئاً ما قد فاتّه.

- هل ترغب في الانضمام للجيش؟

كان سؤالاً غير مفهوم، سرحت كثيراً: كيف هذا وقد منعنا الممالك من حمل السلاح؟ سؤال لم يخطر أبداً على بالي، لقد ولدنا وتربينا أننا ممنوعون من حمل السلاح ومن الالتحاق بالجيش، نحن لا نستطيع حمل السلاح، لم نولد لهذا، ولا نعرف كيف نفعل ذلك لم يخطر ببالنا أبداً. أجبته بدهشة:

- وهل سمح لنا الممالك أن ننضم إليهم؟

- هل أنت مخبول يا فضل؟! تصورتك أذكى من ذلك، الممالك سيجندوننا في جيوشهم! إذا كانوا حتى لا يجتدوا المسلمين الأهالي، فكيف يضموننا نحن النصارى؟!

- أقصد تنضم لجيش المعلم يعقوب.

- مع الفرنساوية؟

- وما الضرر؟! وما الضرر أن نجرب أن نكون معهم؟ منصور حين يقول.

نظر جرجس لي أنا ومحبوبة، مؤكداً ومصداً على ما سيقول:

- منصور حين ابن المعلم إسحاق رجل يعرف الكثير، ويعرف الفرنساوية ويتكلم لسانهم، ويقرأ كتبهم، يعمل معهم في التجارة حتى من قبل أن يأتوا إلى مصر، ويشكر فيهم وفي أخلاقهم ومعاملاتهم، وأكد سيكونون أحسن من الممالك الذين يعاملوننا بتعالٍ ويفرّقون بيننا وبين الأهالي المسلمين.

كانت محبوبة صامته تائهة في كل هذا الصراع، فلم تعرف من أين تأتي بالصواب والحكمة، هل هي اليوم مطالبة أن تكون في صف هؤلاء الذين لا يشبهونها؟ لهم من البشرة البياض، ومن العيون الزرقاء، ومن الشعر الشقرة، ولهم لسان لا يشبهها ولا تفهمه، وهي صاحبة العيون السوداء اللوزية الحادة رموشها الكثيفة كستار تغلق به بوابتي الحياة فتنامان مطمئنتين، بشرتها الحنطية المائلة إلى سُمرٍ مشوبة بصفرة والتي تعلن تحديها لجبروت الشمس التي لا تستطيع أن تهزمها، بل تزيد جمالاً، أين هؤلاء منها؟ هؤلاء الذين تلتهب جلودهم إذا ما لوّحت لهم الشمس من بعيد، كيف لها أن تُصدّق أن تحتمي قاهرة الشمس بمن يختبئون منها؟ ولكن ما إن استأذن أبوها

وضيفه وخرجا حتى انفجرت غاضبة:

- لا تسمع كلام أبي، لا تنضم إلى الفرنساوية، لا أفهم كيف تفكر أن تنضم إلى يعقوب وأنت تعلم جيدًا أنه قبطي فاجر.

- غريب أمرِك يا محبوبة. أنسيِتِ خوفك وهلعك؟! أنسيِتِ بكاءك منذ قليل في حضني؟! الآن يعقوب قبطي فاجر! ومنذ قليل كان البطل الذي احتُمى فيه النصارى وأنقذ حياة الآكوف!

- ما فعله يعقوب في العكسة، المسيح سيكافئه عليه، هذا موقف وانتهى، ولكن هذا لا يعني أن تنضم له وتكون من رجاله مع الفرنساوية، وأنت تعلم أن البطرك غير راض عنه.

- أبوك هو الذي اقترح عليّ، ألم يحدث هذا أمامك؟ لماذا صمّت ولم تعترضى أمامه؟ ثم إنه يقول إن منصور حنين يشكر فيهم. ثم إن أبانا عبد الملك لم يعترض على ما قاله جرجس.

- ولم يشجعه، أما منصور حنين هذا لا أعرفه، ولكني أعرف أن أبي تاجر. قضت محبوبة ليلتها مؤرقة، لم يغمض لها جفن، كنت أشعر بها تتقلب في الفراش على تلك الحصيرة التي جمعتنا دومًا، كمن يتقلب على شوك، حاولت أن ألاحظها، صدتني بحسم.

كنت أعلم ما ستقوله لي محبوبة مسبقًا، ستقول ما يقوله كل قبطي لنفسه منذ مئات السنين: «نحن طوال حياتنا نعيش، والحياة تمشي وتمر، نذهب إلى كنائسنا، نتاجر ونتحرك في الأسواق بحرية، لا أحد يعترضنا، لا أحد يهددنا، وما حدث (عكسة) وستنتهي، وهذا قدرنا، تتألم وتحمل مثلنا مثل المسيح».

كانت المرة الأولى التي أفكر فيها في معنى كل شيء: المسيح - الخلاص - الآلام - الضعف - القوة - التسامح، كان شيء ما بداخلي يقول: «لم يأت المسيح ليجعلنا ضعفاء، لم يخف المسيح أحدًا وقف أمام الجميع، لم ينحن، عاش مدافعًا عن دينه، ومات جبارًا، لم يأت المسيح ليعلمنا أن نرضخ للظلم».

كان ليلاً قاسيًا عليّ، أرهقني التفكير، عشت صراعًا طويلًا ومريّرًا مع ذاتي، إنني أعمل مع المماليك، أصنع لهم أسيرتهم وتختراوتهم، يُحبون عملي الذي أتقنه بمهارة، يعطون لي الدراهم ويأتون لي بالزبائن، أمّا هذا الجديد فلا أعرف عنه شيئًا، مجهول تمامًا بالنسبة لي، ربما تكون محبوبة مجّعة، «عكسة

وستنتهي»، ولكن شيئًا ما بداخلي يدفعني بقوة أن أستجيب لكلام جرجس، وأنضم إلى جيش المعلم يعقوب، لقد بدّلتني أيام العكسة، انتبهت أن من ظننتهم أهلنا يقتلوننا ويقفون في صف الذين صاحوا بالجهاد فينا، اكتشفت أنهم لا يعتبروننا منهم، بدأت أنتيه إلى «اشمل يا نصراني وانزل من على البغلة.. يا نصراني». تلك الأشياء التي اعتدتها ولم تكن تؤلمني. الحقيقة التي كنا نتناساها حتى نستطيع أن نعيش، لم أفهم وقتها أن من يعاملك باحتقار لن يتوانى عن قتلك في أي لحظة، باسم الأرض أو باسم الله.
ولكن هل الحل أن أهرب من الموت إلى الموت؟

(٣)

عدت إلى دار الوقف لأغير ردائي الأسود وعمامتي بعد العكسة، فإذا بالكاهن مرقص جالسًا في المضيئة، وبيادر بالحديث معي:
- حمد لله على سلامتكم يا أبونا عبد الملك.
أعرف الكاهن مرقص جيدًا، أعرف طباعه، وأتوقع منه رغم ترحيبه، أنه يبدأ حديثًا لا أريده.

رددت عليه التحية، فإذا به يقول:

- نعلم يا أبونا عبد الملك أن الوقت صعب، وأن ما يحدث للنصاري شدة كبيرة، ولكنها شدة على الكل، وأردت أن أذكرك بشيء ربما قد يكون غائبًا عنك، احتد صوته، وتكلم بحسم أقرب إلى التحذير:
- إذا دعمت فرنساوية ستكون خائنًا لديسقورس وأثناسيوس.. كيف ستواجههم؟ وكيف ستواجه نفسك بعد خيانتك لهم؟
نعم كنت مرتبًا لا أنكر هذا، ولكنني حاولت أن أتماسك.
أجبت:

- ولكن فرنساوية هذه الأيام مختلفون، فرنساوية اليوم يرفعون شعار الجمهورية، والمساواة والإخاء، والحرية.

- الشعارات جميلة، هل تُصدّق الشعاراتِ مثلك مثل الشباب الطائش؟ حتى لو افترضنا أن كلامك صحيح، حكمهم لمصر يعطيهم الحق في بناء كنائسهم ونشر تعاليمهم، وبالتأكيد سيكون القبط عُرضة للتأثر بهم، وكما يقولون: «الناس علي دين ملوكهم»، سيتحول الناس إلى عقيدتهم تدريجيًا، حتى وإن لم يعملوا هم على ذلك، وهذا ما أشك فيه، إنهم دأبوا على إرسال

إرساليتهم إلينا دون أن يملّوا أو يكلّوا، كيف لك وأنت رَجُل أكليروس، تفصل بين حُكم الفرنساوية وما قد يجلبه من خطر على عقيدتنا؟ أنسيّت التاريخ؟ أنسيّت الرعب البابوي؟ لا بدّ أن نقاوم الفرنساوية بكل ما أوتينا من قوة، ونحث الرعية على مقاومتهم يدًا بيدٍ مع الأهالي والمماليك، ونشرح لهم أن دعم الفرنساوية هو خيانة لعقيدتنا الأرثوذكسية.. هذا واجبنا.

كانت أحداث القتل والتنكيل من الأهالي بنصاري الرملة، وبين السوريين والأزبكية، صراخ النساء وعويلهن، الرؤوس النصرانية المعبّأة في الأجولة كأنها ثمار قُطِفت هدية لعثمان كتحدا، تمرُّ في ذهني تُهاتفني وتُطالبني بأن أدافع عن حقها المهذّر ودمائها المغدورة.

نظرت له باستنكار ودهشة:

- أتريد مني أن أحت الرعية وأدفعهم باسم المسيح إلى أن يضعوا يدهم بيد من يقتلونهم؟

استطرد الكاهن مرقص قائلاً: «وقوفنا معهم لا يمثل خيانة لديننا الأرثوذكسي الصحيح، هم يحكموننا من سنوات، معركتهم معنا انتهت منذ زمن، أخذوا الحكم، أَرهبوا مَنْ أَرهبوا، ورَعَبوا مَنْ رَعَبوا، تحوّل الكثير إلى الإسلام، أمّا القِلة الباقية التي ظلت على إيمانها فلم تعد تشغلهم، ولا هم الآن يمثلون خطرًا يُذكر على عقيدتنا، مهما عانينا منهم من اضطهاد أو دفع جزية أو حتى قتل».

لم تبدُ على وجهي أي استجابة أو علامات اقتناع بما يقوله، ربما تمنيت أن أعارضه، ولكنني احترمت كبر سنه وقدم رسامته.

أما هو فقد هدأت نبرته قليلًا واستأنف حديثه محاولة إرجاعي عما يجول بخاطري «الخطر الحقيقي الآن بالنسبة لنا هم الفرنساوية، إذا حكمونا حتمًا فسيخضعوننا لبابا رومية، يعقوب وأمثاله من أصحاب المال والنفوذ لا يحسبون عواقب الأمور، لا يقرأون التاريخ، ولا يعرفون الدين، لا يدركون حقًا وليس عندهم بُعد نظر، يعقوب أثاره أن المماليك والعامّة دخلوا يقتلون النصاري، أخذ يدعم الفرنساوية حتى يقي النصاري شر القتل، لا يعرف يعقوب كم من الدماء أهدرت حتى نحافظ على عقيدة الكنيسة القبطية، يعقوب لا يسمع شيئًا عن فترة الرعب البابوي، والآن يأتي هو ليسلم الفرنساوية مصر والكنيسة القبطية، أفهم ذلك من رجل مثل يعقوب، لا يعرف إلا لغة المال والسطوة، أمّا أنت رجل دين فلا أفهمك، ولا أفهم

أسبابك».

نظر إلى الكاهن مرقص، بنبرة محذرة قائلاً:
- الحفاظ على العقيدة ليس أمرًا هينًا، هناك ضرر أقل من ضرر.

(٤)

جلستُ في الدكان مع عمي جرجس، كان صباح يوم الخامس من طوبة، ربّنا أمورنا لنذهب معًا إلى المعلم يعقوب في داره خلف الجامع الأحمر، بعد هذه الليلة الطويلة من التفكير تمنيت أن يأتي النهار سريعًا، ربما لأجد نفسي أمام الأمر الواقع، لأحسم ذلك الصراع الذي أرّقني.

وصلنا إلى دار المعلم يعقوب، كنت سمعت عنه كثيرًا ولم أتحدث معه عن قرب، رأيتُه عندما بنينا القلعة، وفي العكسة في الأزيكية وبعض المناسبات والظروف العامة.

جلسنا أنا وعمي جرجس في بهو بيته الكبير الذي يشبه بيوت الأغوات بفخامته وكبره. بيت حسن الأثاث، بمتكات متّجدة بالحرير الليوني والشراريب الذهبية، في انتظار مجيء المعلم الذي لم يتأخر كثيرًا، أحضر لنا الخدم بعض الفاكهة من الحديقة التي حفلت بالأشجار الجميلة والتكعيبات الكبيرة التي تنتظر أن يغطيها الكروم وتثقلها عنقيد العنب الفاخرة.

جاء المعلم يعقوب، كان رجلًا ضخماً وسيماً يرتدي معطفاً من فراء الثعالب فوق ملابسه فيما لف شالاً من الحرير الهندي فوق رأسه.

لم أفهم مشاعري تجاهه، فهو حقاً مختلف عن كل من عهدتهم من القبط، حتى أكابره، يبدو عليه الغرور والتكبر، ولكن بقسمات وجهه عزة نفسٍ شديدة، وبنبرة صوته الجبلي قوة وثبات بإمكانهما إرهاب جبل، على الرغم من محاولته الترحاب الشديد بنا، أو بالأحرى بعمي جرجس الذي بدأ يتحدث معه في أشياء كثيرة تخص ترتيب الأوضاع، سواء في الفيلق أو أمور الصيارفة، لم يكن الود، بل الهيبة هي ما شعرت بها تجاهه.

بينما كان جرجس يتحدث مع يعقوب سرحتُ بعيداً في طفولتي: «كيف كنت أتسلل إلى ميدان النشابة لأراقب المماليك وهم يتدربون على الفروسية ورمي الجريد وهمز الخيل، كانوا يكسون الخيل بسراج ثمين ويلبسون الحرير المكسو بالذهب والماس، ويملكون أجمل الأسلحة وأروع الغدرات والمسدسات والتي عرفت فيما بعد أنها وارد لندن، بالإضافة إلى السيوف

الدمشقية المرصعة ذات الأعمدة المصنوعة من الفضة المذهبة، وعندما
لاَحَظَني أحدهم ذات مرة سألني:

- هل تحب أن تكون معنا؟

أجبت:

- نعم.

فسألني:

- لماذا؟

أجبت:

- أتمنى أن أكون مثل تادرس الشطبي، شفيع كنيستي.

وقتها تغيرت ملامحه، ونهرني بشدة، وحذرنى من أن أجيء هنا مرة أخرى
قائلًا:

- امشِ مِن هنا يا نصراني، ما بقي إلا النصارى يركبون الخيل.

عدتُ ليلتها إلى كنيستي في مصر القديمة، وقفت أمام أيقونة القديس
تادرس التي كان راكبًا فيها على حصانه وبكيت، وطلبت منه أن يتشفع لي أن
أصبح يومًا ما قائدًا للجيش، عظيمًا مثله.»

بدأ جرجس في تقديمي للمعلم يعقوب قائلًا:

- هذا فضل الله، ابن نخلة ابن الزيات يعقوبي من أفضل شباب الكنيسة،
شاب قوي وذو بأس على الرغم من نحافته الظاهرة، يعمل نجارًا في ورشة
«أبونا عبد الملك»، تحدثت معه، ودعوته أن ينضم لك ويكون من رجالك.

نظر إلى يعقوب نظرة فيها الكثير من الحزم قائلًا:

- هل أنت متزوج؟

- نعم يا معلم.

تدخل جرجس قائلًا:

- إنه زوج ابنتي محبوبة.. حَقًّا إنه ما يزال شابًا صغيرًا، ولكنه رَجُلٌ يمكنك
الاعتماد عليه.

استطرد يعقوب قائلًا:

- هل تعلم أن الالتحاق بالجيش ليس أمرًا سهلًا؟ نحن القبط لم نعتد على
هذا، ولا نعرف الكثير عنه، ستضطر أن تترك بيتك لمدد كبيرة، ربما أشهر،
ستدخل معارك ربما لا تعود منها سليمًا، وربما لا تعود أبدًا، ستتغير حياتك، لن
تكون حرًا، ففي الجيش كل شيء بنظام: الأكل، النوم، الحركة والالتزام

بالأوامر، ستفقد كل هذا، ولكنك في المقابل ستكسب أشياء أخرى، أشياء ستدركها فيما بعد عندما تمسك سلاحك، غدًا سأخذك إلى معسكر التدريب، سُنَجِرَى لك بعض الاختبارات لتحديد استعدادك، ثم نرى بعدها ما سيكون. كانت ليلة صعبة، صارحتُ محبوبة بلقائي بيعقوب، وعزمي أن أتحرك إلى المعسكر صباح الغد تهيئاً لانضمامي إلى الجيش، في البداية وَجَمَت قليلاً، كانت عيناها تنطقان بمعركة لا تعرف: هل تبدأها أم تؤجلها؟ استردت هدوءها محاولةً امتصاص انفعالها، وقالت:

- وَمَن قال لك إن الفرنسية لن يكونوا أسوأ من المماليك؟ هل تتصور لأنهم نصارى؟ يقال إن بونا برته أعلن إسلامه، وأصبح اسمه «الحاج علي»، ولولا سفره لكان فعل ما رده الناس أن السلطان الفرنسي سوف يختن ويضع العمامة، باع المسيح والصليب حتى يكسب الأرض، إنه خائن للمسيح، فكيف تثق فيه وفيهم؟

لا أعرف لماذا ارتبكت؟ ربما كان كلامها فيه شيء من الحقيقة، شعرت بالضيق منها، ومن كلامها أحببتها مُنهيًا الحوار:

- ولكنهم سيظلون نصارى، ولن يقولوا لنا نصراني كأنها سبّة، لا داعي للكلام، اتفقت مع المعلم يعقوب، وفي الصباح سوف أتحرك إلى معسكر التدريب.

استيقظت مبكرًا قبل بزوغ شمس صباح ذلك اليوم، هبت رياح قوية جنوبية أثارت زوبعة ترابية أدت إلى إظلام السماء، تلى ذلك أمطار في غاية القوة إثر غيوم سوداء باردة، مما جعل الشوارع كلها موحلة، بعد أن كان مطرًا خفيفًا لعدة أيام متتالية، لدرجة أن الشوارع أصبحت كُنُلاً طينية، وهذه الأرض الجافة أصبحت فجأة لينّة رطبة غير صالحة للمشى، واختبأ الجميع في بيوتهم، فليس لأحد القدرة على المشى في هذا الوحل، ولكن لا بدّ أن ألتزم بكلمتي واتجه إلى معسكر التدريب في الأزبكية حسب اتفاق مع المعلم يعقوب.

لم أكن أتخيل نفسي بعد أن أخلع العمامة والجلباب، وبعد أن أحلقَ ذقني، لا بدّ أن أحلقَ، فقد كانت الحلاقة شرطاً على كل من ينضم إلى الجيش، كيف سأرى نفسي؟ وهل سأعتاد على زي الجديد الذي يشبه زي الجنود الفرنسيين بألوانه الزاهية؟

تم ضمّي إلى تشكيلٍ به حوالي مئة وخمسون جنديًا من القبط، كان التدريب يتم في ساحات مفتوحة، وأحيانًا في الخلاء الزراعي، وبالإضافة إلى

التدريبات العسكرية العملية كنت أذهب إلى المدرسة a lecole هناك تلقيت التعاليم النظرية والمبادئ العسكرية، وسلوكيات الجندي النبيل، وبعض الخطط النظرية، والتكتيكات الحربية، بالإضافة إلى مبادئ اللغة الفرنسية. في معسكر التدريب بدأت حياة مختلفة، لا تشبه ما اعتدته وما ألفت من قبل، تحولت الحياة تمامًا، فالحياة الآن جداول زمنية، فحوص طبية، ونظم مراقبة قاسية، كانت الفترة الأولى في المعسكر هي الأطول على الإطلاق، كان الهدف هو فصلنا عن حياتنا السابقة بكل ما فيها؛ حتى نتعود على حياة العسكرية، لم أجد عند الفرنسية الحريير المكسو بالذهب ولا السيوف الدمشقية المرصعة بالفضة المذهبة، وجدت أشياء لم أرها من قبل مدفعية الميدان سهلة الحركة، ومدفعية أخرى تجرها الخيول، أما هذا المدفع الذي يسمونه مدفع جيربوفال، الذي أخذت وقتًا طويلًا لكي أحفظ اسمه، كان مدفعًا قويًا بشكل لا يمكن وصفه، يستطيع إطلاق عدد كبير جدًا من الطلقات النارية بسرعة مذهلة.

«القائد فايان» المسئول عن تدريب كتيبتنا، كان رجلًا متوسط القوام، نحيل الجسد، قوي البنية، شاحب الوجه، أنفه صغير، له عينان تُثمان عن ذكاءٍ وقوة، في تكوينه ما يوحي لك بالمتناقضات، ففي وجهه وقارٌ وحزم ممزوجان بمرحٍ وطيبة، وفي سلوكه رقة وتواضع لا يخلوان من كبرياء، وربما كبرياء لا يخلو من تواضع، وقدّر فائق من الذكاء. أمّا الجاوبشية فكان معظمهم من القبط الذين شاركوا من قبلي في حملات «ديزيه» على الصعيد، وأصبح لهم خبرة كبيرة في التعامل مع الفرنسية، حتى وصلت إلى الصداقة مع بعض جنودهم، كأسعد القبطي الذي استطاع بحكم معرفته بالطرق في الصعيد، أن يكون دليلًا لقواتهم هناك، ثم بدأ يشارك في حمل السلاح معهم، وعندما تدهور الوضع بالقوات ونقص عددها، استطاع أسعد بقيادة المعلم يعقوب أن يجمع من شباب القبط عددًا كبيرًا من الأقوياء الأكفاء الذين شاركوا معهم، وأبلوا في ذلك بلاءً حسنًا، أصبح أسعد ملازمًا لفايان طوال الوقت، ولكنه لم يتخيل أبدًا أنه في غضون أشهرٍ قليلة ستنشأ هذه العلاقة القوية بيني وبين فايان.

اعتبرني أسعد من أقاربه، وعندما علم أن موطن رأس أسرتي هو فرشوط، بدأ يهتم بي، قال لي إن هذا ليس السبب الوحيد، ولكنه أيضًا لاحظ نهايتي الشديدة في الرمي.

كان فاييان يتحدث العربية بشكلٍ أفضلٍ من كثيرين، فلم تقتصر لغته على الكلمات المعتادة الخاصة بمفردات التعامل مع الجنود، أو الأكل أو الشرب، بالطبع كانت كلماته تقال بلغة عربية تشبه الفرنسية، فلا تفهمها إلا إذا اعتدت الحديث معه.

أول تعاملٍ مباشرٍ لي مع القائد فاييان عندما دخل التدريب ذات مرة ونظر إليَّ قائلاً:

- ما اسمك؟

- فضل الله الزيات.

تفحّصني جيداً، وابتسم قائلاً:

- إنه يشبه المصريين القدماء جدّاً، وكأنني أرى الملك المحارب على عجلته الحربية المنقوشة على جدران معابدكم.

كان يقصدني أنا، لم أكن أعرف وقتها مَنْ هو هذا الذي أشبهه، فالتعليم الذي تلقّيته في الكنيسة على يد العرفان البصيرين بقلوبهم. كان يقتصر على الكتابة والقراءة وبعض الحساب وبعض من اللاهوت، ولا أعتقد أن هناك من الشباب الذين كانوا معي في التدريب مَنْ اهتم يوماً بنقوش المعابد وملوكها. بدأ التدريب المكثف، وأصبح فاييان وأسعد القبطي ومكاريوس عالمي كله. أدركت في وقت لاحق أن فاييان رجل لطيف، وأنهم عندما كانوا في إحدى الحملات في الصعيد، وقد عسكروا جميعاً في مكان واحد، كان يُسمح للجميع من زعماء القبط أن يجالسوه هو وأصدقائه من علماء الحملة.

لاحظ القائد فاييان أيضاً مهارة الرمي الخاصة عندي، لدرجة أنه كان أحياناً يطلب مني أن أشرح له كيف يمكنني اقتناص أي هدفٍ بسهولة، لا أعرف من أين أتيتُ بهذه المهارة، وهل «لعب النبلة» في قرينتنا واصطياد العصافير بها هو الذي ساعدني على اكتساب تلك المهارة؟ وهل له كل هذا التأثير؟ لا أعرف. ربما كانت منحة من الله لم أكتشفها في نفسي حتى أتت الفرصة على أيدي أسعد القبطي والقائد فاييان.

اهتم فاييان بي، وبدأ يُطالبني بزيادة المِران، بل يدرّيني تدريباتٍ منفردة على كل شيء: استخدام السيف والبنديقية، وركوب الخيل. فاييان كان محارباً فوق العادة، فقد كان في استطاعته أن يدفع بأربع من أصابع يديه في قصبات أربع بنادق، ثم يحمل البنادق الأربع في طرف ذراعه المحددة، أخذ يعلمني أن أفعل هذا، أعتزّف أنه لم يكن بالأمر السهل في البداية، ولكنني مع الوقت

أصبحت أجيده، تذكرت كلمة يعقوب:» ستتنازل عن أشياء كثيرة، ولكنك أيضًا ستكسب الكثير عندما تمسك سلاحك».

لا أعرف إذا كنت محظوظًا أم لا، فقد تَعِمَت القاهرة بهدوءٍ نسبي بعد الاتفاق الذي عقده كليبر، وعلى الرغم من التدريبات الشاقة في المعسكر فلم تكن هناك معارك كبيرة أستطيع أن أستعرض فيها ما تعلمته.

وبما أن القائد فايبان كان مغرمًا بصيد النعام، فقد استغل فترة الهدوء في القيام برحلات صيد، كنت أصاحبه في رحلاته للصيد، كان فايبان قد فقدَ إحدى أصابعه، كما عَرَفْتُ منه فيما بعد في معركة الناصرة، ولكنه التقطها واحتفظَ بها، وعندما بدأ الفرنسيون في الرحيل عنها قرر فايبان أن يدفنها هناك قائلًا في نفسه:«لا أعرف ماذا سيحدث لجثتي بعد موتي، ولكنني على الأقل سيكون لي إصبع في الأرض المقدسة».

لم يفقده نقصان أصابعه قدرته الهائلة على الرمي، هكذا كنت أرى، أمّا هو فكان دائمًا يشعر أن شيئًا ما نقص، ولذا كان يعتمد عليّ في تلك الرحلات التي كنت أرافقه فيها، ويسعد بي لأنني في مدةٍ قصيرة أقوم باصطياد أعداد كبيرة من النعام، أطلق عليّ فايبان اسم «جالينجو»، قائلًا: أنت مثل طائر الجالينجو، تملك نفس قدرته الهائلة على التخفي والتمويه.

لم يكن فايبان مغرمًا فقط بصيد النعام، ولكن بالنعام نفسه، إذ كان يردد دائمًا كلمة بونابرت:«أن النعام شبيه ربيب الصحراء، وأنه أكثر يقظةً من أي طائر آخر». في الواقع لم يكن هو وحده المغرم بصيد النعام، فقد كان كل الصلداة يهوون صيده ويستمتعون بوضع ريشته من ريشته على قبعاتهم، أمّا أنا فكانت سعيدًا بإحضار بيض النعام وإعطائه لأمي التي كانت أيضًا تقدّسه، فكانت تأخذه بدورها إلى مصر عتيقة، ودير الخندق، ليعلق هناك أمام الهيكل، وليحسب تقدمًا لها تطلب بها أن يعوضها المسيح بملكوت السموات.

انفجرت ظروفنا المادية قليلًا بعد الكساد الذي عانينا منه منذ مجيء الفرنسيين، استطعت بيع بعض من راتبي أن أجرب لأول مرة التبع الفرنسي المصنوع في بيت محمد الكاشف، أمام المطعم الميلاني، وأن أشتري لمحبة بعض الفطائر الفرنسية والسكر والعطور، ولكنها أبدًا لم تتقبلها، ولم يسعدها زيادة دخلنا على الرغم من أن راتبي الآن يفوق كل ما ورثته عن أمها عندما باعت التركة التي تركتها لها «ثمانية عشر قِطًا زبدة، ثلاثة عشر من الذكور، وخمسة من الإناث بمبلغ اثنين وثمانين ألف نصف»، كما لم تتقبل

شكلي الجديد بدون اللحية، وعلى الرغم من محاولتي الدائمة لإرضائها، لكن كان هناك شيء جديد ظهر بيننا، وأصبحت تعاملني وكأنني فضل آخر غير الذي تزوجته، تصورُ في بادئ الأمر أن غيابي عنها في معسكر التدريب بالشهر، وأحيانًا بما يزيد عن الشهر، هو السبب، ولكنني عندما كنت أحاول أن أقرب منها ففتحج بلطف أو توافق بدون رغبة حقيقية، أدركت أن هذه ليست تصرفات امرأة يزعجها غياب زوجها، لم تعد محبوبة التي عهدتها، لم تعد شفتها تستجيبان لي، ولم يعد نهداها يستقبلاني نافرِين كعهدي بهما.

لا أعرف ماذا حدث لها، هي دائمًا واجمة حزينة، جهزت لي محبوبة الطعام وجلسنا لتناول العشاء، كانت صامته لا تبتسم ولا تبادلني فرحتي وأنا أحكي لها عما تعلّمت في معسكر التدريب، وكيف أصبحت ماهرًا في استخدام بندقية القنص، وكم من النعام اصطدته مع فابيان في الرحلة الأخيرة، أخذت أغني وأرغم مداعبًا لها:

أصله من بيت أمراء بلدة شطب الحمراء
مركوبه سرج ذهب من القصعة للكربوس
وحصانة أحمر أشهب
نزل وسط الميدان وأهلك عباد الأوثان
رمى سلاحه في الحضرة أنا مسيحي يا كفرة
سيدي الأمير تادرس محمي باسم القدوس

ياه.. كم أتمنى أن تكوني معي يا محبوبة لتري زوجك وهو راكب جواده مثل الأمير تادرس الشطبي قابضًا بكلتي يدي على عرق في سقف الأسفلت، وترى كيف أستطيع أن أرفع الجواد بين فخدّي.

اقتربت منها لأداعبها، أبعدت يدي عنها، وقالت لا تلمسني بيدك الملوثة بدم القتلى.

آلمتنى محبوبة - ابتعدت عنها قائلاً:

- لم أقتل أحدًا يا محبوبة.

- يعطونك راتبًا ومأكلاً وملبسًا، ويدرّبونك ويعلمونك الفروسية حتى تصطاد

لهم النعام، وتحضر بيصّه لأمك؟

كان كلامها مستفزًا، وجدتنني أجيبها بنفس طريقته:

- لم توجد معارك منذ أن التحقت بالجيش، أنا الآن أتدرب وأساعد في

حفظ الأمن في المحروسة، ولكن عندما توجد معارك أعدك أنني سأفتك

بأعدائي، فأنا محارب ولست قاتلاً.
لم يقطع هذا الحديث الحاد إلا دخول أبيها صارخاً:
- قتلوا ساري عسكر.. قتلوا كليبر.

* * *

دُفِع الباب دفعة قوية، لم يكن لديها الفرصة لأن ترى أحداً ممن اقتحموها واقتحموا البيت، جذبوا عنوة أطاحوا بها أرضاً حتى سمعت صوت ارتطام عظامها، وفي ثوانٍ معدودة كانت تُجَرُّ معصوبة العينين من يديها ورجليها وشعرها جراً وسط صراخ كل من حولها في البيت والحارة، تداخلت أصواتهم المفزعة، فأصبحت لا تُفسر ما يقال، ولا بأي لغة، كل ما أدركته أنها هي المقصودة، فقد كانت تسمع اسمها يجلجل في حناجرهم.. محبوبة.. محبوبة.
لامسَ جسدها المجرور إلى غير وجهه الحصير الذي افترشته وصنعت يدي سليمة، حصى الطريق الذي طالما جمعته ولعبت به في طفولتها، وروث الماعز التي ترتع أمام دارها تؤنس جسدها المنقول إلى حيث لا تدري، فتشعر به يطمئنها أنها لا تزال على الأرض الجماء التي تعرفها تشم رائحتها.
لا تعرف إلى أين يقتادها هؤلاء؟ اختفت روائح البيوت، تغير ملمس الأرض، ابتعدت أصوات حفيف الأشجار التي عهدتها، أخذت يداها تنخلعان عن جسدها من شدة السحب، هكذا هيئ لها، توقّف من يسحبونها عن جرها، فكوا العصبة من عينها لترى الآلاف من المحتشدين كأنهم في سوق، ألوانهم شتى، وملابسهم مختلفة، جلايب وسراويل، وملابس فرسان وجيوش، صوت أمر يأتي من بعيد، اطرحوها أرضاً، وبسرعة شديدة ينفذ المثلثون الأمر، قام أحدهم بإلقائها على بطنها، وفتح رجليها، أخذت تصرخ وتدافع عن عفتها، وتعلن أنها لن تمكّن أي رجلٍ منها، تستنجد بالعدراء. كانوا ثمانية، تكفل كل اثنين بأحد أطرافها حتى يشلون حركتها تماماً ويمنعونها من أي مقاومة، قام آخر بشق شرجها بموس، ثم حشاه بعجين، بينما الجلاد يحضر تلك العصا الطويلة ذات القمة المدببة، والتي طولها يزيد عن ثلاثة أمتار، وبدأ في إدخال الخازوق، ومع أول دخول للعصا فيها، أدركت محبوبة أنه الموت، بدأ صراخها يعلو، لماذا أنا؟ لماذا أنا بالذات؟ صوت القهقهات يجيبها من بعيد، لأنك الجميلة، وآخرون أنت صاحبة الخير، كانت شبه عاربة، شعرها الأسود الكثيف المموج ينسدل على ظهرها الحنطي، بدأ الجلاد يدق الخازوق بالمطرقة في دبرها، أخذ يُمرّره بين عمودها الفقري وجلدها بمهارة وخفة، دون أن يمس

قلبيها أو رثيتها، كان حريصًا أن تظل على قيد الحياة مدةً أطول ليثبت مهارته، تزداد نشوته كلما تعلو صرخاتها المحمومة الممزوجة من الألم، وينتفض جسدها مع كل تمريرة، حتى أخرجه من أعلى كتفها الأيمن.

دخل الليل، انفضت الحشود، بينما هي معلقة على الخازوق، متهافئة من الألم، لا تقوى حتى على الصراخ، تبدلت محبوبة فشابَ شعرها، هدا الضجيج من حولها، وساد الصمت، أصبحت لا تسمع إلا فحيحًا وصرصره ونعيقًا وعواءً، ظلت ليلتها لا ترى إلا هؤلاء المثلثمين الذين لم ينفضوا بعد، يراقبون آلامها، تأوهاتها، استغاثتها الخافتة، هذياتها، صلواتها الباكية «أبانا الذي..»، شعرها المتناثر، جسدها وهو ينزلق تدريجيًا ببطء إلى أسفل.

كيف دُمّرت الحواس؟ كانت في البداية تستنجد من العذاب، ولكن عندما ارتفعت درجة الألم فقدت الإحساس به، فقدت القدرة على الصراخ والتعبير، وتمتت الموت لأنه راحتها، ظل جسدها على الخازوق طول الليل حتى أكلته الجوارح.

ومع الشفق بدأت تسمع من جديد صوت الرخى، وشمَّ أنفها رائحة طلَّع النخل، بينما الطير يقف على شعرها يداعب خصلاته.

* * *

عندما عدت في إجازتي التالية، تحدّث معي جرجس غزال أن محبوبة حالتها سيئة، تهاجمها الكوابيس والأحلام المرعجة بكثرة، منذ تلك الليلة التي علّق فيها الحلبي على الخازوق في تل العقارب أصبح نومها قليلًا وصحتها في تدهور، تغيرت كثيرًا، أصبحت تشكو دائمًا من ثقلٍ وصداعٍ متنقل، رأسها لا يجدي معه أي دواء، صارت متخبطة في أفعالها وأقوالها، لم يعد لديها أي شهيةٍ للطعام، ترفض الأكل دائمًا، تبكي أحيانًا وتضحك أحيانًا بدون سبب، كارهة ورافضة للجميع، هذا غير الهذيان بأقوال وحركات غير مفهومة، لدرجة أن تتغير معها ملامح وجهها إلى شيءٍ مخيف.

حكى لي جرجس أنه في البداية بدأ بإعطائها التركيبات التي يصنعها من الأفيون وأوراق القنب قائلًا:

- إن الجميع يشتريها مني، لتمنحهم أثناء النوم البهجة الخيالية والأحلام السعيدة التي يرغبون في رؤيتها، ولكنها لم تفلح معها، ذهبت إلى شيخ تجار المعاجين وحكيت له ما حدث لمحبوبة، فأعطاني كمية من الترياق الكبير، كان كريمًا معي، ففي هذا العام تم تصدير الكمية كلها تقريبًا إلى مكة

والقسطنطينية، ولم يتبقَ بالبيمارستان إلا كمية قليلة، ومع ذلك لم يخل عليّ، ولكن الترياق أيضًا لم يأتِ بنتيجة، لا تزال الكوابيس تهاجمها. كان جرجس يتكلم بأسى وحزنٍ وقلة حيلة: «أنا جرجس غزال، أمهر وأشهر معجوني المحروسة، أعجز عن أن أجد وصفة أداوي بها ابنتي». في آخر الأمر، قررت أن أستدعي لها القس مكاري الذي رأى أن محبوبة قد أصابها الحسد. بدأ الأب مكاري في صلوات مسحة المرضى، قرأ عليّ الزيت ورشمها على جبينها باسم الصليب، ولكن يا فضل لم يتغير شيء، لا تزال الكوابيس تهاجمها، لا أعرف لماذا ذهبت إلى تل العقارب، وهل هذا مشهد تحتمله النساء؟

- وهل تعتقد أن هذا هو السبب الحقيقي؟

كان عندي شعور شبيه مؤكد أن ما فيه محبوبة لا علاقة له بخوزقة سليمان الحلبي ولا بالحسد؛ فهي قد تغيرت من قبل هذا، أشعر أن هذا له علاقة بي وبدخولي الجيش، وربما باختفاء زهرة صديقتها التي يعتقد الجميع أنها ماتت محترقة في العكسة الثانية عندما صب الفرنسيون غضبهم على حي بولاق وأحرقوه بمن فيه، فبعد أن هدأت العكسة بعدة أشهر قررت محبوبة الذهاب إلى بولاق لزيارة زهرة، وعندما وصلت إلى بولاق أخبرها الجميع أن زهرة قد اختفت منذ يوم العكسة، ربما قُتلت أو احترقت ضمن من احترقوا، فكثير من أهالي بولاق تفحّموا لدرجةٍ كان صعبًا معها تمييز ملامح أي شخص من غيره. شعوري بالعجز تجاهها كان مؤلمًا، وعلى الرغم من أنني استطعت في عام واحد أن أتحوّل إلى محارب، وأثبت نجاحًا عظيمًا في ذلك، لكن كل هذه الفروسية تقف ضعيفة عاجزة أمام محبوبتي.

حاولت من خلال الأطباء الفرنسيين أن أعالجها، ولكن حتى العلم الفرنسي ودوائه لم يغيرا شيئًا، بالكاد قلت الكوابيس، أمّا الحزن والوجوم وبُعدها عني فلم يتغير منهم شيء.

* * *

(0)

استدعاني فايان وأسعد القبطي، للتحقيق معي في واقعة ضرب الجنديين والنظر في طلب الاستقالة من الجيش الذي قدمته، حدث هذا عندما كنت في السوق، وكان هناك بعض الصلداة في حالةٍ من السكر، أثملتهم الخمر،

كانوا يترنحون، يهيمون في السوق، يعتدون على كل من يرونه من الباعة، يأخذون منهم بضاعتهم بالإكراه، وتصادف مرور ثلاث فتيات بالقرب من الحمّامات العمومية في بركة الفيل، وإذ بي أجد اثنين من الصلداة في حالة سكرٍ شديدة، يحاولان جرّ الفتيات تجاه الحمّام وتجريدهن من ثيابهن عنوةً واغتصابهن، لم أشعر إلا بنفسى أخرج بندقيتى، تماكنت نفسى حتى لا أطلق عليهما الرصاص وأقتلهما، أنا الآن قادر على ذلك، ولكننى للحظة تذكرت أن هذه البندقية هى بندقية جيشهم، وأن أخلاقى لا تسمح لى أن أقتلهما بسلاهما، أعدت البندقية مكانها وانهلت عليهما ضربًا بيدي حتى سقطا على الأرض فى دمائهما.

عدتُ بعدها إلى المعسكر، حكيت ما حدث لأسعد القبطى. قلت إننى انهلتُ على الرجلين ضربًا حتى تم نقلهما إلى المستشفى العسكرى، وإننى مستعد لتوقيع أى عقاب عليّ، ولكننى لا أريد أن أظل فى خدمة الجيش، لقد ضاق صدرى بما يفعله الجنود بنا، أصبحت لا أتحمّل منظرهم وهم يأخذون من الباعة بضاعتهم بالإكراه، أو يعتدون على النساء، أو يسخرون من الكبار. لا أعرف هل حقًا ضاق صدرى بما يفعله الصلداة بالأهالى؟ أم ضاق صدرى من رفض محبوبة الدائم لى؟

لا أعرف هل أقدمت على طلب الخروج من الجيش لأننى لم أعد أتحمّل أن يعتدوا على النساء والعجائز؟ أم أننى لم أعد أتحمّل بُعد محبوبة عنى؟ لا أعرف إذا كان هذا قرارًا حقيقياً أم لا؟ لقد تعلقت بالبندقية والجوآد وبساحات المعارك، ولا أتخيل حياتى بدون ذلك، وخاصةً بعد أن شاركت مع كتيبة الإمداد التى لحقت بالجيش الفرنسى من القاهرة فى رشيد، فقد قلّ بالفرنسيين العدد، وأرسلت بعض الكتائب من القاهرة لنجدتهم، أقام الإنجليز خنادق عميقة لم نستطع أن نتجاوزها على الرغم من أننا أخذنا نكرر الهجوم مرة تلو الأخرى، ولجأنا إلى كل حيل الحرب، ولكننا فى النهاية قررنا الانسحاب بعد كل الخسائر التى حلت بالطرفين، فصدرت الأوامر بعودتنا إلى القاهرة، واتخاذ موقف الدفاع، فقد رأى القائد أن لنا فى القاهرة مواقع قوى لا يمتلكها الإنجليز، وأنهم لا يستطيعون أخذها منا إلا بقبضة خنجر، كما أننا فى الدفاع أقوى من الهجوم، وعلى الرغم من انسحابنا من رشيد، فقد تمت ترقيتى إلى ضابط صفٍ لِمَا أبلّغته فى محاربة الإنجليز فى رشيد، ولما أظهرته فى المعركة من شجاعةٍ ومهارات، «هل أنا حقًا جاهز لأن أترك الجيش؟».

قام فايان بتأجيل النظر في الموضوع حتى يقوم بتقصي الحقيقة وسؤال الصلداة ومعرفة ماذا حدث بالضبط، وهذا أمر ليس صعبًا، فقد تم نقلهما إلى المستشفى العسكري الفرنسي، ثم استدعاني للتحقيق معي قائلاً:

- لقد علمت أنه أثناء دوريتك في حفظ الأمن في المدينة، في منطقة بركة الفيل، في الخامس من شهر فلوربال، قمت بضرب اثنين من الصلداة من الكتيبة اثنين وعشرين مشاة، هل قمت فعلاً بضربهما؟

- نعم.

- لماذا؟

- كانا في حالة من السكر الشديد يحاولان جر الفتيات تجاه الحمام، وتجريدهن من ثيابهن واغتصابهن.

- هل فعلت هذا تنفيذًا لأوامر القائد العام للجيش جنرال مينو التي ألقاها إلى الجنود في خطابه لهم في الثامن عشر من شهر فروكتيدور بردع كل من يتعامل من الجنود مع المصريين بغلظة أو ينتهك حرمتهم؟
كان سؤال فايان يعطيني الإجابة التي تُخرجني من هذا المأزق، وتنقذني من توقيع العقاب عليّ.

- في الحقيقة لا أعرف شيئًا عن هذا الخطاب الموجه للجنود الفرنسيات فأننا لا أجيد الفرنسية، ولم أكن أردع الصلداة، فهذا ليس من سلطاتي.

- إذن بأي دافع قمت بالاعتداء على الجنود؟

- لم أعتد عليهما، لكنني كنت أدافع عن النساء وأنقذهن من أيدي سكارى.

- كنت في الخدمة، وكانت معك بندقيتك، هل استخدمتها؟

- لا.

- لماذا؟

كان فايان يعلم جيدًا أنني لم أستخدم البندقية، فتقرير المستشفى العسكري من المؤكد أنه أوضح أن الإصابات جاءت نتيجة ضرب مبرح، وليس بسبب سلاح، ولكن التحقيق كان لا بد أن يتم كما ينبغي.

- إنني أحمل سلاح الجيش الفرنسي لاستخدامه في المعارك وردع المتمردين، أمّا أن أنقذ فتاتين من تعدي سكارى فيدّي كرجل كفيلا بهذا.

كان التقرير الذي كتب بعد التحقيق في الواقعة أن: «فضل الله الزيات، ضابط صف بالفيلق القبطي، تصرفًا نبيلًا يليق بأخلاق الجمهورية في حماية أعراض وحُرّمات المصريين الذين أصبحوا اليوم إخوانًا للفرنسيين؛ ولذا

تمت ترقيته إلى ملازم». نظر إليّ فابيان متسائلاً:
- هذا إذا لم تكن مُصِرّاً على طلب الاستقالة؟

(٦)

لا أعرف ماذا حدث بالضبط؟ استسلمت القوات الفرنسية في القاهرة دون مقاومة ودون أن يشن عليها هجوماً منتظماً، دعانا المعلم يعقوب إلى لقاء في بيته، كان عددنا حوالي مائة وخمسين شخصاً، منهم قادة الكتائب في الفيلق القبطي، أو كما كان معروفاً في الصعيد بجيش المعلم يعقوب، بالإضافة إلى كثيرين ممن تعاونوا مع المعلم، بدأ حديثه لنا قائلاً:
- لقد اجتمعت بكم اليوم، بعد أن كتب بونابرت للورد هوكسبري: «سترد مصر إلى الباب العالي».

تذكرت لحظتها أول لقاء لي به، عندما أخذني عمي جرجس بعد العكسة الثانية إلى هنا، نفس البيت، نفس المكان، عام واحد مضى على تلك اللحظة، ولكن حياتي تغيرت وكأني شخص آخر، عرفت فابيان، ركبت الخيول، وتعلمت القنص واصطدت النعام، واليوم يبلغنا المعلم يعقوب أن مصر سترد إلى الباب العالي.

استطرد المعلم يعقوب في كلامه بعد هذه الجملة القاضية قائلاً:
- إنكم أكثر من أثق بهم، أعلم أن كثيرين منكم انضموا إلى الفرنساوية في بداية الحملة طامعين في حياة أفضل تحت حكمهم، أملين أن يتخلصوا من حُكم المماليك وعجرتهم، أعلم أيضاً أن آخرين انضموا للفرنساوية تصوراً منهم أنهم مسيحيون، وأنهم سيجدون تحت حكمهم حياة أفضل، غير مدركين أنهم جمهوريون ثائرون على الكنيسة في بلادهم، وأن موضوع الدين لا يشغلهم، وأعلم أيضاً أن كثيرين انضموا فقط من أجل المصلحة وكسب الرزق، ولكن هناك سؤال مهم أعتقد أن قليلاً منكم فقط هو من أدرك إجابته، أو حتى سأله لنفسه: ما الحكمة في تأسيس فيلق قبطني بعد أن هرب بونابرت، وكان واضحاً أن وضعهم صعب، فقد تناقصت أعداد جنودهم وفتك بهم الطاعون والأمراض؟ وأن بقاءهم في مصر أمر لم يعد مؤكداً، وأن الباب العالي وحلفاءه إنجلترا وروسيا، لن يقبلوا بسهولة أن تكون مصر من نصيب فرنسا، لماذا لم أغير ولائي؟ وأميل إلى كفة العثمانيين، وقد كان بإمكانني أن

أفعل ذلك، ما الحكمة أن أظل معهم، وأنا أعلم أنهم يتفاوضون على الرحيل؟ وخاصة بعد أن وقّع كليبر اتفاقية صلح مع الباب العالي تعود على أثرها جيوشه إلى فرنسا، وبات واضحًا له وللجميع أو لي أنا - على الأقل - أن جيشهم لن يصمد كثيرًا في مصر. نعم ألغى كليبر الاتفاقية عندما أصر الإنجليز أن يستسلم الجيش الفرنسي كأسرى حرب، ويترك جميع العتاد والسفن، وحارب الجيش العثماني، وهزمهم بعد أن نكثوا اتفاقهم. ولكنني كنت واثقًا أنهم راحلون، وأن بقاءهم لن يدوم طويلًا، ولكنهم سيرحلون أسرع مما تخيلت.

استطرد المعلم قائلاً:

- هذا ما حدث..

نظر إلينا المعلم قائلاً:

- سَمَحُوا لنا بالسفر معهم لمن أراد، فهم لن يتخلوا عن من ساندهم، وأمَّنُوا بموجب اتفاقية عقدها مع العثمانية ألا يُؤدَى مَنْ كان موالياً لهم، ولذا مَنْ أَحَب السفر معهم سيسافر، وَمَنْ يَفْضَلُ البقاء فلن يضره العثمانية بشيء، هكذا وَعَدُوا. أنا لا أثق بهم، ولكنني قررت السفر، ليس خوفاً منهم، فقد أرسلت السلطة العثمانية إلى القائد الفرنسي «بليار» تطلب منه أن يحاول إقناعي بالبقاء، عرضوا عليّ البقاء بشروطي، وأنا أعلم أن مثلي يستطيع أن يحمي نفسه منهم. أمّا عنكم فلکم القرار، مَنْ أراد البقاء فليبق، وَمَنْ خاف منكم على نفسه مِنْ بطش العثمانية، وأراد أن يرحل معي إلى فرنسا، فسندمج في الروضة بعد عشرة أيام من اليوم، ومن هناك نرحل إلى رشيد، ثم إلى الإسكندرية، حيث توجد السفن التي سنقلنا إلى مرسيليا أو طولون.

كانت عشرات من الأفكار تدور في الأذهان، داعبتنا جميعًا الأحلام والمخاوف في آن واحد، الحلم أن نظل هنا دون أن نصاب بسوء، والخوف من أن نسافر إلى المجهول، الخوف أن نظل فيقتلوننا، والحلم أن نسافر فننجو.

(٧)

انتهى كل شيء، كيف سيهاجر فضل الله؟ ومن أجل ماذا سيترك أرضها الممهدة له؟ وأين سيحترث بعيدًا عن جسدها الخصب المشبع بطمي النيل؟

أي أرض تلك التي سيهاجر إليها ويتركها بعد أن اكتشفت ما لم يجب عليها اكتشافه، وبعد أن فقدت فرصتها أن تكون طاهرة كالعذراء؟ إنه الجنون. بالأمس القريب، القريب جدًّا، كانت تبكي ليلة الفرح، لأن رجلاً سيلامسها، فلن تصبح البتول ولن تكون العذراء، أيقونتها التي عاشت عمرها كله تتمنى أن تكون مثلها، لماذا قيلت من البداية أن تكتشف مواضع الأنوثة وتحرك تلك الرغبة والغريزة المرعبة، الوحش الذي حتمًا سيفتك بجسد امرأةٍ شابةٍ لم تتجاوز العشرين إذا ما تركها زوجها ورحل؟

كانت ليلة مخيفة وهي ما يطلقون عليها ليلة الجنَّة، تدق الأغاني ويُلينسها أبهى الثياب الموشاة بالقصب، ويضعن على يديها وقدميها نقوش الجنَّة، تتغامز السيدات والنساء ببعض الكلمات الإباحية، هُنَّ أنفسهن تلك السيدات اللاتي كُنَّ يطالبنها بطهارة البتول ويغرسن فيها فضيلة العذرية، هُنَّ أنفسهن يحاولن الليلة أن يشرحن لها كيف يجب على المرأة أن تقدم جسدها للرجل، وكيف تعطيه كل شيء، يعلمنها فنون الغواية، عقلها الصغير لا يتحمل كيف بين عشية وضحاها يجب عليها أن تتبدل. كيف لهذا العقل الذي رفض صورة المجدلية أن يقبلها الآن ويمارسها حتى لو كان مع رجلٍ واحدٍ تحت مسمّى الزواج؟

عاشت محبوبة جادة غير لاهية، لا تتخيل أنها ستتزوج، حتى ذلك اليوم الذي رأت في منامها أنها أنجبت سبعة من التوائم، رأت نفسها ترقد على فراش الولادة، وحولها سبعة من الرضع شديدي الجمال، وهي تقبلهم تحتضنهم واحدًا تلو الآخر، ولكنها تدرك جيدًا أنها لم تتزوج، وأنها لا تزال عذراء أنجبتهم دون أن يمسسها بشر.

اعتبرت محبوبة أن هذه رؤيا لها وبشارة لكي ترهبين وتدخل الدير، ولكنها عندما حكّت لكاهن الكنيسة هذا الحلم وشرحت له أنها تعتقد أنها دعوة للرهبنة، قال لها إنها حقًّا رؤيا وبشارة، ولكن بالزواج وليست للرهبنة، فهي دعوة لها بأن تتزوج لأنها ستنجب أبناء سيكونون خدّامًا للمسيح، وإن أبناءها سيكون لهم شأنٌ كبير في الدفاع عن رسالة المسيح على الأرض، كانت في الرابعة عشرة عندما رأت هذه الرؤيا التي لم تنسها مطلقًا.

الليلة هي آخر لياليها مع فضل الله، سيرحل غدًا مع يعقوب، سيركب البحر ويسافر إلى فرنسا، سيتركها ليبحث عن.. عن ماذا؟

من أين ستأتي بالسبعة الخدّام الذين بشرتها بهم رؤياها والذين تزوجت من

أجلهم؟ أو هكذا تصورت، الآن هناك شيء أكبر من الخدّام. هناك محبوبة التي فسّرت معنى النشوة، واستطعمت شغف الفراش، هناك جسد فضل الذي أدمنته كوتيدٍ عتيدٍ تدور حوله حياتها.

من أين أتى هؤلاء الفرنسيّون ليأخذوا زوجها ويرحلوا؟ من أين ظهر هذا اليعقوب الذي غوى فضل الله بزهوة السلاح، وملاً عالمه بأحلام الانتصارات الكبرى؟ من وقتها لم يعد جسدها ساحة انتصاراته، ولم يعد فراشها يشيع غرور المحارب الذي خلقه يعقوب بداخله.

في البداية وافقت على مفضض أن ينضم فضل الله ليعقوب، ربما لم توافق، حاولت أن تقتنع بما قاله لها، رضخت لرغبته الجارفة في الانضمام للجيش، كانت عقيدتها تقول: أحب حتى أعداءك، لم تسمع يوماً: حارب أعداءك، ولا: اقتل أعداءك، ولا: ارفع السلاح في وجه أعدائك، ولكنها رضخت، أقنعت نفسها أنه ربما يكون على صواب، عندما قال لها بصوت تملؤه الثقة: لم يكن المسيح أبداً ضعيفاً، وقف أمام أعدائه حتى الموت، كانت تُمنّي نفسها أن تنتهي المعركة سريعاً، ويرحل المماليك، وتستقر البلاد، ويعود فضل الله من معسكرات التدريب الطويلة ليستكمل فتوحاته معها، أو يرحل الفرنسيّون ويعود فضل إلى ورشته، إلى حياتهما السابقة، إمّا أن ينتهي الأمر بأن تترك الأرض وتركب البحر لبلدٍ لا تعرفها، لتعيش مع أناسٍ لا تعرفهم.

عرض فضل الله عليها السفر معه، ولكنها رفضت، رفضت بعنادٍ عجيب، شيء ما يربطها بتلك الأرض لا تعرفه، وتدّ آخر أقوى من وتد فضل الله. وكما رفضت محبوبة، رفض أبوها جرجس السفر، وكذلك رفضت أم فضل السفر قائلة: لقد كبرث يا فضل، ولا أتحمل الغربة، سأعود إلى الصعيد، إلى أهلي وقريتي حتى أدقن هناك.

فعلت محبوبة كل شيء على مدار الأسابيع الماضية؛ كي تثنيه عن قراره، حاولت إقناعه، ولكنه أجابها:

- لن أبقى في بلد يقولون لي فيه: «انزل من على البغلة يا نصراني». انتظريني يا محبوبة، سأعود، من المؤكد أن الفرنسيّون سيعودون، سيجهزون أنفسهم بشكل أفضل، وسيعودون وسأعود معهم لنهزم المماليك.

نظرت إليه بحسرة وعدم تصديق قائلة:

- عاد الفرنسيّون إلى أرضهم. انهزموا بما يكفي، ومات من رجالهم الآلاف، لن يشغلوا بالهم مرة أخرى بمماليكك ولا ببغلتك التي لا تريد النزول من

عليها، ابقَ يا فضل الله، وسيسامحك المماليك، لقد وَعَدُوا بهذا.
لكن كان رده: «لن أطأ طيئ رأسي لهم مرة أخرى بعد أن تعلمت أن أقول
لا، سأموت قهراً إذا بقيتُ».

صَلَّتُ كل الصلوات، طلبت من الرب أن يهديه، وتشفَّعت بكل القديسين،
بكت وتوسلت له أن يبقى، ولكنه صمم: «سأموت قهراً إذا بقيتُ».

كان يجب عليه أن يتحرك في الصباح الباكر إلى منيل الروضة حيث
سيسافرون معاً إلى ميناء الإسكندرية، حيث تبحر السفن إلى مرسيلا.

لم تودَّعه محبوبة، ظلت في فراشها بينما هو يجمع أشياءه، رفضت أن
تُقَبَّله أو تحتضنه، ترجَّأها كثيراً لتنهض من فراشها ليحتضنها، كان قلبها يُحَدِّثها
أنه الغياب الأبدي، غياب يشبه الموت الذي لا تستطيع أن تمنعه، ولكنه مارس
سطوته القدرية قبل أوامره بيدي فضل الله، جفَّ بداخلها فيضانها نحوه ولم يعد
به حتى قطرة ماءٍ واحدة لتمرر بها لحظة الوداع المناسبة لزوجته تودِّع زوجها،
لحظة الوداع اللائقة بكل هذا العشق الذي كان.

وجْهها كان كتمثالٍ من الجرانيت الأسود لا ينبض أي شيء فيه بأي إشارات
الحياة، سوى نظرة عينٍ صارمة تلفظه من بيتها وحياتها ووطنها كما لَقَطَها
هو.

تماسكتُ وهي تسمع خطواته المغادرة في اتجاه الباب، نظر إليها بحب
وعتاب قائلاً:

- انتظريني، يا محبوبة لا تخافي، سأعود، الفرنساوية لن يقبلوا الهزيمة من
العثمانيين والإنجليز، سيعودون وسأعود معهم.

ومع سماع صوت المزلاج وهو يغلق الباب خلقه بدلاً من أن تنفجر في نوبة
البكاء المكتومة داخلها، تحولت محبوبة إلى جسد شاحب شديد البرودة
متجمدٍ، كمن تنسحب منه الروح.

لم يتجه فضل مباشرةً إلى المعسكر، قاده قدماه إلى المطرية، شيء
بداخله دَفَّعه إلى أن يذهب إلى هناك، إلى شجرة الجميز التي تقع بين أشجار
البلسم وزهور الميلاد الحارة، تلك الشجرة الواقعة هنا منذ ما يقرب من ألفي
عام، حيث احتمت تحتها واستظلت بها العذراء مع ابنها المسيح هرباً من
قبضة هيرود ملك اليهود.

«هربت العذرا بابنها إلينا، وعادت إلى بلادها كما أهرب أنا الآن وسأعود كما
عاد المسيح». اغتسل من مياه الينبوع المقدس الذي غسلت فيه من قبل

ثياب المسيح. اقتطع غصنًا من الشجرة ووضعها في حقيبته الصغيرة جدًا. كان غصن الجميزة هو كل ما أخذه معه من مصر في رحلته إلى هذا المجهول.

* * *

في خلال خمسة عشر يومًا تجمّع الفرنسيون في الروضة والجيزة، وكان معهم الجنرال يعقوب وأقاربه، وكان معه حوالي مائة من أتباعه، ومن الشوام نفر كثير منهم برطلمين، ويوسف الحموي وحتى عبد العال أغا الانكشارية، ولكن فضّلت الأغلبية البقاء، فقد كان الانطباع الأقوى عند الجميع أن الفرنسيين هُزِموا، وأنهم لن يعودوا، وأن يعقوب ينجو بنفسه، استسلموا للهزيمة وقرروا الاستفادة من وعد العثمانيين، ربما رضخوا لدموع زوجاتهم وأمهاتهم، ربما جننوا عن مواجهة الرحيل غير المبرر سوى بالخيانة أو الجبن.

ظل الفرنسيون في جهه الجيزة إلى حد قلعة الناصرية وفم الخليج، ووقف حرسهم عند حدهم يمنعون من يأوي إلى جهتهم من عسكر العثمانية أربعة أيام لحين تجهيز مراكب السفر، لم تتخيل محبوبة أنها لن ترى فضل مرة أخرى، لم يطاوعها قلبها أن يسافر دون أن تراه، وربما تصورت أنه سيضعف إذا ما رآها، لم يمنع الفرنسيون أهل البلد من المرور، فوقفت محبوبة وسط الجموع الغفيرة التي تجمعت للاحتفال بخروج الفرنسيين ومعهم الشيخ عمر مكرم والشيخ السادات والمحروقي والمعلم جرجس الجوهري كبير القبط الذي توسط وكلم المشايخ والعثمانية، فكتبوا بالأمان للقبط يغنون وسط زغاريد النساء:

الحمد لله ربنا أوراننا.. بعد المذلة الفرح حين جا نصره
والشكر له دايماً على إحسانه.. كما كفانا المعتدى مع قهره
لولا عداه الإنجليز والألطف.. أمست جميع المسلمين في أسره
والمشركين عادوا بأنحس رجعة.. وعسكر السلطان صبح في استظهار
عدوا الفرنسيين قاصدين الجيزة.. حكم الشروط على عدم الرجعة
وجت جيوش المسلمين في بهجة.. وفي الحسين صلى الوزير الجمعة
لم تستطع أن ترى فضل، كان المسافرون في مراكبهم يستعدون للرحيل.

سافروا من الجيزة بَرًّا وبحرًا إلى رشيد، وحين وصلوا إلى رشيد جهزت لهم السفن في أبو قير، ومن هناك أبحرت السفينة الإنجليزية «بالاس» وقائدها القبطان آدموندس في صباح العاشر من أغسطس متجهًا إلى مرسيليا، وقد أقلت الجنرال بليار قائدَ حامية القاهرة وهيئةَ أركان حربه وثلاثمائة جندي، ركبَ يعقوب السفينة الحربية بالاس ومعه والدته، وزوجته مريم الباتوجي، وابنته، وابن أخيه غيريال سيداروس، وأقرباء آخرون، وعدد كبير من الخدم، كان على السفينة أيضًا بعض أعيان المصريين: لطفي غرة، وجورج عقيدة الذي كان مديراً لجمارك القاهرة، ونقولا السكاكيني، وفرج خوري والأب عبد الملك الشفتشي، ومنصور حنين، وكثيرون. وعلى متنها أيضًا ركبَ فضل الله البحر لأول مرة في حياته، البحر الجوّاني، شربَ كمية من الماء المالح كما نصحوه لتجنّب دوار البحر، كانت عيناه تنظران عن بُعدٍ إلى اليابسة التي تركها خلقه، محايدة مشاعره تجاهها، لأول مرة ترى عيناه هذا البحر الممتد اللانهائي، وهو كنقطة صغيرة تحيطه المياه من كل جانب، لا يجيد السباحة، ربما وهو طفل كان يستمتع باللعب في نيل الروضة في الغطاس، وأحيانًا في نهار الصيف شديد القیظ، ولكنه أبدًا لم يكن سبّاحًا.. لمحت عيناه مساحاتِ الزرقة المتسعة من نافذة غرفته على الباخرة، سرخ كثيرًا وتنفسَ بعمق، وتخيلَ نفسه يعيش بمدينة تدق بها أجراس الكنائس بدون استحياء، تخيلَ نفسه يعيش في عالم أكثر رحابة، وليست حاراتٍ ضيقة يطلق عليها حارات النصرى.

في الأيام الأولى لم تكن الرياح مواتية، كان كل شيء معاكسًا، ولم تتمكن إلا بعد عدة أيام من السير بمحاذاة رأس سان جان بجزيرة كريت، بعد يومين من الرحيل مرض يعقوب مرضًا شديدًا أقعده تمامًا عن الحركة، لم نفهم ما حدث، ربما حمى شديدة، وفي اليوم الخامس من الرحيل ازدادت حالته سوءًا، فطلب أن يرى الجنرال بليار ليكلّمه في أمرٍ ما، ذهب بليار إلى عنبر يعقوب ليعرف منه ماذا يريد.

عندما دخل بليار العنبر حاول يعقوب الوقوف وتأدية التحية العسكرية له، ولكن قواه خارت فسقطَ على سريره.

لا أحد يعرف لماذا أراد يعقوب لقاء بليار ولا بماذا أوصاه؟
أمّا أنا فقد طلب يعقوب أيضًا مقابلتي في اليوم الخامس، أوصاني بابنته ذات الثمانية أعوام، وبزوجته مريم قائلاً:

- أعرف يا أبونا عبد الملك أن الكنيسة لم تكن راضية عن زواجي بها، ولكنها زوجتي وأم ابنتي وأوصيك بهما.

ثم استطرد قائلاً:

- أخاف أن أقول إنني أشعر أنني مغادر، ولكنني تحسبًا للظروف سأقوم بتسليمك سنداتٍ بقيمة مليون ونصف فرنك، مديونية على الخزانة الفرنسية لجرجس الجوهري، وأنطون أبو طاقية، وفلتاؤس، وملطي، وأنا، كل سند بقيمة ٣٠٠ ألف فرنك، هذه المبالغ كان الجنرال ستيف مدير عام إيرادات الدولة أعطاها لي ضمناً لقرض أخذه منا لسد عجزٍ عندهم في الميزانية، وكان الاتفاق وقتها أن تخصم هذه المبالغ من الضرائب المطلوبة من المديرية الداخلية في دائرة اختصاصهم الإداري، ولكن بما أن الفرنسية انسحبوا وعادت مصر لحكم العثمانية فإن هذه المبالغ، وهذه سنداتها، ستطالب بها الإدارة الفرنسية.

يبدو أنه كان محقاً، يقولون إن الإنسان يشعر بأنه سيغادر، ففي اليوم السادس مات يعقوب الذي اشتد به المرض، وأنهى حياته في أيام قليلة، سجل قومندان السفينة أن الباخرة كانت في درجة العرض الشمالي ٣٥، ٤١ ودرجة الطول ٢٩ شرقي جرينتش لحظة موت الجنرال، راعى أدموندس قدره فلم يُلَقِ بجثته في البحر، كما يفعلون في العادة مع كل من يموت على المراكب من البسطاء، بل وضعها في دُنٍّ من الروم.

«كان لموته المفاجئ صدمة لنا، صدمة لكل من سافروا معه، البعض اتهم العثمانيين بأنهم دسُّوا له السم في آخر مقابلة له معهم قبل رحيله، والبعض صدَّق أن الحمى انتزعتَه من الحياة بسهولة كما تفعل دائماً. مات المعلم شبيه وحيدٍ على المركب بعد ستة أيام، لم يكن بجواره سوى نفرٍ قليلٍ من أهله، مات يعقوب ولم يكن ممكناً تلبسه الملابس الداخلية الجديدة المصنوعة من التيل الخالص المنقوعة في نهر الأردن، قمت بتغسيل جثمانه وتلوُّث عليه المزامير وصلوات التحليل، نظرت إليه بحسرة وحزن، تخيلت نساء النصارى

اللاتي أتقذهن يوم كاد يُفتك بهن بأغظيتهن الزرقاء ملطخات وجوههن بالنيلة، يولولن، ينزعن شعورهن ويجرحن جلودهن حزناً عليك يا يعقوب».

تزاحمت التساؤلات والذكريات في رأسي، كم كان يعقوب مختلفاً، حقاً معلم كما أُطلق عليه، مات يعقوب هذا الصعيدي المتمرد الذي كان صنديداً في الحرب، وله قلب كالصخر الجلمود، لا أنسى شجاعته والناس في حالة ذعرٍ، حتى راحوا يزيدون، احتقنت الوجوه، وجحظت الأعين من الرؤوس، حتى مات الكثيرون من الخوف من أهوال ما لاقوا في الحرنفش وبين السورين والرملة، عندما دبح الأهالي عبود بن إبراهيم صباغ العكاوي، على باب بيته، ونهبوا ما نهبوا وقتلوا ما قتلوا، وأخذوا من بقي من نساء وبنات وأولاد عرايا إلى «وكالة ذو الفقار»، في خط الجمالية، لن أنسى ما قاله يعقوب عندما هجم الأهالي وعسكر المماليك على حارة النصارى بالأزبكية:

«نحن ناس رعايا، مالكم ومالنا، فإن كان مقصودكم أن تدخلوا لتنهبوا ولتذبحوا كما فعلتم في المدينة، فهذا لا تملكونه أبداً لكون أننا لا نسلمكم أرواحنا من تلقاء ذواتنا لتفعلوا بنا كما تريدون، فإن كنتم تكفوننا شركم فها نحن رعية لكل من تولى، ونحن قاعدون في بيوتنا ما نقارش أحداً، وإن كان مرادكم أن تفعلوا بنا كما فعلتم بنصارى المدينة، فما عندنا إلا رصاص وبارود».

وقف يعقوب بماله وسلاحه ضد آلاف مُعدة، هذا هو يعقوب غير المرضي عنه.

«لا تتبع يعقوب إلا وتتذكر كلمات الكتاب المقدس، المقاومون للسلطان سيأخذون لأنفسهم دينونة».

كانت تلك الكلمات هي لسان حالهم عندما علموا بانضمامي إلى يعقوب وجماعته، لم يتوقع مني رجال الكنيسة أن أكون في صف يعقوب الذي يعتبرون سلوكه شاذاً غريباً علينا، حتى أنه اتخذ لنفسه خليلة من غير جنسنا، وجاهر بذلك، حقاً لم يكن يعقوب يُشبه ما ألفناه، كان مختلفاً في زيّه وطريقته، ولم يكن رجال الدين راضين عن هذا. وخاصةً البطريرك الذي نصحه عدة مرات بالرجوع عن هذا الطريق، وأن يعيش كسائر إخوانه، ولكنه لم يستجب له وجاوبه جواباً عنيقاً، فغضب عليه البطريرك غضباً شديداً، ولكن كل هذا لم يُثنِ يعقوب، وكان شديد الجراءة لدرجة دفعته أن يدخل الكنيسة مرةً على جواده رافعاً سلاحه، وطلب منه أن يناوله السر المقدس وهو على

ظهر حصانه، فاعتبره البطريك رجلاً مخالفاً ومتهوراً وخارجاً عن الحد، ولم يشفع له عنده أنه كان سبباً في إنقاذ حياة كثيرٍ من نصارى الأزيكية عندما قامت العكسة للفتك بهم.

أمّا أنا فقد رأيت يعقوب جريئاً شجاعاً لا يُشبهه ما تعودنا عليه من السكينة والاحتمال وفداء الأرواح والأعراض، لدرجة تصل أحياناً لدفع المال والهدايا، ربما لم يكن كئيباً بما يكفي ليعرض جرأته بطريقة تجعلها مقبولة، ولكن تلك عادة أصحاب المال والنفوذ، يملكون من القوة ما يجعلهم لا يحتاجون للكياسة، رفضوه لأنه تصرفَ ضد المألوف وخالفَ المتعارف عليه، ولكن هل فعل المسيح غير هذا؟ لقد خرق النظام اليهودي عندما وجد أن الناس أصبحوا تابعين للفرس، وكانت معجزاته تعمدًا في أيام السبت، قائلاً: «لقد جعل السبت للإنسان، ولم يجعل الإنسان للسبت»، لقد آمن أن الإنسان يعلو ولا يُعلَى عليه، لم يكن المسيح أبدًا خاضعًا ولا ضعيفًا، كان ثائرًا متمردًا.

أعلم أنني الآن صرْتُ وحيدًا، لقد دعمت يعقوبَ ضد كل من اتهموه بالفجور؛ لأن الله الذي أعرفه هو إله محرر يتدخل في التاريخ من أجل تحطيم هياكل الظلم، ويرفع المظلومين، ويحرر العبيد، ويُسقط الإمبراطوريات، «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل، ودخل يسوع إلى هيكل الله، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام».

تبعث يعقوب لأنني وجدت معه إجابة أو حتى شبه إجابة عن سؤالٍ ما كان دائماً يُورقني: هل لنا نحن رجال الإكليروس دورٌ أكثر إيجابية غير اللجوء إلى العظائم في القداس الإلهي؟ دورٌ يسعى إلى مواجهة البؤس والظلم الهائل بدلاً من تحمُّلها أملاً في الخلاص؟ فتح لي يعقوب باباً آخر للخلاص.

ولكن مات المعلم قبل أن يعبر.. مات المعلم قبل أن نمر.

(٣)

وبينما كان من رحلوا مع يعقوب في حالة من الذهول لموته الصادم في القمرة (٦٠) على الباخرة، كان فايان يجلس متأملاً يده التي ترك خنصرها في الناصرة.

الآن أعود إلى ليون التي خسرت بعد التمرد كل شيء، لم تخسر فقط أبناءها الذين أعدموا على المقصلة أو قُتلوا في الطرقات، ولا أجمل حي فيها «ساحة بيلكور» الذي دُكَّ دكًّا، ولكنها فقدت حتى اسمها، وحتى روحها، كما خسرتُ أنا خنصري في الناصرة.

عندما تكون داخل الحدث لا تراه، هذه هي حكمة الأشياء، تستنفر الطبيعة بداخلك كل وسائلها للدفاع عن بقائك على قيد الحياة، وأهم هذه الوسائل هو «عدم الإدراك»؛ لأنه ببساطة في تلك اللحظة التي تدرك فيها أنه واقعك، هي تلك اللحظة التي تجعلك قادرًا على أن تضغط على الزناد لتقتل نفسك، لقد حمّنتي الطبيعة من أن أدرك أنني كنت مسئولًا عن ذبح ثلاثة آلاف أسير، لم أكن أتخيل أن يقع اختيار بونابرت عليّ لأذهب للحديث مع الحامية، وعندما تبيّني العثمانيون نادوا عليّ وأعلنوا أنهم على استعداد للتسليم إذا ما حصلوا على وعدٍ أنهم لن يُعامَلوا كما عومِل أهل يافا، أعطيتهم على مسئوليتي تأكيداتٍ شفويةً أن رجال الحامية لن يُقتلوا، وعلى هذا الوعد خرج الجنود وسلّموا أسلحتهم.

«ما عساي أن أفعل بكل هذا العدد من الأسرى؟ ليس لديّ من الطعام ما يكفيهم، ولا من الحراس الذين أستطيع أن أستقطعهم من جيشي، ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ هل أنزع سلاحهم وأطلق سراحهم فينضمون إلى الجزّار ويعززون قوايته في عكا؟ هذا هو بونابرت.. كان قرار بونابرت ذبحهم. ذبح عدة آلاف من الأسرى بعد أن استسلموا بسلامة نية بناءً على وعدي لهم. ثلاثة آلاف رجلٍ ألّقوا سلاحهم، فسيقوا على الفور إلى معسكرنا بعد أن قُسموا إلى مصريين، ومغاربة، وعثمانيين.

هل هذه هي أخلاق الجمهورية؟ هل هذه هي أخلاق الحرب؟ أخذ المغاربة جميعهم إلى شاطئ البحر كان أملهم الوحيد في النجاة أن يلقوا بأنفسهم في البحر، فلم يترددوا، وحاولوا كلهم الهروب سباحةً فضربوا بالرصاص على مهل، ولم تمض لحظة حتى اصطبغ ماء البحر بدمائهم، وانتشرت جثثهم على سطحه، أما باقي الأسرى فقد أخذ أكثر من ألف مدفعي تركي، وقد تم تجويعهم يومين أمام خيمة بونابرت، وتوفيرًا للذخيرة أعمل فيهم الطعن بالسونكي لم ينجُ أحد، حتى الأطفال الذين تشبّثوا بأهلهم وهُم يموتون لم يُرحموا، قام الأتراك بتكويم جثث زملائهم الموتى ليقيموا منها متاريس في وجه الطاعنين بالسناكي.

صبيْتُ طاقةً غضبي كلها على بونابرت، وفي لحظة تسلطت عليّ مقولة فولتير: «من الخير أن يحث قائد نفسه على الانتحار حتى يبت الشجاعة ويستنبط الهمم في الآخرين».

ربما دَفَعَت الطبيعة لي بهذه المقولة والتي كانت إجابتها عندي: «لا لن أكون كبش فداء لجبروت بونابرت، ولن أسمح له أن يستنهض قواته على حسابي، لن أطلق الرصاص على نفسي».

تدرينا جيدًا أن كل ما نعيشه من مآسٍ لا يخصنا، نعيش حياتنا وكأننا متفرجون في مسرح نشاهد سبيكتاكل، وبعد قليل ستنتهي المسرحية وسنعود إلى أهلنا لنحكى لهم كَمَّا جَمِيلًا من الدراما الإغريقية، كيف نجا البطل، أو كيف مات، أو كيف قَتَله عمه، لا يهم حجم المأساة، فإنَّ حكايتها وأنت في البيت تشرب قدحًا من النبيذ مع أسرتك سيكون ممتعًا.

الآن أعود إلى ليون، ولكن هل سأستطيع أن أحكي عن الفلاحين الذين دخلوا على كتائبنا وذبحوها بالكامل؟ وكيف كانوا يلقون بجنودنا في النهر كأطفال لاهين؟ عن الصحراء والعطش الذي كان من قسوته ينسينا الجوع، عن الطاعون الذي حصد آلاف الجثث الملقاة لا تجد من يواربها، فنتركها خلفنا، والرمد الذي أصاب بالعمى معظم جيوشنا، والجمرة الخبيثة، والجدري الذي أكل أجسادنا؟ عن الجنود الذين انتحروا، هؤلاء الذين أدركوا أنهم أبطال المسرحية الحقيقيون، المسرحية التي أخرجها وأدارها بعناية أشخاص آخرون، فزجوا بهم هنا؛ ليمثل بهم وليُقْتَلوا حتى يصفق الجمهور للمُخْرِجين وحتى توضع أسماءهم في كُتُب التاريخ.

سأعود إلى ليون، ولكن مع مَنْ سأشرب قدح النبيذ؟ ولمن سأحكي؟ في لحظة تمنيت أن يشرفني الموت بالحضور في مصر كي لا أعود إلى ليون وأمِّي وأختي نزيلتي السجن، وأهلي جميعًا، أشقائي وأولاد عمومتي يقاتلون في صفوف أعداء الثورة في جيش المهاجرين. ولدتُ في جبال أوفرون من أسرة تنتمي لصغار النبلاء، وكنا من أصحاب الصِّياغ في الريف، ولكن بعد سقوط الباستيل، ومع صدور القرارات بإلغاء الامتيازات للنبلاء والكنيسة، هاجرت أسرتي كما فعل كثير من النبلاء ورجال الدين بعد أن أدركوا استحالة التفاهم مع الجمعية الوطنية، وأدركوا خطورة بقائهم في فرنسا، كانت أسرتي من بين المهاجرين الفرنسيين الذين قَصَدوا حدود دوقية بادن على ضفاف الراين، أو الحدود الإيطالية في كولنر، والتي أصبحت مقرًّا

للعناصر النشيطة المعادية للثورة أو كما يطلقون عليهم أنصار النظام القديم،
تعم أصبحت أسرتي من المُعادين لفرنسا الثورة، لفرنسا الجمهورية، لم أكن
أتخيل وقتما التحقْتُ بمدرسة أفياء الحربية، في الثامنة من عمري، أنني عندما
أكون ملازمًا في الجيش سأكون في هذا الاختيار الصعب بين أسرتي ووطني،
أمنت بالثورة واخترت البقاء في الجيش، وعلى الرغم من ترقيتي أعلم أن
الإدارة لا تأمن لي، وأسرتي كلها جيش أعداء الثورة، في الحقيقة وفي ظل
ظروف الثورة، لم يكن هناك أي قائد في مأمن من التقلبات، حكومة الإدارة
والقناصلة من بعدها مستعدون لطرد أي قائد، بل لإعدامه رميًا بالرصاص،
استعدادهم لصنع قائد جديد.

ثلاث سنوات قضيتها في جيش الشرق، رأيت فيها عالمًا آخر، الإسكندرية،
رشيد، الرحمانية، القاهرة، العريش، عكا، يافا، حيفا، الناصرة.
والآن أعود إلى ليون.. لا أعرف مع من أحتسي قذح النبيذ.

* * *

(٤)

تغيرت الرياح فقادتنا إلى شواطئ صقلية، ثم هدأت تمامًا وتركتنا في خطر
محدد، حتى أنها جرفتنا في اتجاه الشاطئ وفقدت البحارة صوابهم، واستشاروا
دليلهم، ولم يكن أمامهم إلا محاولة أن يرسوا في مرفأ، على الرغم من أنه
غير آمن، إلا أنهم تمكنوا من ذلك بصعوبة بالغة.

لا أخاف البحر البحر، جزء من عالمي، كانت رحلاتي من ميناء دمياط إلى
الشام وإسطنبول؛ حيث ننقل بضاعتنا من سكر فرشوط والبن الذي كان
يأتينا من اليمن عبر ميناء القصير، سافرت صغيرًا مع أبي ما زالت كلماته ترن
في أذني: «يا مصطفى، صاحب البحر، وناس البحر»، رحل أبي أصبحت أباشر
تجارتني بنفسي، لم يكن الفرنسية غريباء عني، فقد قابلتهم في إسطنبول
بالقرب من برج غلاطة، وفي الشام في الوكالة، وكنت أفهم بعضًا من
كلامهم، وفي نابولي التي كنت أسافر إليها خصيصًا لبيع الحرير الأخميمي،
فصرت أفهم بعض كلامهم.

مات ولداي وزوجتي في الطاعون، كنت وقتها خارج البلاد، عدت لأجد لا
أحد، لا أحد غير جيوش الفرنسية في الصعيد، والمعلم يعقوب الذي من
ملوي، كنت أعرفه فقد عمل مع تجارتنا، وطلب مني أن أساعد علماء الحملة

في الترجمة، كان عملي معهم بعضًا من حياة جديدة، أخذتني إلى التاريخ الذي عشت بينه، ولم أره انتقلت مع علماء الحملة في كل مكان حتى وصلنا أعالي النيل في فيلة.

ليست أولى رحلاتي ولكن قلًا خفيًا يعتريني، فالرحلة هذه المرة مختلفة، أسافر على سفينة حربية لأبدأ حياة جديدة تركت تجارتي، وأخذت بعض أموالني لتعيني على بدء تجارة جديدة.

سأغادر فرشوط إلى الأبد، مدينة السكر، والتي كانت حواصل السكر والتمر بأنواعه والعجوة فيها لا تعد ولا تحصى، وشون الغلال الوفيرة التي تنبت وتصبح خضراء عند نزول المطر عليها، فإذا رآها أحد من بعد ظنّها مزارع مرتفعة. تجتاحني الآن ذكريات الطفولة المساحات الشاسعة من قصب السكر، السواقي والطواحين وآلات الحرث والأبقار والثيران التي يصل عددها إلى الآلاف، القوافل المحملة بالعبيد والعاج القادمة من مملكة سنار، فرشوط التي كانت محط الرحال الأخيرة لتجارة «درب الجلابة» لم تعد محط ترحالي الأخيرة، الآن أتركها نهائيًا بلا رجعة.

هذا العالم الذي لا أعرف هل أنا الذي قررت أن أغادره أم هو الذي غادرني؟

لم أكن أتصور أن تكون هذه هي تقلبات الحياة، فلم أر يومًا فرقًا بين التجارة مع الأتراك أو الفرنسية، في إسطنبول أو نابولي. فأنا كنت دومًا صاحب البحر وكل ناس البحر.

قطع تأملي دخول منصور حنين، منصور الذي رسمت لنا الأقدار معًا طريقًا مشتركًا، منذ كنا أطفالًا نلعب سويًا في مجلس شيخ العرب همام، قد كان جده المباشر الأول في حكومة شيخ العرب همام، وكان جدي الشيخ محمد من أقرب الرجال لشيخ العرب، وعندما كبرنا، عملنا معًا في التجارة، سافرنا كثيرًا سويًا، وعملنا أيضًا مترجمين للحملة معًا، جمعتنا الأقدار حتى على هذه البارحة التي أفلتتا إلى رحلة الالعودة بعيدًا جدًّا عن بلدنا فرشوط، أو كما كان جدي يسميها دولة شيخ العرب همام.

كان واجمًا حزينًا أخبرني بموت المعلم يعقوب لم أكن أعرف المعلم جيدًا، قابلته مرة أو مرتين، لم يكن يومًا يعقوب في نظر الكثيرين سوى رجل مصالح، عمل مع الجميع، وكسب من وراء الجميع، ولكنه في الحقيقة أيضًا ليس رجلًا سهلًا، حتى إن شريف مكة، الشريف حسين أطلق عليه «عظيم

حملة ديزيه»، وأعطاه الفرنسيون رتبة جنرال، واعتمد عليه مراد بك في معركة ضد العثمانيين.. لا يمكن أن يكون رجلاً عادياً.
أخذ منصور يتحدث عن يعقوب..

في الحقيقة، كانت حكيمته كبيرة، وليس حلمًا كما يعتقد البعض، لأن هذا لا يليق به فمثله لم يكن يعرف لغة الأحلام، هو رجل لا يعرف غير المال والحسابات والسيوف، تناقص أعداد الجنود الفرنسيين، وعدم وصول إمدادات بشرية لهم، وثقتهم به، ومساعدته لهم في الصعيد، كل هذه الظروف وجد فيها فرصة لتحقيق ما حرمننا. منه العثمانية والمماليك فرصة أن يحصل على موافقة بتكوين فيلق تابع للجيش الفرنسي، فرصة أن يتدرب شبابنا على يد أقوى جيش في العالم، كانت فرصة لن تتكرر. ستكون نواةً لتأسيس جيشنا، وسينضم إلينا كل الأهالي قبط ومسلمين الذين عانوا من المماليك، وتمنوا أن يتخلصوا منهم، سنملك القوة العسكرية التي انتزعوها منا سنوات وسنوات، القوة التي امتلكتها ربما مع الزمن تجعلنا قادرين حتى على محاربة الفرنسيين.

- لكن رحل الفرنسيون أسرع مما تخيل يعقوب، لم يكن الوقت كافيًا لنؤسس نواة قوية..

صمت منصور لوهلة، واستطرد قائلاً بشجاعة لا تخلو من أسى ورحل أيضًا يعقوب أسرع مما كنت أتخيل.

وبالرغم من هذه الشجاعة، ولكنني أدركت مدى الارتباك الذي سيصيب بعض من سافروا مع يعقوب، فكثير منهم لا يعرفون شيئًا عن هذا العالم الجديد، ولا يملكون من الحياة خبرة وصلابة كالتي أملكها أنا أو منصور حينئذ.

(0)

عدت إلى غرفتي، ربما حديثنا أنا ومصطفى عن ذكريات الطفولة، ربما الوجوم على الوجوه والحزن المكتوم على يعقوب، هما ما جعلنا ذكريات شيخ العرب همام ودولته تحاصرني أتذكر كل شيء، كأنه حدث بالأمس، أتذكره عندما كان يجلس في أحد أركان الحجر، بالقرب من مجمرة فحم بهيبته الكبيرة ووجهه البشوش، الباسم، بينما أنا طفل صغير أتعلق بجلباب جدي، كان جدي مباشرًا في حكومة شيخ العرب همام، التي ضمت عددًا من الأقسام، وكان على رأس كل منها محاسب أو «مباشر» قبطني يعمل ليلاً

ونهاجًا.

لم يكن جدي مباشرًا عاديًا فقد أواه شيخ العرب ثقته الكاملة فعهد إليه بمسئولية إدارة معاملاته المالية، بصفته وكيلاً شرعيًا عنه يمثله في المحكمة الشرعية، كنت أرافق جدي في كل مكان وفي أي وقت حتى في الثلث الأخير من الليل، والذي كان يقضيه شيخ العرب همام مع الموظفين الأقباط للنظر في الشئون المالية والإدارية، بعد أن يقضي نهاره وثلثي الليل في مقابلة المترددين على المجلس، الذي دأب شيخ العرب على عقده بشكل يومي في مزرعته الكبيرة بفرشوط، وأطلق عليه اسم «حكومة»، هذا المجلس الذي كان يحضره الأهالي من القرى والمدن والبدو لمناقشة أمورهم ومشاكلهم، ويرفع له الناس شكواهم، يفد الحاضرون إلى المجلس ويغادرونه في أي وقت شاءوا طوال النهار، بحرية دون قيود، وقد كان مطبخ المجلس يقدم طيب الطعام في الإفطار والغداء والعشاء للجميع هذا بخلاف المربات والسكر والحلوى.

كان الشيخ همام بالرغم من هيئته الشديدة واحترام الجميع له رجلًا حنونًا، فكان دومًا يداعيني: «يا منصور: هل بدأت تتعلم حساب الأبقطي؟ أهر رأسي فأنا لا أعرف وقتها ما هو الأبقطي، يداعيني الشيخ قائلاً: «عندما ستكبر سأعينك في حكومتى كبير المباشرين، بدلًا من جدك إنك ذكي ولماح، ويطلب من خدمه أن يحضروا لي شمع العسل».

وفجأة في المجلس ظهرت وجوه جديدة، لم أراها من قبل، وجوه لها هبة تماثل هبة شيخ العرب همام، عرفت بعدها عندما كبرت، إنها لصالح بك كبير متمردي القاسمية، وعلي بيك الكبير. سمعت وقتها كلمات لم أفهمها: «الانفصال عن السلطنة»، الخروج على السلطان، اتفاق مع قوات الموسكوف لنأخذ منهم بوارج حربية ومدافع وأسلحة، توقفت مراكب كثيرة ومنها تجارتنا، والتي كانت تنقل الحبوب والأموال إلى المحروسة وإسطنبول.

كنت صغيرًا لم أفهم ماذا حدث بالضبط، ولماذا توقف هذا المجلس اليومي، والذي كنت أستمتع فيه بأكل شمع العسل، ثم اختفى شيخ العرب همام وعرفت بعدها أنه مات وعندما مات همام، انحسر قلب جدي الذي رافقه في حياته، ولم يمر عام حتى لحق به من حزنه.

الرياح تتعطف علينا مرة أخرى وتنقذنا من هذا الموقف الصعب، حتى تجاوزنا «رأس مورو دي بوركو»، والتي يرتادها البحارة المحنكون منذ أكثر

من أربعين عامًا، اعترفَ لنا البحارة أنهم كانوا في مأزق لم يواجهوا مثله في حياتهم. في نفس اليوم اضطررنا إلى الوقوف في «أوجستا» في صقلية لإصلاح بعض التقنيات، هنا بدأت «جين فلوري» ترتعد في العنبر رقم (١٤) أخذت في البكاء بهستيريا كطفلة في الثامنة يهجم القراصنة البربر على مركب أبيها المحمّلة بتجارته ويخطفونها ويخطفون أمّها، صقلية التي شهدت آلامها وهي تباع كطفلة في سوق للنخاسة، لا تتذكر شيئًا سوى هذا السوق الكبير المنصوب خصيصًا لبيع العبيد البيض، سوى صمتها واستسلامها وهي تقف عارية تمامًا إلا من قلادة كانت ترتديها، بينما يقف التاجر العربي الوكيل لأسواق العثمانيين يرتدي عباءته الخضراء المقصبة بالذهب فوق جلبابٍ أبيضٍ أطرافه محاطة بكورنيش من اللون الأصفر، على رأسه عمامة بيضاء فوقها عقاب من نفس قماش العباءة الخضراء، يتفحصها كبضاعة، يضع إصبعين من يده في فمها ليعرف سلامة صحتها من أسنانها، يضغط بإصبعه بشدة على أماكن معينة في جسدها، بينما هي واجمة مستسلمة، اشتدت الرياح بعنف بالاقتراب من صقلية. دخلت «جين» في حالة هلعٍ دفعتها للخروج من العنبر محاولة الهروب لتحتمي بأول شخص يقابلها، فتقع مغشيًا عليها.

رَحَلنا عن أوجستا، ولكننا لم نستطع مرة أخرى قطع مسافة كبيرة بسبب الرياح التي أجبرنا سكونها على ملازمة سفح «بركان أتنا»، والذي ظل ينبعث من قمة فوهته دخانٌ كبيرتي، وقد رأينا في تلك الليلة شراراتٍ تتطاير منه وتسقط على الحقول والبنائيات، بدأت الرياح تشتد مما أتاح لنا متابعة السير حتى وصلنا إلى «ميسينا» التي تقع تحت سفح الجبال، كانت ميسينا تبدو مبهرة تحت ضوء القمر، وهي ليست في الواقع سوى براكين تطل على البحر، بلغنا ميسينا عند الظهر، ويبدو أن مدة مرورنا بها كانت عيدًا، حيث إننا سمعنا بها أصوات النواقيس مدة إقامتنا، كان ضربهم النواقيس مطربًا جدًّا. أرسل لنا حاكم ميسينا بعد وصولنا بقليل فرقةً موسيقية ليمتعونا بشيء من الموسيقى، وتَفَحَنَاهم بعضًا من النقود، وجاءوا لنا في اليوم الثاني «الصقليون أشد إلحاحًا حتى من الإيطاليين في طلب المال».

ظللنا في ميسينا عدة أيام، عرفنا خلالها عن اتفاقية السلام بين إنجلترا وفرنسا، ثم فردنا قلوبنا ورَحَلنا كنا نأمل أن نتوجه إلى ميناء «طولون»، ولكن أوامر أمرت باتجاهنا إلى «مرسيليا». عندما بلغنا الميناء واتتنا ريح معاكسة، وجو فضيع، وكان فرنسا ترفض استقبالنا.

كان وصولنا لميناء مرسيليا بعد رحلةٍ شاقة، لم أكن أعرف وقتها كيف تستقبل البلاد جيوشها المهزومة، كل شيء جديد عليّ، رسونا على ميناء مرسيليا في السابع عشر من سبتمبر، فنزلنا من سفينة السفر في زوارق صغيرة، وصلنا إلى بيت خارج الميناء يطلقون عليه الكرنتينة، لأنهم لا يُمكنون من يجيء من البلاد الشرقية إلى بلادهم من أن يدخلها إلا بعد الكرنتنة، وهي مكث أيام معلومة لإذهاب رائحة الوباء، ولكنهم يحضرون لنا كل ما نحتاج، ويأخذون الثمن، فيضعونه في إناء فيه خل. كانت هناك معسكرات للمحجوزين بسبب الأمراض وأخرى للمصابين، معسكرات للاجئين الذين قفروا في السفن بحثًا عن أطواق للنجاة في ركاب المهزومين.

اكتظ ميناء مرسيليا، لم أكن أتخيل هذا العدد ممن سافروا على مراكبٍ أخرى وتجمّعوا في الميناء، أهالي فلاحين، نجارين وحدّادين وصنّاع، نساء ورجال، شباب صغير في السن، وأيضًا جوارٍ وعبيد هربوا من أسيادهم. في الزحام رأيت زهرة.. زهرة لم تحترق في بولاق كما تخيلنا، عرفتها على الرغم من ملابسها الفرنسية الكاشفة، لم تواتني الفرصة للحديث معها، فعندما هممت للتحدث معها جاء ضابط فرنسي أخذها من يديها، هربت بعينها مني وأدرات وجهها عني، اعتبرت هذا إشارة خفية بعدم الاقتراب منها خرجت زهرة مع الفرنسي وغادر الميناء.

لم تفارقني «جين فلوري» طوال الرحلة، منذ لحظة سقوطها على المركب مغشيًا عليها، ولم أفهم أبدًا من منا يحتمي بالآخر؟ فرنسيتي الضعيفة، وعريبتها الأفضل كانتا بداية الحكاية. - أعتقد يا فضل أن تلك الحملة العظيمة، وهذه الجيوش الرهيبة والتي باءت بالفشل سُتت فقط من أجلي. لقد اعتقدت بونابرت أنه حرك جيوشه ليحكم مصر، وفي الواقع أنه جاء ليحررني أنا من عبودية البكوات.

قالت «جين» واستطردت:

- لم أمتنع يومًا عن الدعاء أن أعود إلى فرنسا ولم أحلم يومًا بأن هذا ممكن أن يتحقق، لقد اختطفني القراصنة البربر عندما غزوا المركب بسنابكهم وفتكوا بها، منذ حوالي عشرين عامًا، تنقلت من سوق صقلية عندما

اشتراني تاجر هناك لأباع في القاهرة في وكالة كشك لأحد البكوات، ومع الوقت أصبحت وصيفة لنسائه، لا أتذكر شيئاً عن حياتي الأولى إلا لعبي على الجسر، لا أتذكر من طفولتي سوى أغنية عالقَةٍ في ذاكرتي، «سير لو بون دا أفينيون» من المؤكد أنني من مدينة «أفينيون»، وربما من إحدى القرى حولها، أتذكر شكل النهر أمام بيتنا، وشكل الجسر جيداً، لا أتذكر اسم النهر ولا الجسر، سأسافر إلى أفينيون وأبحث عن الجسر، من المؤكد أنه موجود، عشرون عاماً في عمر البشر هي حياتهم التي سُلِبَت منهم، أمّا في حياة النهر، في حياة الجسر فلا شيء.

قاموا بحصر أعدادنا وكتابة بيانات تخص كلاً منا، الاسم، السن المهنة سبب المجيء. تم توزيعنا على خيام، وضعي أحسن كثيراً ممن رأيتهم، فأنا ضابط في الفيلق القبطي، لم أمضِ بعد الخروج من الحجر الصحي سوى ليلتين في خيام الميناء، ثم انتقلت إلى سكن الجيش.

* * *

(٢)

ذهب فضل ومن معه من العسكريين إلى معسكرهم، وبقيت الأغلبية في النزل، أما أنا فخرجتُ من ميناء مرسيليا بعد انتهاء فترة الحجر الصحي، كنت أعرف وجهتي، فنحن رجال الأكليروس لا نشعر بالغرابة، فلنا في كل بلد بيوت وأهل، كنت أعرف أين سأقيم. بدأت رحلتي في شوارع مرسيليا، كان بحثي عن الكنيسة الأقرب حتى استطعت الوصول لها، لم تكن تبعد كثيراً عن الميناء، كنت في ملابسني السوداء، وطاقيّة الكاهن القبطي، بما فيها من أشكال كانت مختلفة قليلاً عما عهدته الفرنسية، ولكن يبدو أن هذا الشعب غير فضولي، فلم يسألني أحد من أنت، على الرغم من علامات الدهشة على بعض الوجوه مما أرتديه، ولكن هذه الدهشة لم ترتقِ لمستوى التلصص لمعرفة من أنا، ماذا أرتدي.

كانت الكنيسة الأقرب هي كنيسة «أكول»، وعلى الرغم من جمال المبنى وروعته فاجأتني الصدمة الأولى، كانت الكنيسة مغلقة، فلا يبدو عليها أثر للحركة الدعوية، ولا الصلوات الكثيرة، ترددت للحظة أن أذهب وأعود للمبيت في النزل، أو أحاول البحث عن كنيسة أخرى، فمن المؤكد أن عندهم في كل شارع كنيسة، وليس كما عندنا، ولكن إعياء السفر والطريق جعلاني أفكر أنه

من الأفضل أن أحاول دخول هذه الكنيسة، فأبيت بها ليلتي حتى أرتاح وأتدبر أمري.

بعد كثير من المحاولات خرج إلى أحد خدام الكنيسة، نقلت إليه محاولاً استخدام القليل من الفرنسية التي أعرفها رغبتني في مقابلة الأسقف أو المطران، ولكن يبدو أن الخادم لم يفهم ما أقصد، كررت عليه مطران تذكرتها باليونانية، متروبوليت، ولكن أيضاً دون جدوى.

أوضحت له أنني كاهن من الكنيسة القبطية، وأريد مقابلة أي شخص موجود هنا، عرض عليّ الدخول وبعد قليل من الانتظار خرج لي كاهن فرنسي بالغ الكبر شديد الوهن، شرحت له أنني كاهن قبطي، وأتيت مع العائدين من حملة بونابرت، وأود توفير مكان للإقامة مؤقتاً، وشرحت له رغبتني في مقابلة المطران الذي عرفت فيما بعد أنه يسمّى عندهم كاردينال، رحب بي الكاهن الفرنسي والذي لم يستوعب جيداً، ربما لكبر سنّه، من أنا ولا من أين أتيت وربما حتى لم يتذكر بالتأكيد ما هي الكنيسة القبطية، كان يبدو أنه قادم من زمن آخر، غير مدرك لما يدور حوله، كان الكاهن نفسه يبدو مهجوراً لدرجة جعلت عندي إحساساً بأنني أود أن أمد يدي لأزيل من عليه التراب.

قضيت ليلتي الأولى في الكنيسة، كانت ليلة مؤرقة، لا أعرف هل هي الغربة ووحشة المكان الجديد، أم الأنبا يوساب الأبح مطران جرجا الذي حاصر ذهني. تصورت أنه يخاطبني بشدة تصل إلى التوبيخ قائلاً:

- مائة وخمسون عامًا نرفض الاستجابة لإرساليتهم، وندافع عن عقيدتنا بكل ما أوتينا من قوة، حتى أغلقوا المركز ورحل الرهبان، هل نسيت عرض لويس الرابع عشر بتعليم ثلاثة من أبناء الأقباط على حسابه في باريس؟ ولكن لم يقبل القبط لم يجد الفرنسيون من كل الشعب القبطي ثلاثة أفراد يقبلون على الرغم من الفقر والعوز، وأنت الآن تذهب لهم بقدميك، وتبيت عندهم؟

قمت من مكاني مفزوعاً، وفتحت حقيبتني، تأكدت أن كل شيء معي، كتاب الخولاجي اللوح المقدس المدشن بالميرون الكأس، الصينية، الماستير، لقد اتبعت يعقوب وتعاطفت مع الفرنسية، وجمت إلى بلادهم، ولكنني أبداً لن أخون ديوسقورس وأثناسيوس، فعندما عزم على الرحيل كنت ملتجئاً إلى وجه الله جدّاً، ولا أعلم إلى أين أذهب، ولا من سيعولني، وليس لي مرشد، ولكنني كنت أعلم أن الله صار لي راعياً، كان المسيح معي هو معيني، وقادني بنفسه إلى الطريق فأرشدني وطمأنني على خلاصي.

في صباح اليوم التالي، كان خروجي مبكرًا لاكتشاف هذه المدينة التي حللت بها أمس وسمعت عنها كثيرًا، كان الجو ممطرًا بكثافة أربكتني، فعلى الرغم من علمي باختلاف الجغرافيا والطقس، إلا أنني لم أستطع استيعاب الأمطار في منتصف شهر توت، بينما الشمس في السماء، لاحظت أن الجميع يحملون مظلاتٍ في أيديهم لتحميهم من المطر، فهمت وقتها أنني إذا نويت أن أعيش في تلك المدينة، فلا بدّ من شراء هذا الشيء الذي يستخدمونه، الطرق والشوارع أعرضُ بكثيرٍ من طرقنا، تكفي لمرور عربات كثيرة، الحارات مبلّطة بالحجر الأبيض وبيوتهم من الخارج بيضاء ذات أسقف مائلة، شبابيكم من الزجاج يعتنون بها بشدة، فلا أثر للتراب على المباني، هل هذا من شدة نظافتهم واعتنائهم؟ أم أن المطر الوفير والطبيعة كفيلاّن بهذا؟

التعود صعب، ولكنه ممكن ولكن أن يكون الشهر ثلاثة أسابيع، وأن يكون الأسبوع عشرة أيام، فهذا عجيب حَفَظنا بعض أسماء الشهور التي غيروها بعد إعلان الجمهورية منذ كنا في المحروسة، فأصبح طوبة نيفوز، وأصبح بؤونة مسيدور.

كل المسيحيون بدعوا تقويمهم بميلاد المسيح، فقط هم الفرنسيون اخترعوا لأنفسهم ميلادًا جديدًا، وبدعوا يحسبون الزمن بعده، فنحن الآن في السنة الثامنة بعد ميلاد نبيهم الجديد «الجمهورية».

ضحكت ضحكة مكتومة: «كم أنا عتيق، فقد ولدت قبل الميلاد بخمسة وثلاثين عامًا».

لفتت نظري هذه التماثيل الموجودة بكثرة في الميادين والشوارع، لامرأةٍ أحيانًا تمثل جالسة، وأحيانًا تمثل واقفة ممسكة بيدها الشارة المكونة من الألوان الثلاثة، الأزرق والأبيض والأحمر.

في البداية تصورت أنها تماثيل للعدرا، أو على الأصح هكذا توقعت أن تكون تماثيل العدرا والمسيح في كل مكان، هذا ما تصورته أن يكون في بلد مسيحية، فماذا سيكون بالشوارع سيوى العدرا والمسيح والصلبان؟ وبماذا ستزين الجدران سيوى بالأيقونات؟ ولكنها لم تكن تماثيل العدرا، كانت تماثيل لامرأةٍ أخرى، عرّفت بعدها من تكون.

قررت الجلوس على أحد المقاهي لأخذ قليل من الراحة، وأيضًا فرصة لمزيد من الاكتشافات التي كان معظمها لا يطابق ما تخيلته عن هذا العالم، ربما كان هذا هو السبب الذي جعلني أعود مسرعًا إلى الكنيسة وأقرر تدوين

ملاحظتي أو تساؤلاتي ودهشتي.

لا أعرف لماذا قررت أن أدون ملاحظاتي باللغة القبطية وليس بالعربية، ربما شعور الغريب الذي يخشى أن تُقرأ أوراقه. نعم أنا في فرنسا، ولكن العربية معروفة، ومن السهل أن يوجد مَنْ يترجمها، أمّا القبطية فقد اندثرت منذ سنوات، حتى القبط أنفسهم يتكلمون العربية، فقط في داخل الكنيسة يحفظون الألحان بالقبطية منذ الطفولة، ولكنهم يرددونها دون أن يعرفوا اللغة، أنا أيضًا كنت مثل الجميع، ولكن المخطوطات التي تملأ الأديرة، والمكتوبة بالقبطية، وشغفي لقراءتها، كانت دافعًا قويًا لأن أعلم نفسي اللغة القبطية، استطعت بعد أن عكفت سنواتٍ على دراسة المقدمات والسلالم في مخطوطات يوحنا السمنودي، والوجيه القليوبي، أن أتمكن من القبطية أشكر الله دائمًا أنها ظلت باقية، ولم يحدث لها ما حدث للكثير من المخطوطات التي جهل الرهبان أنفسهم قيمتها فحرقوها للتدفئة أو حتى ألقوا بها خارج الكنائس، بدأت في تدوينتي الأولى والتي كان عنوانها، «لم تكن مريم.. بل ماريان».

مرت أسابيع كنا مشغولين فيها باكتشاف وترتيب حياتنا الجديدة كان علينا الاستعداد ليوم الغد، والذي سنقوم فيه بدفن الجنرال يعقوب، وقد تم التواصل مع إدارة الجيش المسؤولة عن الفيلق القبطي التي رتبت مكانًا لدفنه، بعد أن بقي جثمانه في الحجر الصحي حوالي خمسة وعشرين يومًا، خرجنا جميعًا لتشيع جثمان الجنرال في احتفال فخم من الحجر الصحي إلى كنيسة القديس مارتان، أدت فيه عساكر الفيلق القبطي التحية العسكرية للجنرال يعقوب يوحنا، وكذلك عساكر جيش الحملة الفرنسية فقد تصادف خروج جيوش الجنرال روبين من المحجر الصحي مع الاحتفال بتشيع جنازة المعلم يعقوب حتى دُفن في مقبرة معدّة له ملحقة بالكنيسة، وتُثر فوقه التراب.

تقابلنا جميعًا تقريبًا، كل مَنْ سافر مع المعلم يعقوب، بهدوء جدًّا وبسرعة غادرنا الجنرال الفرنسي الموفد من الإدارة بعد ان انتهينا من مراسم الدفن. هناك كانت مئات الأسئلة تدور في أذهاننا، قررنا الجلوس على أحد المقاهي لتناول القهوة والتي يشربونها في كئوس خزفية بحجم لا يقل كثيرًا عن حجم الصحون، جلسنا أنا ومنصور حنين، وغبريال شفيق ابن أخ المعلم يعقوب، وفضل الله الزيات، وإلياس بقطر، ومجموعة أخرى ممن سافروا

معنا.

تحدث وبصا بركات بحماسة شديدة وخيبة أمل مجتمعتين:
- كان معنا كبيرنا الذي سيرتب لنا أمور حياتنا ومعيشتنا، المعلم يعقوب الذي كان له من النفوذ والعلاقات ما سيوفر به لنا حياة، وأن كثيرين ممن أتوا بأسرهم وأطفالهم، والذين كان المعلم يكفلهم ويمدهم بالمال، ماذا سيفعل المئات الآن؟ ألم تلاحظوا كيف غادرنا مندوب الإدارة سريعًا قائلًا: وسنتصل بكم إذا جَدَّ شيء؟ أعتقد أنه لا جدوى من بقائنا، ماذا سنفعل؟ ومن أين سنعيش بأسرنا وأطفالنا؟ لقد أخرجونا من الحجر الصحي بعد أن أخذوا بياناتنا ونقلونا إلى نُزلٍ جماعية، منذ أيام لا نعرف أي شيء، ولا لأي مدةٍ سنظل هناك.

وجَّه وبصا حديثه إلى غبريال شفيق ومنصور حنين:
- إنكما على علاقة طيبة بالإدارة، وربما استطعتما أن تفعلًا شيئًا من أجل المئات في النُّزل أو على الأقل أن تعرفا ماذا هُم فاعلُون معنا، وإذا وجدنا أن الأمور صعبة ربما استطعتما أن تجدا طريقة لإعادتنا وأسرنا إلى مصر، وربما تجدان طريقة تتكفل بالآ يتعرض لنا العثمانيون في حال عودتنا.
كان عبد العال واجمًا..

- نعم يا وبصا بالنسبة لكم النصارى قد تكون عودتكم ممكنة، فسيتدخل كبيركم جرجس الجوهري وتدافع عنكم الكنيسة، ولن يستفيد العثمانيون شيئًا بقتلهم مئات من النصارى وأسرهم، أمَّا نحن المسلمون وخاصةً أن عددنا قليل، لن يغفروا لنا أننا ساعدنا فرنساوية، فحتمًا سيقطعون رءوسنا ويدورون بها في المحروسة، ليجعلونا عبرةً لكل من تسوَّل له نفسه من الأهالي المسلمين بالتمرد على حُكمهم، ألا تتذكر ماذا فعلوا بأخي، وكيف شنقوه في الحصار؟

ثم نظر إلي المعلم مصطفى ليؤكد على كلامه.

- يا عبد العال القصة ليست فرنساوية ولا من ساعدهم سواء نصراني أو مسلم، العثمانيون سيقطعون رقبة أي شخص ضدهم أو ممكن يهدد سلطانهم في المحروسة ثم إنني لا أفهمك لماذا تفكر في العودة «رب هنا رب هناك» سنعمل ونتاجر ونتوكل على الله ونكمل حياتنا.

تحدث منصور حنين موجَّهًا حديثه إلى عبد العال قائلًا:

- الأمر ليس بالسهولة كما تظن، إن الكنيسة والقبط في مجملهم غير

راضين عنا ولا عن يعقوب كما تعلم، وربما يحدث عكس ما تتصور. تدخلت بسرعةٍ وبحسمٍ مقاطعًا منصور قائلًا:

- إذا ما قرر الناس العودة فحتمًا سنجد طريقة لتأمينهم، فليس من المعقول أن تتخلى الكنيسة عن شعبها وتتركه يُقتل بأيدي العثمانية، حتى لو كانوا غير راضين عن يعقوب فيعقوب قد مات.

استقر الأمر فيما بيننا أن نقوم بمخاطبة القنصل العام ووزارة الخارجية الفرنسية، بشأن مَنْ سافروا، قمنا بتصنيف المهاجرين إلى ثلاث فئات، الفئة الأولى وهي فئة العسكريين، وكان عددها يتراوح ما بين مائتين وثلاثمائة عسكري مقسّمين إلى أربع فرق: المماليك، الشوام، الأروام، والأقباط، وكان معهم خيولهم العربية وأسلحتهم، تلك الفئة كانت الأفضل حالًا، لأن الجيش يتولاها. أمّا الفئة الثانية فهي هؤلاء الذين يملكون علمًا ما أو حرفة، ويريدون حق الإقامة، أمّا الفئة الثالثة فكانت من المعدّمين العجائز والنساء والأطفال الذين يحتاجون إلى سكن معونة مادية أو إعاشة.

قررت بعد أن أنهينا لقاءنا أن أمر على النزل التي يقيم بها المهاجرون، ربما احتاج بعضهم شيئًا.

(٣)

الثكنات هي الثكنات.. في مرسيلىا كانت أم في المحروسة. أسابيع قليلة مرت لا أشعر بأي بهجة ولا شيء يزيد هنا سوى البرودة.. برودة الطقس وبرودة الروح، فلا بيت سأعود له في الإجازات، ولا محبوبة تنتظرني حتى بوجهها العابس الصارم، تذكرت محبوبة، تذكرت تلك اللحظة الرهيبة ليلة زواجي، عندما جلسنا على الكرسيين المُعدّين لنا بجوار الطاولة، جلست أنا وقتها على الكرسي الأيسر، بينما جلست محبوبة على الكرسي الأيمن، وعندما بدأ الكاهن القداس بترتيل جملته التي كررها ثلاث مرات، «اجتمعنا لمباركة اتحاد الابن المبارك فضل الله بن نخلة بن الزيات، والابنة المباركة البكر محبوبة بنت جرجس بن غزال».

تذكرت هذا الإحساس الغريب الذي أخرجني من حالة الاحتفال والبهجة، وأصابني برهبة عجيبة امتلكتني، وأخذت أتأمل محبوبة، هذه الفاتنة، من وراء خمارها، بينما كان الكاهن مستمرًا في طقوس التكليل وصلوات الشكر وإطلاق البخور ووضع التيجان المذهبة على جبهتنا، تقريبه لرأسينا وتغطيتهما

معًا بوشاح مطرز واحد ربطنا بشريط رمزًا لتلك العلاقة الأبدية، وقتها شعرت بأنني مقدم على عالم جديد يسلمني فيه الكاهن بوصية إنسان، امرأة لا أعرفها، لأكون مسئولاً عنها، قلت لنفسي كم هي مرعبة تلك المسئولية. ولم تفلح وقتها كل الزغاريد التي أطلقتها النساء في إعادتي لحالة الفرح. قادتني قدماي إلى شاطئ البحر لم أشعر برغبة في العودة إلى المعسكر، البحر يزعجني فلم أعتد هذا المالح هذا اللانهائي الذي تعجز عيني أن تدرك شاطئه الآخر حيث عمري الأول، القلب يتجاوز مسافات حريته ليدور نصف دورة، والذاكرة تعود إلى البدء، إلى الصّفر هناك في حوار الرملة أصرخ صرخة من الألم، يترك رمضان يدي بصعوبة بعد أن يقول لي بقرف كفاك دهاء، ما تفعله معي ليس سوى شغل قبط.

عدتُ لأمي أسألها:

- ماذا كان يعني رمضان عندما قال لي هذا شغل قبط؟

أجابتنني:

- يقصد أنك ماهر وذكي، فنحن القبط نفعل كل شيء بدقة وجرفه متقنة،

حتى أن كسوة الكعبة تُصنع من قماشنا «القباطي».

لم أكن مقتنعا بكلامها أجبتها:

- ولكنه قالها لي بقرفٍ وكأنها سبة.

قفزة واحدة على ظهر أحد السفن متعلقًا بجلباب يعقوب هاربًا من سخرية رمضان قادتني دون أن أدري إلى هذا البحر الذي حملتني أمواجه إلى الشمال، لا أشعر بأي بهجة، الطعام مختلف والهواء مختلف والمعركة ليست معركة ومات المعلم.. مات في عرض البحر حيث لا شاطئ لم يلقوا بجثته في البحر حفظوا جثته.. وماذا أفعل بالجثة؟ ستة أيام فقط بعد الرحيل، ستة أيام فقط بعد القرار كبرت عند موته لم أبك ولم أعترف أن موته هزني ولم أكن أدرك أنني أحبه لهذه الدرجة ولكن الآن في مرسيليا، لم يعد هناك فيلق قبطي، ولم يعد هناك يعقوب.

أخذت عيناي تراقب السفن بدا لي أن كلها، قادمة، وأن البحر عاجز لا يملك القدرة على أن يدير أمواجه لتقذف بسفينتي في اتجاه العودة.

ربما كانت علاقتي مع فابيان الذي ما أزال تحت قيادته الشيء الوحيد الباقي من عالمي في المحروسة، ولكنها أصبحت مختلفة، ونحن في معسكرنا في مرسيليا تلاشت بنسبة كبيرة تلك المسافة التي خلقتها ظروف

التعارف في مصر، فقد أصبح يدعوني إلى غرفته في المعسكر، وفي هذا المساء دعاني لشرب كأس من النبيذ معه.
- هذا النبيذ هو أفضل نبيذ على الإطلاق.

شرد قليلاً ثم قال:

- ربما لا يكون أفضل نبيذ، ولكنني أعشقه لأنه يُصنع في ليون، لا بد أن تأتي معي يومًا إلى هناك لترى كروم العنب، ابتسم فايان ابتسامة بعيدة.

- وترى جميلات ليون وهن يرقصن على أكوامه في موسم عصر العنب حتى يعصرن بأقدامهن حبّاته، أحيانًا أتخيل أن في تلك الكأس نبيذًا لامسته قدم تلك الفتاة التي شغلت فؤادي يومًا ما. هل أحببت فرنسا؟

كان سؤالًا تقليديًا، ولكنني لم أكن جاهزًا للإجابة أو حتى فكرت فيها، ربما لأنني ما زلت هناك في عالمي الذي تركه جسدي ولم تتركه روحي.

تداركت صمتي ونظرْتُ إلى فايان، وأجبته:

- بالطبع نعم.

- وهل تعرف حقًا ما هي فرنسا حتى تحبها؟

تلعثمتُ قليلاً، وأدركتني الإجابة:

- المساواة.. الثورة.. الجمهورية.. العدل.. الإخاء..

كان فايان مستغرقًا في النظر إلى كأسه أجنبي بصوت لا يشبه حيوبته.

- الحُلم.. لقد أحببت الحُلم.

الحُلم الذي أحبه الكثيرون منا كل بطريقته، وحاول الدفاع عنه كلُّ

بطريقته، الحلم الذي جعلني أعمل تحت قيادة الرجل الذي قتلَ الفرنسيين

بالقنابل، هل تعلم أن بونابرت وضع مدافعه في كنيسة سان روش، وعندما

اقترب المتظاهرون أعطى الأوامر بإطلاق النار عليهم، قال عبارته الشهيرة،

أطلقوا النار، وفي خلال دقائق تحولت الساحة إلى بركة من الدماء، كان

عددهم حوالي عشرين ألفًا، كانت مجزرة بمعنى الكلمة، أما هو فقد تمت

ترقيته لجنرال، هل تعلم أنها المرة الأولى في تاريخ فرنسا أن تطلب

الحكومة تدخل الجيش لقمع المتظاهرين؟ كان ذلك باسم الحفاظ على

الثورة.. تنهد فايان وقال آسِفًا:

- هناك مَنْ يموت من أجل الثورة، وهناك مَنْ يموت قلبه فيقتل ويعتقل من

أجل الحفاظ على الثورة، هناك مَنْ يطالب بالعدل، وهناك مَنْ يستخدم القوة

لتحقيقه، لا أحد يتنازل عن سلطته طواعيةً لآخر، ولا أحد يتنازل عن رغبة

خبزه ليبقى هو جائعًا، لن يعطي السيد عبده الحرية طواعية. اتضح أن الأمور ليست بهذه المثالية يا فضل، أنا أيضًا كنت مثلك مثاليًا وحالمًا، ولكن التجربة علّمتني أن لكل شيء في الحياة، حتى أكثرها نبلاً، وجهًا آخر شرسًا مدمرًا، أعرف أنك جئت هنا بأحلام، لقد تركت بلدك وقررت أن تظل في الجيش الفرنسي، وقد كان بإمكانك أن تبقى هناك بعد أن وقّرت المعاهدة الحماية لمن يريد البقاء، وبغض النظر عن أسبابك، لكني أوّمن بحرية الاختيار، أنا مثلاً في فترةٍ من حياتي اخترت..

صمت قليلاً، تراجع أن يحكي، لكنه استكمل قائلاً:

- ربما الآن لسْتُ واثقًا تمامًا من صحة هذا القرار، وهل أنا سعيد حقًا بما فعلته؟ لكني مؤمن أننا لا بد من أن نملك حرية، حتى حرية أن نخطئ، ولكن الأهم الآن أن تدرك أنك أصبحت محاربًا وأن وضعك الآن اختلف عما كنت عليه في مصر، هناك كنت أشبه بما نسميه نحن المتخصصين بالمقاومة الشعبية، تتمرن على حمل السلاح كي تدافع عن أهلك أو تقاوم سلطة اضطهدتك أو حتى تدعم سلطة جديدة ترى فيها فائدة لوطنك. الآن ليس لك ولاء إلا للحرب، لمهنتك التي اخترتها، الآن عليك أن تعلم أن وطنك أصبح ساحة المعركة.

بدأ فابيان في شرح أشياء لي، كأنه أستاذي وكأنني تلميذه الذي يساعده بكل ما لديه من معرفة ولكنني كنت مشغولًا باقتراب موعدي مع جين الذي حددناه يوم خروجنا من الميناء، فقد اتفقنا على اللقاء بعد شهر من خروجنا من الحجر الصحي، في مقهى بالقرب من ميناء مرسيليا، ليخبر كل منا الآخر بالذي حدث معه. لم أستطع التركيز فيما يقول فابيان فقد كنت قلقًا أن أتأخر ففتوه مني جين ولا أستطيع الوصول لها مرة أخرى، وجددني أقاطعه، اعذرني إذا اضطرت الآن للاستئذان فإنني مرتبط بموعد.

ابتسم فابيان قائلاً:

- يبدو أنك في خلال أيام قليلة استطعت أن تكون صداقات، استمتع بوقتك وبحياتك الجديدة، ولكن أريد أن تأتي لي غدًا أو بعد غد في المساء لأمر هام. أسرع لمقابلة «جين فلوري» البائسة... كان الوقت متأخرًا، ولم يكن رواد المقهى يشبهون هؤلاء الذين قابلناهم يوم أن دفننا الجنرال يعقوب، حتى المقهى نفسه كان مختلفًا، ورواده لا يشبهون الفرنسيين الذين عرفتهم في الحملة، كانت هناك حالة من الصخب في كل شيء، حتى الروائح كانت

صاحبة مركزة ومضغوطة، كانت مزيجًا من رائحة المشروبات ورائحة التبغ الفرنسي القديم، والرائحة المنبعثة من شرائح اللحم المقدد والقهوة السوداء الباريسية ورائحة المرأة والنيبيذ.

قاربت الساعة على الساعة مساءً، كنت أنظر إلى الطريق من كل الاتجاهات، ولكن لا يوجد أي أثر لجين، تشككت قليلاً أنها ربما لن تأتي، وأنها خرجت باحثة عن أهلها الذين ربما ماتوا أو حُطفوا مثلها، أو ربما سمعت عن أثر لهم في مكان بعيد تعقبته، ولن تستطيع أن تأتي إلى الموعد، قررت أن أشرب قليلاً من القهوة، وأغادر إلى المعسكر إذا لم تأت خلال خمس عشرة دقيقة.

توقفتُ عربة يجرها جواد إنجليزي ويقودها حوذي متأنق في سترة زرقاء ذات صفوف من الأزرار الذهبية، بينما على حاجر العربة كان هناك آثار شارة ممحوة، نزلت من العربة سيدة شديدة الجمال والأناقة، ترتدي من الملابس ما يشبه ملابس النبلاء في القصور والتي قلّما تراها في الشارع العادي، كانت تتوجه إليّ مشيرةً إلى سائق مركبتها أن ينتظر قليلاً حتى تتأكد.

- هل أنت مسيو فضل القبطي؟

كانت فاتنة رائعة أخاذة ساحرة لم أستطع من جمالها حتى أن أجيب.. انتبهتُ أنها توجّه الحديث لي.. فأجبتها:

- نعم.

- أنا أخت مدام جين.. «إن صحتها ليست على ما يرام بعد تلك الرحلة الطويلة»، ابتسمت ابتسامة حزينة، واستكملت قائلة «الرحلة التي استمرت أكثر من عشرين عامًا، وقد جئت بدلاً منها لأطمئنك».

- أخت جين؟ هل وجدت أهلها بهذه السرعة؟ كيف؟ أنا سعيد جدًا من أجلها.

- إذا كان مناسبًا لك فنحن ندعوك لتناول الغداء معنا في منزلنا الصغير، في عطلة نهاية الأسبوع، وأعتقد أنه سيكون هناك متسع من الوقت لتحكي لك بنفسها كل شيء.

- يسعدني هذا بكل سرور، أود أن أطمئن على جين وأراها، وشكرًا لدعوتكم، ولكنني لا أعرف ظروفه، فمثلنا لا يملك مواعيد.

عندما وصلت جين إلى بيتها الذي وجدته مهجورًا، تذكرته جيدًا، هو بيتها المبنى بالمتاح من أنصاف سيقان الشجر، وحجرٍ مَقَّطع بشكل عشوائي، وطوب لبن، ها هي الزريبة الملحقة بالبيت، والحمام الخارجي، حتى السلم المتكئ على أحد الحوائط موجود، ولكن لا توجد أكوام القش أمام البيت، كما لا توجد ماشية في الزريبة، دخلت البيت الخاوي، كل شيء مثلما كان، لم يتغير شيء، الحوض في واجهة الباب، ومدفأة في أحد جوانب البيت فوقها مصطبة من الحجر مفروشة بالقش لتنام عليها هي وأختها في ليالي الشتاء القارصة البرودة، لم تكن تتخيل أنه بعد تلك الغربة الطويلة، الغربة التي اقتلعتها من جذورها، وبعد هذه المغامرة الكبيرة التي كادت أن تعرّضها لقطع رقبتها إذا اكتشفها أحد وهي تهرب من بيت سيدها إبراهيم بيك الألفي لتصل إلى الإسكندرية، لتقفز على السفينة العائدة بجنود بونابرت، لتسير من مرسليليا بجوار النهر، لتصل إلى اسم القرية، ستعود لتجد كل هذا الخواء.

ولكن القرى الصغيرة وأصحابها لا ينسون أهلها، فالقرى غير المدن التي تنوء فيها الأشياء والمعالم والبشر، إن المدن ذاكراتها مثل الماء، أمّا القرى فذاكرتها مثل الأرض لا يضيع بها شيء، وكل ما زرع فيها له جذر هناك في العمق.

الجيران هنا يتذكرون كل شيء، يتذكرون جين وأُمّها وأباها وأسرتها، يدعونها إلى بيوتهم، يشعلون المدفأة، يضعون القش المشيع بروث البقر من الزريبة لتضعه في المدفأة كوقود، تمامًا كما كانت تفعل جدّتها، اجتمع عجائز القرية وأطفالها يلتفون حول جين ويحتفلون بعودتها، ينقذ أحدهم جوعًا من طول الطريق باجيت محشو بالشيكولاته المرة خارج لتوّه من الفرن، لا ترغب جين في استعادة ما اعتبرته ذكريات مؤلمة، ولا ترغب في قص ما كانوا يشغفون لسماعه من أساطير حول الشرق وسلطين العثمانيين وجواربهم، ولا عن حياة المماليك ومكائد حريمهم، إنهم لا يدركون أبدًا أنهم يطلبون منها أن تتحدث عن نفسها، فهي حقًا جارية من هؤلاء، لا يستطيع أحدهم أن يتخيل أن هذا مستحيل، أن تحكي عن نفسها وكأنها رحّالة مولع بشغف الاكتشاف الذي يضيء على حكايته متعة أسطورية.

عندما سألت جين عن أختها الصغيرة.

هل تذكرن أختي؟ هل تعلمن عنها شيئًا؟ ماذا حدث لها؟ هل لا تزال على

قيد الحياة؟ هل لا تزال بالقرية؟

أسرعت إحدى الجارات قائلة:

- نعم فرانسواز المسكينة تعيسة الحظ.

قاطعتها جين بصدمة:

- هل ماتت هي الأخرى؟

لم تكمل جين جملتها، حتى قاطعتها جارة أخرى موجهة حديثها للأولى قائلة:

- الكونتيسة فرانسواز لاموت بخير، ولا يوجد ما يدعوك أبدًا أن تعتبري أنها تعيسة، إن العثرة التي تعرضت لها أسرة الكونت لاموت بسبب الجمهورية قد استطاعت الكونتيسة فرانسواز تجاوزها، أمّا موت زوجها فهو شيء مؤسف، فقد أصبحت أرملة في سن مبكرة جدًّا، ولكنها تملك من الثراء والأرض والجمال ما يعوّضها عن هذا.

ردّت الجارة:

- عن أي ثروة تتحدثين؟ فرانسواز لم تلبث أن حالفها الحظ لتصيح الكونتيسة لاموت بزواجها من أحد نبلاء الرداء الكونت نيكولا، حتى ألغت الجمهورية امتيازات النبلاء وأخذت ما تملكه من أراضٍ، لذا أقول التعيسة، ألا توافقيني يا جين أن الكونتيسة فرانسواز حقا تعيسة الحظ؟

أنهت جين هذا الجدل الدائر بين السيدتين، وكأنه مباراة تريد كل منهما أن تنتصر لنفسها فيها بغضّ النظر عن ما هي الحقيقة، وماذا يعنيهما في الأمر إن كانت فرانسواز حالفها الحظ أم خانها قائلة:

- هل تعرفين أين هي الآن؟ وكيف يمكنني أن أصل إليها؟

من مميزات سكان القرى أيضًا أنهم مستعدون لفعل أي شيء من أجلك، فالحياة رتيبة مملة لا يقطع رتابتها سوى قليل من الحوادث النادرة كهذه، تجعلهم مستمتعين بإبداء المساعدة كمغامرة رائعة لا يجب أن تفوتهم.

صممت جين أن تبيت في منزلها، رفضت استضافة أي منهم لها، ساعدتها بعض الجارات بإحضار الوقود لإشعال مدفأة بيتها، وأحضرت لها بعض الجارات الأخريات أطباقًا من الفطائر والفاكهة حتى يستطيعن أن يرتبوا لها كيف تصل إلى الوحيدة الباقية على قيد الحياة من هذه الأسرة الصغيرة، أختها الصغيرة الكونتيسة فرانسواز لاموت.

ذهبت إلى فايان حسبما اتفقنا بدا لي منهكًا قلقًا لدرجة أنني لاحظت عند دخولي أنه كان يجلس أمام رقعة الشطرنج وكما هيبء لي أنه يلعب بمفرده، كان يحاول أن يبدو أكثر هدوءًا، ولكنه لم يستطع إخفاء القلق.
رحب بي قائلاً: «لقد أصدر القنصل الأول للجمهورية فرماتًا بتكوين سرية من مثني وأربعين شخصًا، تحت قيادة القائد راب، ومن الآن ستكون تحت قيادته».

كنت أعلم أن راب قائد مهم في الجيش الكبير وأعلى رتبة عسكرية من فايان، وأن انتقالي تحت قيادته مباشرة شيء أشبه بالترقية، ولكن ارتباطي بفايان مختلف، مات يعقوب، والآن أترك فايان.

ظهرت على وجهي ملامح الرهبة والإرتباك ولم أعرف بماذا أجيب، كنت أود أن أقول له: إنني لا أريد هذا، أود أن أظل معك، ولكن وبالرغم من هذه الجلسة الودية أعلم جيدًا أنه لا نقاش في القرارات العسكرية.

أدرك فايان ارتباكي، حاول تشجيعي قائلاً: «فضل، أنت محارب ماهر، وبإمكانك أن تكون قائدًا تترقى في الجيش، أرى فيك واحدة من أهم صفات القائد، والتي أدركتها منذ كنا معًا في مصر في الفيلق القبطي، ربما تتعجب مما سأقوله، ولكنك تملك سمو النفس، تلك النفس التي لا تصلح أن تكون تابعة، ولكنك لن تصل إلى هذا بسهولة، عليك فقط ألا تقبل أن تكون واحدًا من ملايين دورهم فقط أن يكونوا وقودًا للحرب؛ لذا يجب عليك أن تعرف أولًا ما هي الحرب».

قاطعته مندهشًا:

- وهل يوجد إنسان لا يعرف ما هي الحرب؟

ابتسم فايان بهدوء المعلم:

- هذا ما قصدته، أنت تعرف الحرب كما يعرفها العامة، قتل، موت، دمار، خراب، هزيمة، انتصار، خسائر، غنائم. الآن يجب أن تعرفها بشكل آخر، شكل يخلو من العواطف، شكل يليق برجلٍ من رجالها وصانعيها.. الحرب يا فضل من الناحية المجردة هي عملية بشرية، الإنسان فيها هو السبب والهدف، كما أنه هو الوسيلة والغاية، والنزاع ليس نزاعًا في المطلق بدون تحديد، ولكنه نزاع بين مجموعتين تحاول إرادة كل منهما القضاء على الأخرى، أمّا في الأصل فهي صراع الوجود بين المصالح الكبرى، ولكنه لا يسوى إلا بالدم، وهذا ما يميزها عن أي نزاعات أخرى. يقولون عنها فن، أما أنا فأفضل مقارنتها

بالتجارة التي هي أيضًا نزاع بين المصالح، ولكن بدون دم، وممكن أيضًا تشبيهها بالسياسة التي تعتبر بدورها - ولو بجزء منها على الأقل - نوعًا من التجارة على مستوى عالٍ.

هكذا تكلم فايان دفعة واحدة مستطرّدًا وموجّهًا كلامه لي: «هذه الحرب هي الحرب، وساحتها وطنك الوحيد، من الآن في عالم الحرب الذي يربح هو من يستخدم لصالحه أقصى ما يمكنه من إرادته وقواه وحظوظه، إلى أن يطرأ وضعٌ جديد يجعل من الغالب مغلوبًا ومن المغلوب غالبًا، ولكن إذا أردت أن تكون قائدًا فعليك أن تعرف أن الحرب جزءٌ من كلِّ، وأن الكل هو السياسة، وأن السياسة هي الرجم التي تنمو فيها الحرب، وتختفي فيها الملامح بصورة أولية، كما تختفي خصائص المخلوقات الحية في أجنتها». بدا لي فايان كمن ينوي الرحيل ويسلم أوراقه لمن يستأمنه لخليفته الذي يثق به؛ كي يكمل ما بدأه هو، وأن المسألة ليست فقط انتقالي من تحت قيادته.

قطع حديثه فجأة وأخذ ينظر بتأمل إلى رقعة الشطرنج التي أمامه. غيّر حديثه وسألني: «هل تجد لعب الشطرنج؟». - أحبته طبعًا بالنفي.

سرح مرة ثانية ثم قال لي: «هذه اللعبة يلعبها قائدان مستعد كل منهما أن يضحي بعساكره فقط؛ ليحمي الملك، أما أنا فألعبها على طريقة الجمهورية». واستطرّد قائلاً: «سأضحي بالملك حتى يعيش الجنود».

(٦)

بعد عدة آحادٍ لي في مرسيليا، روّعني ما رأيته، الكنائس شبيهة فارغة، عدد قليل جدًّا من العجائز، أمّا الشباب فلم يكن لهم وجود تقريبًا، لم أستطع أن أكتم دهشتي وربما انزعاجي، ترددت كثيرًا قبل أن أتحدث مع الكاهن، شيء ما يمنعني من الحديث معه بجرأة، «إنه كاثوليكي»، ولقد حسمت أمري قبل أن أصعد إلى الباخرة، ولكن هذا الخواء جعلني أغيّر ما كنت قد قررت، تشجعت وسألته:

- الكنائس شبيهة فارغة.

أجابني الكاهن الكاثوليكي:

- ألا تعلم أن هنا ثورة؟ هم يرفضون كل شيء، فمنذ أوائل القرن تفشّت

يدعة مَن يسمونهم بالعقول القوية، ويسخر الناس من التقوى، إن الشكوى العامة الآن من عدة رعاة أن عدد مَن يتناولون القربان قد تقلص؛ ففي «سان سوليس» نقص العدد حوالي ثلاثة آلاف، أمّا راعي «سان نيكولا دوشاردونيه» فقال إن ألقا وخمسائة من رعايا أبرشيته تخلّفوا عن قربان القيامة، مستكملاً أن العصر الذي نعيش فيه يحفل بأحرار الفكر والربوبيين، ويدهش الناس لكثرة عددهم، ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين في كل مكان، فقلما يجد المرء الآن شاباً لا يشتهي أن يكون ملجداً.

كانت مخطوطتي الثانية بعنوان «العقول القوية». تزداد التساؤلات، تيقنت أن هدفي الأول الآن هو إتقان الفرنسية، أستطيع أن أفهم أكثر وأجيب عن الأسئلة التي تزداد يوماً بعد يوم، عن تلك العناوين التي أدونها.

«لم تكن مريم بل ماريان - العقول القوية - أمّا عنواني الثالث فكان: الربوبيون».

في هذه اللحظة أدركت أن بقائي في فرنسا سيطول، ولكن لم أجد أتحمّل بقائي في الكنيسة، صوت الأنبا يوساب يطاردني، وحواري مع الكاهن مرقص الأسيوطي دائماً بمثابة وخز في صدري «إذا دعمت الفرنسية ستكون خائناً لديسقورس وأثناسيوس. كيف ستواجههما؟ وكيف ستواجه نفسك بعد خيانتك لهما؟».

بقيت في كنيسة «أكول» كضيف مدّة تزيد على الشهر، كنت أتجنب فيها الدخول في أي نقاشات لتورجيه ولاهوتيه، وبينما كانت الإدارة في فرنسا تسعى إلى ترتيب أوضاع المهاجرين، استطعت الوصول إلى أحد علماء الحملة، والذي كنت قدّمت له في مصر كثيرًا من المساعدات في ترجمة بعض البرديات المكتوبة بالقبطية، شرحت له أنني أريد مساعدته في توفير عمل يكفل لي حياة كريمة، ومكان للسكن، قررت أن أمارس مهنتي الأساسية: النجارة، وأنها ستكون مصدر رزقي في فرنسا، كما كانت في مصر، وعلى الرغم من تمكني من الصنعة لكني لم أستطع الحصول على رخصة أسطى، وكل ما استطاعت إدارة الحملة المسئولة عن المهاجرين من مصر أن تقدمه لي هو توفير عمل عند أحد الأسطوات، وإعطائي رخصة كومبانيناج، أي ما يعادل عندنا صبيًا مبتدئًا، كان عليّ أن أبدأ من الصفر، وأنتقل مع الأسطى في البداية كما هو متبع عندهم، من مدينة لمدينة، ومن

قرية لقرية، الإجراءات المعقدة في الحصول على تصريح أخذت كثيرًا من الجهد والوقت.

لم يكن الأمر سهلًا، انتقلت من مرسيليا إلى باريس، كان الأجر المتفق عليه زهيدًا جدًّا، فكان لا يتجاوز عشرين سو في اليوم، استلمت العمل في ورشة كريستيان بعد أن وقَّعت على إقرار لا يستطيع العامل وفقًا له أن يغيّر مكان عمله أو ينتقل من أسطى لأسطى آخر إلا بموافقة كتابية من صاحب العمل، بل لا يستطيع السفر بدون موافقته أيضًا، وذلك طبقًا لقوانين العمل عندهم، وعلى الرغم من أن ورشة النجارة كانت في سان أونوريه، لكن لم يكن أمامي بهذا الأجر الزهيد إلا أن أسكن في سان أنطوان، لم أكن أعرف وقتها أنني سوف أعيش في شارع معروف سكانه بأنهم أجلاف وصيّع، وأنهم دهماء الثورة الذين أطاروا برأس حارس الباستيل السويسري وعلقوه على رمح في ثانية، ولكنني كنت أشعر براحة شديدة، الآن عندي مكان أستطيع أن أقيم فيه القداس لشعب الكنيسة القبطية في فرنسا، شكرت الله كثيرًا على نعمة أن تكون راهبًا قبطيًا لا تحتاج من سُبل الراحة الكثير، ويكفيك من الطعام خبزة وقليل من الملح، ولا يزعجك أن تسكن في سان أنطوان، كانت سعادة مسيو كريستيان بي فائقة، كان يعاملني كأنه وجدّ كنزًا، فقدرتي على صناعة الأرابيسك جعلت مني مصدرًا مهمًّا لدخله، فمِنذ دخول المبعوث الدبلوماسي العثماني الأول إلى فرنسا، منذ مائة وخمسين عامًا تقريبًا، والذي قرر أن يجهز صالة استقبالٍ خيالية الفخامة والرفاهية، أصبح الفرنسيون مبهورين بكل مظاهر الحياة الشرقية والعثمانية التي تفوح بأجواء ألف ليلة وليلة، ومن ذلك الوقت ازداد هوس الفرنسيين بكل ما هو تركي، وأصبحت التركيات Turqueries هي التي ترسم خطوط الموضة في فرنسا من ملابس وأثاث وفنون وهندسة معمارية، وكان استخدام التركيات يعني أن هذا الشخص ينتمي إلى عِلية القوم، وعلى الرغم من انبهار مسيو كريستيان بإنتاجي وإطرائه الدائم لمهارتي، لكن هذا لم يكن يعني شيئًا عمليًّا على الأقل في بادئ الأمر، فكان يجب على أي حال أن أقضي فترة التمرين كاملة، كما أن هذا لم يكن يعني أي زيادة في دخلي، كان متحججًا بأن الذوق العام تغيّر بعد الثورة، كما أن النبلاء الذين كانوا يرغبون في اقتناء مثل هذا النوع من الأثاث قلّت أعدادهم جدا، إذ هاجروا بأعداد كبيرة أو قُتلوا، والقلّة التي تبقت أخذت منها أموالها، ولكن هذا لم يقلل من تمسّك كريستيان بي لإيمانه أن كل

شيء سيعود كما كان «سيعود النبلاء، او سيظهر نبلاء آخرون». في سان أنطوان بدأت الحياة بشكلها المستقر، وبدأت مرحلة أخرى، كانت عدة أشهر قضيتها في باريس وغيرها من المدن التي تحركت بها ككومبيناج كفيلةً بأن أرى الوجه الخفي لتلك البلاد، هذا الوجه الذي لا يمكن تخيله وأنت في القاهرة، تسمع عن عظمة الجمهورية، فقد امتلأت المدن بالمتسولين والمشردين، بكل ضروب النفوس العتيدة الكريهة القذرة المتوحشة الحثالة، أمّا في الطبقات العليا فكان انتشار القمار والفوضى الجنسية، هذا السلوك الذي كنت متصورًا أن سببه الإلحاد الذي تفتشى في هذه البلاد.

لم يكن التوفيق بين عملي في ورشة كريستيان وتنقلي الدائم بين المدن وتجميع شعب القبط بالطبع سهلاً، ولكنه لم يكن أيضًا شديد الصعوبة، فحينما كنت في كنيسة مارمينا في مصر القديمة قبل مجيئي إلى فرنسا، كنت أعجن وأطبخ وأخدم شماسًا، وأعمل قريبًا في الكنيسة، كان من يعمل خمسين قربانة يطلب المساعدة وأنا كنت أعمل ستمائة قربانة وحدي، أعجنها وأختمها وأخبزها وحدي، ويوم الأحد كان الرقم يزيد فكان يأتي البعض ليساعدوني وبعد الخبيز أخدم كشماس، وبعد الكنيسة أعمل في المصيفة لأقدم القهوة للضيوف، وبعد ذلك أطبخ، وعند الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر أذهب لأنام، ولمّا أستيقظ أتمم الصلوات كلها من أول باكر.

البحث عن المهاجرين أيضًا تطلب كثيرًا من الجهد، احتجت لمعرفة أين يسكنون، وإذا تحصل بعضهم على عمل كان من الممكن الوصول إليه عن طريق معرفة عنوان عمله، استطعت الوصول بسهولة إلى عناوين البعض، وخاصة هؤلاء الذين اعتمدوا بشكل أساسي على إدارة الحملة في ترتيب أوضاعهم وكان معظمهم ممن رحلوا مع المعلم يعقوب، قدس الله روحه، أمّا الآخرون الذين هاجروا مع الفرنسيين لصداقة أو عمل، أو زواج جمّعهم بهم، فكان من الصعب عليّ الوصول إليهم، كما كان من الصعب أيضًا الوصول إلى الذين ظلوا في الجيش الفرنسي، فهم في معسكراتهم وحروبهم التي لا تتوقف. حاولت أن أضع خطة للاتصال بمن عرفت عناوينهم، ولكنهم كانوا موزعين في بلاد مختلفة، هناك من استقر في مرسيليا، وآخرون كانوا في ليون، وغيرهم في باريس ومدن أخرى كثيرة، ومع هذا قررت أنني كل أسبوع في إجازاتي من عملي، سأحاول السفر إلى مدينة من المدن، وأتواصل مع القبط الموجودين بها، وسأترك لهم عنواني في سان أنطوان.

كان إيماني الذي ترسخ بداخلي أن اسمي هو تميمتي الكبرى، كيف لا وأنا أعلم ما قاله أحد الآباء الأوائل: «حيثما يكون رمز الفضل خاتم الصليب، لا يكون لشر الشيطان القدرة على الإيذاء». يتأكد إيماني بذلك يومًا بعد يوم. تحت قيادة القائد راب، كانت فرصة كبرى لي أن أثبت كفاءتي كَرَامٍ مميّزٍ لا يضاهيه أحد في قطف الرءوس حتى اشتهرت بلقبتي الذي أطلقه عليّ فابيان جالينجو، ولم تمضِ ثلاثة أشهرٍ من وصولي إلى فرنسا حتى أصدر القائد العام قرارًا بتكوين كتيبة تضم كل المهاجرين من مصر، روم، مماليك، شوام، أقباط، وقسمها إلى فصائل، كل فصيلة تضم ثمانين رجلاً، وقد تم تعييني قائدًا للكتيبة التي عُرفت باسم المشاة الخفيفة، الآن بدأت انتصاراتي، شعور لا يمكن وصفه عندما سمعت بقرار تعييني، «لست فقط أحارب مع المماليك أسوةً بهم، بل رأسهم». بدأت اندمج في الحياة وأعتاد على حياتي الجديدة. استلمت من مخازن الجيش قطعة فاخرة من قماش الجوخ تكفي لعمل ردينجوت وصدريّة وبنطلون، كنت متعجلاً جدًّا أن أنتهي من حياكتها قبل موعد لقائي الثاني بفرانسواز والذي تأخر كثيرًا. فرانسواز التي إذا مرّ طيفها على خاطري أجدني أشعر بسعادةٍ وفرحة لم أشعر بهما من قبل.

مرّت عليّ فرانسواز بعربتها في نفس المكان الذي تقابلنا به أول مرة حسبما أبلغني الحوذي، لتتحرك معًا لرؤية جين، وكنت قد اشترت باقة من الزهور، فقد علمت وقتها أنه من الأناقة أن أحمل باقة من الزهور عند الزيارة، كنت أشفق على جين، هذه البائسة التي تعود إلى وطنٍ لا تعلم عنه شيئًا، وجاءني شعور ونحن على المركب أن تلك السيدة ستكون مسئوليتي، وأني سأتولاها وكأنها أختي التي أتت معي من مصر، لم أتصور أن تعثر على أهلها بهذه السهولة وتجد لها أختًا بهذا الثراء الذي رأيت، كان شيئًا بعيدًا عن توقعاتي.

جلستُ بجانب فرانسواز في العربة التي كانت تشق شوارع مرسيليا بسرعة ومهارة، كانت هي في ملابس الأميرات ترتدي قبعاتها الزهرية اللون كالبنفسج، تظهر خصلاتٍ شعرها الذهبي اللولبية على جبينها، وتغطي جزءًا من رقبتها التي تحيط بها قلادة من اللؤلؤ، أخذتُ أختلس نظرات إلى هذا

الوجه المنمنم المرسوم بدقة، وعلى الرغم من صغر عينيها لكن لونهما الأشبه بلون الخضرة الطازجة يجعلك تشعر أنك في البراح.

كانت فرانسواز قليلة الكلام معي، وشكرتني بلطف شديد على العناية بجين على المركب، ولكنني لاحظت أن نظرها كان مركّزًا على يدي اليمنى، على ذلك الوشم الذي دقّه على معصمي بحرفة ومهارة، كاهنٌ قريتنا، لا أنسى ألمّ وخز الإبرة التي ترسم الصليب وأنا أصرخ، بينما أمي تُطلق زغرودتها العالية بعد أن انتهى الكاهن من الدقّ، لا أنسى منظر الملوخية الخضراء التي وضعتها أمي على يدي وربطتها بالقماش عدة أيام، حتى يأخذ الوشم ذلك اللون الأخضر المائل للزرقة.

ولكن يبدو أن الدهشة والفضول كانا أقوى من تحفظها، فسألتني:

- صليب وشم على يدك؟ ألّهذه الدرجة أنتم متدينون؟
- إن الأقباط يدقون الوشم لأبنائهم منذ زمن بعيد، لا أعلم متى بدأ بالتحديد، هناك مَنْ يقول إنه بدأ مع اضطهاد الرومان لكل مَنْ آمن بالمسيحية، وإن القبط كانوا يدقون الصليب كنوع من المقاومة وإعلان تمسُّكهم بمسيحتهم، وآخرون يقولون إن المسيحيين أجبروا على هذا حتى يتم التعرف عليهم والتفرقة بينهم وبين المسلمين، لأن في بلادنا قوانين تلزم المسيحي بأشياء كثيرة وضرائب معيّنة، ويطلقون علينا أهل الذمة، لا أعرف إذا كنا نعيش مثلكم في دولة مسيحية. هل كنا سندق الصليب أم لا؟

اعتذرت فرانسواز بلطف قائلة:

- معذرةً لسؤالي، لم أعرف كل هذه الظروف، ولكنني تصورت أنكم تفعلون هذا لإظهار إيمانكم، ولأنني أؤمن أن الإيمان الحقيقي في القلب، ولا يحتاج المرء لكل هذا الألم حتى يظهره، أصبت بالدهشة، ففي بلادنا لا يفعل أحد ذلك من أجل إظهار ديانتهم، أمّا مَنْ يحبون الوشم فيفعلون ذلك للزينة والتجميل، فيكون عادةً في مكان ظاهر في الجسد للتجميل والتباهي، وليس في باطن المعصم.

عاودت فرانسواز الصمت، ولكنه كان صمًّا دافئًا، عوضًا عن مئات الكلمات، وصلنا إلى بيتها، كان بيتًا أنيقًا في شارع تملؤه القصور الفخمة، قالت لي فرانسواز:

- احفظ هذا العنوان يا مسيو فضل، بيت رقم سبعة عشر، شارع «جران كور». لم أكن أحتاج إلى هذا لمعرفة العنوان، فقد حاولت ذاكرتي أن تسجل

الطريق الذي سلكناه، النافورة الكبيرة، نافورة ميدوزا، والتي تعمدت أن أعرف اسمها من فرانسواز عندما مررنا بها، التقاطع الذي عرجنا بعده يسارًا ثم يمينًا، ولكن هذه الجملة مختلفة، فهي إشارة صريحة منها أن هذه المرة لن تكون آخر اللقاءات.

استقبلتني جين بحرارةٍ مَنْ وجد أهله بعد غياب، كانت جين تجلس معنا مرتدية ملابسها الفرنسية، تائهة قليلًا، تحدثت معي مستخدمةً أحيانًا كلماتٍ من اللغة العربية، معذرةً لأختها قائلة:

- لقد اشتقت للحديث باللغة العربية.

وفي الحقيقة أنا أيضًا اشتقت لسماع لغتي، واشتقت أن أتكلم دون أن أفكر في البحث عن مفردات تعبر عما أريده ودون أن أستخدم يدي وعيني وتعبيرات وجهي لاستكمال ما ينقصني من أشياء لا أعرف معناها بالفرنسية، ولكن اللياقة كانت تحتم علينا التحدث بالفرنسية معظم الوقت. بدأت جين في الحديث بنهم:

- هل تعرف يا فضل كيف وحدث بيتي؟ لن تصدق، بمجرد وصولي إلى أفينيون، وبمجرد أن رأيت الجسر عملتُ ذاكرتي بأقصى كفاءتها، وجدتني أسلك طريق العودة إلى البيت، كان هناك شيء يوجهني، يحركني، حتى وجدتني أمام باب البيت، كل شيء كما هو، ولكن لونه أصبح باهتًا.. وجدتني أطرق الباب بسرعة وبنفس الدقات المنغمة، بلحن سير لوبون دا الأفينيون، أغنيتي المفضلة، كانت أُمي تقف خلف الباب حتى تستمع للأغنية كاملة، ثم فتحت الباب وأخذت تحتضني وتقبّلني كعادتها. صمتت جين فجأة:

- لا.. باردون هذا لم يحدث اختلطت الأمور عليّ.

توقفت جين عن الحديث تمامًا بعد هذه الجملة، ولم تعد قادرة على الاستكمال، تدخلت فرانسواز قائلة كمن تعالج موقفًا ما أو تصحح معلومة ما:

- لم يكن هناك أحد، اختفت أُمي منذ خطفت من على ظهر السفينة مع جين، ولم تعد، ولا أعلم عنها شيئًا، أما أبي فقد عاد، اختطف وبيعَ أيضًا عبدًا، هو وكثيرون من الذين سطا عليهم القراصنة الجزائريون، ولكنه عاد بعد أن وقّعت مبادلة بين فرنسا وسلطان الجزائر بعدما أسرت البحرية الفرنسية أميرًا له قرابة بحاكم الجزائر الداوي محمد بن عثمان، فاتفق على دفع فدية للأمير في مقابل تحرير الأسرى والمستعبدين من الفرنسيين المسيحيين في الجزائر، استطاع أبي أن يفتدي نفسه ويدفع لهم ثمن حريته وعاد إلى فرنسا،

ولكنه مرض ومات بعد عودته بشهور قليلة.
استغرقت جين في حالة الذهول والصمت التي كانت بها، وكانت تبدو تائهة
شاردة في كثير من الأحيان.
حاولت أن أكسر تلك الحالة قائلاً.. بضحك:
- أنتِ محظوظة يا جين، تأتي الحملة لتحكم مصر فتعيدك إلى فرنسا،
وتكتشفين أن كل شيء كما تركته، وكأن شيئاً لم يكن.
تردّ بحسرة:

- حقاً... محظوظة جدّاً، فقط أنا لم أعد جين فلوري ذات السبعة أعوام
بفستانها الأحمر المطرز بالتفتا البيضاء.

تدخلت فرانسواز قاطعةً هذا الحديث قائلة:
- إن جين أحوالها صعبة، وهي ترفض أن تعيش معي، وتصر على العودة
إلى أفينيون، البيت هناك ليس مؤهلاً للحياة بشكل جيد، أعتقد أنني أحتاج
لمساعدتك في إقناعها أن تظل معي حتى تتحسن أحوالها وتستطيع أن تفكر
في أيامها القادمة.

حضرت الخادمة، قطعت حديثنا بأن الطعام جاهز، ودعّتنا إلى الانتقال إلى
غرفة الطعام، كانت المرة الأولى لي التي أدعى فيها للطعام في بيت
فرنسي. ربما أكون قد تعودت قليلاً على الأكل على هذه الطبلية العالية، أمّا
الشوكة والسكين والملعقة، فأمرٌ عسير عليّ، في المعسكر بدأنا نتعرف
تدرجياً على نظام الطعام عندهم، وما هي الشوكة والسكين، ولكن لم
يستطع أي من جنود الفيلق القبطي أن يتعامل مع تلك الأدوات، وكنا نأكل
كعادتنا بأيدينا، ونشرب الحساء من الصحن مباشرة، على الرغم من جلوسنا
على كراسٍ حول هذه الطبلية العالية.

كم الحرج الذي انتابني، ماذا سأفعل أمام هذه الأنيقة؟ وكيف سأكل؟ إنها
المرة الأولى التي آكل فيها مع امرأة فرنسية، ربما أعتذر، ولكن هذا غير لائق
أيضاً.

كانت فرانسواز من الذكاء بحيث إنها شعرت بارتياكي قالت:
- تفضل يا كابيتان فضل، الطعام جاهز، أعلم أن كل شعب له عاداته في
الأكل، ونحن نقدّر الناس كما هم بعاداتهم وطباعهم.
كانت فرانسواز مزيجاً ساحراً بين الرقة والثراء والسحر والحسن، أخذت
تتحدث برقة شديدة وحنانٍ فياض عن فرحتها بعودة جين:

- لم يتجاوز وقتها عمري أشهرًا قليلة، خاف والداي عليّ من دوّار البحر،
ولذا قررا أن يتركاني في رعاية جدّتي حتى يعودا.. لم أتخيل أنهما لن يعودا
أبدًا، ولن تعود جين.

نظرت إلى جين بابتسامة حنونة:

- إنه من المدهش أن تجد لك أختًا أو أختًا، بعدما تصورت أنك وحيد جدًّا.
كانت الأسئلة تتدافع من ذهني يود لساني أن ينطق بها، كيف لامرأة في
جمالها وثرائها أن تكون وحيدة؟

استطردت فرانسواز قائلة:

لم أكن أتخيل أنه في كل هذه الفوضى التي نعيشها، منذ قامت حركة
اليعاقة التي أربكت كل حياتنا - أن يكون لبونابرت شيء إيجابي في حياتي.

نظرت إلّ جين مبتسمة وأضافت:

- أن تعود جين.

لم يمض سوى شهر في فرنسا، لا أعرف شيئًا عن هذا العالم، ولكن يبدو
أنني الآن في بيت شخص عنده موقف ما ضد بونابرت، وأنا ضابط في جيوشه
فقدت الشعور بالارتياح، ووددت أن أستأذن في الذهاب، ولكن جين فهمت ما
يدور بخاطري، فقالت:

- أختي فرانسواز، بعد غيابنا جميعًا، اهتمت جدّتي برعايتها، فقد كانت
تعتبرها عوضها الوحيد عن كل من فقدت، وعلى الرغم من ظروف الجدة
الصعبة لكنها ألحقتها بإحدى مدارس الدير، وتلقت تعليمًا جيدًا على أيدي آباء
الكنيسة، وفي إحدى الأعياد حضر الكونت نيكولا لاموت، كان أبوه من رجال
القضاء، وأحد أعضاء البرلمان، وعندما مات الأب ترك منصبه لابنّه بالوراثة،
غرّم بها غرامًا شديدًا وتزوجها لتصبح الكونتيسة دي لاموت بزواجها من أحد
نبلاء الروب، وبالطبع فإن ما حدث في فرنسا كان له أثر سلبي عليها، إذ
فقدت نفوذها وكثيرًا من ثروتها.

تدخلت فرانسواز قائلة:

- لا تقلق كايبتان فضل، أنا أعلم جيدًا أن موقفك حساس، أنا لست من
أعداء الثورة، ولا أحقد عليهم ككثير من النبلاء، فأنا في الأصل ابنة تاجرٍ،
تعيش في الريف، عشتُ كيتيمّة في دير، وإن وجودي داخل هذه الطبقة في
الحقيقة ليس أصيلًا، أنا كسندريلا، هل تعرفها؟ تلك الفتاة البائسة صاحبة
الحذاء التي أحبها الأمير وتزوجها وأنقذها من عذاب زوجة أبيها، لم أستم

كونتيسة كثيرًا.

قالت ضاحكة ضحكة صافية خالية من الحقد:

- لم أكن بعد قد أصبحت كونتيسة حقيقية، ولم أعود كثيرًا على حياة النبلاء، أنا لست منهم، لا أنتمي لهؤلاء الإقطاعيين الذين تملكوا الأرض وأخذوا ألقابهم منها، لم أكن أبدًا من هؤلاء الذين يملكون حق السير تحت المظلة في عيد القربان، وحق الجلوس في حضرة الملك، حتى زوجي الذي أعطاني النبالة، لم يكن من النبلاء ذوي الحسب الكريم، والذين كانوا ينظرون بكثير من الازدراء والاحتقار إلى زوجي وأمثاله من الذين حصلوا على النبالة حديثي العهد بها أو حصلوا عليها بأنفسهم.

كانت جين تسمع باهتمامٍ وشغفٍ ما تبوح به فرانسواز متعجبةً كيف تتكلم فرانسواز عن نفسها بهذه الصراحة أمام شخصٍ غريب عنها تمامًا، لا تعرف عنه شيئًا، بل كيف تتكلم بهذه الصراحة أمامها هي. أكملت فرانسواز حديثها:

- وربما كان نبلاء السيف محقين في معظم الأحيان، فقد أصبحت النبالة في الفترة الأخيرة تباع وتشتري، ويمكن للمرء شراء براءة النبالة بستة آلاف ليفر، أو بتعيينه وزيرًا أو قاضيًا مقابل مبلغٍ من المال لأن هذا المنصب تلقائيًا يعطيه حق النبالة.

كنت أسمع فرانسواز بكل اهتمام، وشعور ما بداخلي يتساءل هل قالت هذا عمدًا له لأن شيئًا ما تحرك بداخلها تجاهي أم أنها تملك هذا القدر من صفاء الروح والنفوس؟ أردت أن أشاركها الحديث بأي شيء.

- في بلادنا الذين يملكون نفوذًا غالبًا هم الشيوخ رجال الدين وعلماء الأزهر والقضاة، الكل يحترمهم ولهم كلمة مسموعة ونافذة وفي الحقيقه أنا لا أعرف هل الباب العالي يمنحهم ألقاب الباشا والبيك أم لا؟

ضحكت فرانسواز نفس الضحكة الصافية قائلة:

- هم لا يحتاجون الألقاب، سطوة الرداء في كل مكان تغني عن الألقاب، الرداء وحده يمثل نصف السلطة، نصف السيادة، الشيوخ مثل القساوسة، مثل أعضاء البرلمانات، بملابسهم القرمزية، وعباءاتهم الثقيلة، وشعرهم المستعار، وقبعاتهم ذات الريش، لا يهم من يرتديه، المهم الرداء.

لم يعد واضحًا أي شيء لجين أو لي، هل فرانسواز مع الجمهورية أم

ضدها؟

كان بوذي أن أسألها هذا السؤال، ولكن على الرغم من تلقائيتها وبساطتها الشديدة في الحوار، إلا أن هذا كله لم يكسر هذه الهالة التي حولها، فلم أتجرأ أن أسأل عن أي شيء، ظللت صامتًا عاجزًا أمام هذا الجلال والجمال. ولكنني قلت فجأة لأكسر هذا الصمت مداعبًا:

- أنا لا أعرف من هي سندريلا.

انفجرت جين وفرانسواز ضاحكتين لهذه الجملة المفاجئة، والتي أعادتني إلى بهجة وخيال الطفولة.. أجابتنني فرانسواز:

- نحن نسميها سندريلا، ولكنني أعرف أن أصل الحكاية من مصر، ولا أعرف ماذا تسمونها؟

وجَّهت فرانسواز السؤال إليَّ:

- أتجيب أن تسمع قصة سندريلا أم جميلتكم المصرية؟
- كما تحبين.

- أحب مصر وحضارتكم، وكليوباترا، سأحكي عن سندريلا المصرية «يحكي أنه عندكم في مدينة منف، كان يعيش تاجر ثري في قصره مع زوجته وابنته، وتصاب الأم بمرض خطير، وقبل موتها تهدي ابنتها صندوقًا به حذاء نفيس من جلد الغزال، وتشير إلى أنه سوف سيكون سببًا في حظها.

بعدها تزوج الأب من امرأة أخرى أنجبت بنتين أقل جمالًا من ابنته الكبرى التي عوملت منهن معاملة سيئة.. وفي أحد أعياد الربيع يعين ابن الفرعون أنه سوف يختار عروسًا من فتيات منف الجميلات.. ذهبت الأختان إلى الحفل، ورفضت زوجة أبيها اصطحابها.

حزنت الفتاة بشدة من ذلك، وتذكرت أمها وقررت أن ترتدي الحذاء الذي أهدته لها أمها قبل موتها والتنزه به، فهاها قذارة قدميها، وقررت أن تذهب لغسلها في ماء النهر، فإذا بنسر ينقض ليخطف إحدى فردي الحذاء ويحلق بعيدًا حتى مر بقصر الأمير الذي يقام فيه الحفل، فأفزعت الطبول فسقط منه الحذاء بين يدي الأمير الذي أعجب بالحذاء الرقيق والأحجار الكريمة التي رصعته، وإذا به يتخيل صاحبته، وشعر أنه اختار صاحبة هذا الحذاء.

وتمر الأيام وهو يزور البيوت والقصور للبحث عن صاحبة الحذاء، حتى دعت زوجته والدها لتعرض عليه ابنتها لتقيسا الحذاء، فلا يلائمهما.

أما هي، فيلمحها الأمير، ولكن تخبره زوجة أبيها أنها ابنة البستاني، ومع ذلك يخرج إليها الأمير ويطلب منها أن تقيس الحذاء، فإذا به نفس مقاسها،

وتذهب الجميلة وتحضر الفردة الأخرى، لتثبت أنها سيدة القصر وصاحبة الحذاء.. فيتزوجها الأمير وتتحقق نبوءة أمها، وتتخلص الفتاة من شر زوجة أبيها.

جعلت الحكاية لهذا اللقاء طعمًا مختلفًا، نظرت فرانسواز لجين قائلة:
- لم أشعر منذ سنوات أنني حرة طفلة، مثلما حدث اليوم يبدو أن وجودك يا جين في حياتي أعادني إلى نفسي.

شكرتهما قائلاً:
- وأنا أيضًا، لم أسمع أبدًا في حياتي، حتى وأنا طفل، حكاياتٍ مثل هذه، شكرًا لكما أيتها الجميلتان.

استأذنتُ في المغادرة، لم أخف من الرحيل، أنا الآن متأكد أن شيئًا عظيمًا يبدأ بيني وبين سندريلا، كما قررت أن أسميها، وأن لقائي بها لن يكون آخر اللقاءات.

أمرتُ فرانسواز الحوذنيّ بتوصيلي إلى المعسكر، فقد تأخر الوقت. وبينما الحوذنيّ يشق شوارع مرسيليا في هذا السكون البارد الذي لا يقطعه سوى صوت حفيف أشجار الطرقات، وحدوات الحصان على الطريق الممهّد المتجه إلى المعسكر، كنت ذاتبًا منهكمًا في حلاوة ولذة اللقاء وسحر فرانسواز الذي يأخذني إلى إحساس يشبه ما تملّكني تجاهه محبوبة يوم أن وقعَ برقعها في العرس. وفجأة انتابتنى رجفة، تبدلت نشوتي في ثوانٍ، لم يمضِ إلا ثلاثة أشهر على فراق محبوبة، شهر في البحر، وشهر ربما يزيد قليلًا منذ وصولي مرسيليا، وتلهب مشاعري امرأة أخرى؛ لأول مرة أشعر أنني لم أعد هناك، ولأول مرة أشعر بالعربة، الآن فقط بدأت أشعر بالخوف ألا أستطيع أن أعود، حاولت أن أطرد تلك الأفكار، حاولتُ ذاكرتي أن تستدعي صورة محبوبة، ولكن وجه فرانسواز كان يقفز فوق شريط الذاكرة ليغيّب ملامح محبوبة رغماً عني.

(٢)

أخرجتُ جين من حقيبتها ورقة قديمة صفراء، منقوشة برسوم، وتحمل عنوان تذكّرة مرور داخلية مدوّن عليها أن ثمنها خمس قطع فضية، الورقة مقسمة إلى خمسة أقسام (الرقم والاسم والسن والجِرفة والأوصاف) وهي لنفر واحد لا غير، فتاة اسمها سعيدة الجارية، تعلق بإبراهيم بك الألفي،

حرفتها جارية، أمّا أوصافها المكتوبة فهي جارية بيضاء، متوسطة الطول، شديدة النحافة، مفتوحة الحواجب.

منذ أن ركبت جين الباخرة بالاس، لم تظهر هذه الورقة، ولم تعد تحتاج لتلك الوثيقة والتي استخدمتها مرارًا وتكرارًا، بل لم تذكر أبدًا لأي شخص أن اسمها الذي عاشت به أكثر من عشرين عامًا هو سعيدة، سعيدة الجارية، شيء ما بداخلها دفعها لإخراج تلك الوثيقة الآن.

لقد أعطتها الجمهورية وثيقة جديدة، كُتِبَ بها اسمها القديم «جين فلوري». جين فلوري اسمي الجديد، في الواقع هو اسمي القديم، لا، اسمي القديم سعيدة، عندما ينادونني جين لا أرد ولا أنتبه إلا بعد قليل، تألفت أذني مع سعيدة، «سعيدة الجارية»، اختطفتُ عندما كنت ما أزال في السابعة، لغتي الفرنسية تهاوت، لا أتذكر إلا كلماتٍ محدودة، بالكاد أكوّن جملة صحيحة، تُركّيتي أفضل كثيرًا، والعربية أقل، ولكنهما الاثنتان أفضل حالًا من لغتي الأصلية، لا أعرف ماذا أعمل، فلم أعتد على هذا الشكل من العمل المجهد خارج المنزل، ربما لن يتخيل أحد أن الجو بالنسبة لي مرعب، فلم أعتد على هذا البرد، كم من الملابس أحتاجها لأعادل دفء المحروسة، يا إلهي، كم هي ثقيلة تلك الملابس! لا أستطيع الحركة بها بحرية كما تعودت في سروالي الفضفاض، الوضع هنا شديد السوء، فرانسواز بالكاد تكفي حياتها المعيشية، تركوا لها شقة صغيرة، وعربةً بحصان واحد، وحوذيًا وخادمة، كان ما تبقى لفرانسواز لا يكفي لأن تطعمنا جميعًا، كان الطعام فقيرًا، وفي كثير من الأحيان غير كافٍ، كان طعامنا على النحو التالي: «الخبز والحساء عدة مرات في اليوم؛ لأن اللحوم باهظة الثمن، حساء مع الأعشاب، حساء مع الجزر، وحساء مع البصل والزيت. ازدادت الأحوال سوءًا مما كان يضطرنا أن نمنع التدفئة عن المنزل طيلة فصل الشتاء، كان عليّ أن أبحث عن عمل، ولكنني لا أجيد إلا عملاً واحدًا، «أن أكون جارية»، حتى هذه الفرصة لم تعد متاحة؛ فقد ألغت حكومة الكونفانسيون الرق منذ سبعة أعوام.

ما كل هذا العبث؟! حتى لو لم تكن الحكومة ألغته، بماذا سأطالب؟ أن أكون جارية؟ أن أعود جارية بعد أن امتلكتُ حريتي؟

لم أستطع أن أصارح فرانسواز برغبتني في الذهاب إلى الكنيسة بعد أن نصحتني سائق عربتها ألبير بأن أتوجه إليهم؛ فقد يساعدونني على إيجاد عمل أو يعينون لي معاشًا من أموال الصدقات، لم أفكر كثيرًا ولم أتردد، فقد كان

الحساء والخبز اللذان أصاباني بالهزال يدفعانني دفعًا إلى البحث عن أي مخرج، اتفقت مع ألبير الذي أخذني معه إلى الكاهن دون علم فرانسواز. كان ألبير حوذي فرانسواز شابًا خجولًا، لم تحرك ساكنة كل الانفعالات التي كانت فرنسا تعج بها، لم يُبدِ يومًا رأيًا في شيء، ولم يفعل من أجل شيء، وجهٌ مهذب يطالعك دائمًا بابتسامة مهذبة، ويتوه في عالم آخر تجاه وجهة لم يعرف لها مسمى، فلا هي الرب، ولا هي الوطن، ولا هي المرأة، غامض ولكنه غموض لا يثير بداخلك تجاهه أي ريبة أو شك. ربما سجلت الأقدار أن أول تفاعلٍ يُذكر لألبير أو مبادرة أو رد فعل في تاريخه كله، كان تجاه جين، يصغرها بكثير من الأعوام، لم يعرف ولن يعرف أحد هل حرّكته كامرأة أم كحالة، أم أن تعبير الشجن والألم الذي يعتلي وجهها دائمًا أضفى عليها جاذبية، فكثير من الرجال لا تجذبهم المرأة الضاحكة البشوش، يعتبرون ذلك دليلًا على الخفة والميوعة، أمّا الألم والحزن فيعتبرونهما علامة الصدق.

اقترح عليّ ألبير أن يأخذني إلى الكنيسة ليساعدوني في تدبير أموري. كان يعلم أنهم الآن سيرحبون بأي قادم لهم، حتى لو من أجل المال، كان شعورًا غريبًا جدًّا، فلم أدخل كنيسة منذ كنت آتي مع أمي في الآحاد، لا أتذكر شيئًا مطلقًا ولا أفهم شيئًا من تلك الطقوس، وعندما بدأ الكاهن في حديثه معي سألني عن أشياء كثيرة لا أفهمها ولا أعرف عنها شيئًا. تلعثمت قليلًا، وبدون أن أدري أجبته: أنا لا أعرف عن المسيحية الكثير، أعرف عن الإسلام أكثر. خرجت الإجابة دون أن أدري، دون أن أفكر، في الحقيقة عشت عمري لم أتساءل أبدًا ما هي ديانتني؛ لأنني ببساطة كنت أعرف أنني مسيحية، وظللت متيقنة أنني مسيحية، تعلمت بعضًا من القرآن في بيت البيك، وتعلمت الصلوات التي كنت أؤديها نادرًا مثل كل النساء، حفظت كل الكلمات، ما شاء الله، سبحان الله، كان الاحتفال بمولد النبي وخروج المَحْمَل عيدًا لي كالجميع، أمّا لحم الأضحية الضاني فكنت أعشقه بالمرق مع العصيدة، ومع كل هذا كنت أعرف أنني مسيحية، أدركت بعد هذه المحاولة أنني لم أعد جين، فقد نسيت كل شيء، اللغة، والطقس، والإيمان، ولكن من المؤكد أنني أيضًا لست الجارية سعيدة، ولكنني تراجعت عن الذهاب مرة ثانية بعد أن حدد لي الكاهن ميعادًا آخر، تهربت أن أعطي لألبير تفسيرًا مقبولًا لرفضني، أو ربما أنا لا أملك تفسيرًا واضحًا لهذا الشعور الذي انتابني، قلت له جملة واحدة بنبرة ضاحكة:

- «أليير، هذا المكان لا يناسبني أنا لست، راهبة، أنا جارية».

(٣)

لاحظ كريستيان انشغالي بالبحث عن القبط، والذي كان يحلو له تسميتهم «إيجسيان»، وليس قبطًا.. كان كريستيان رجلًا لم يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين، قصير القامة، شعره مائل للون البني، وعينه أيضًا كانتا داكنتين قليلًا عن اللون المعتاد للفرنساوية، أمًا زوجته فلم تكن امرأة صارخة الجمال، ولكن جده طبايعها كانت تخفي حتى القليل الذي أعطاه الله لها من جمال. لم تكن زوجته تسعد كثيرًا بما يفعله كريستيان مع صبيانه، فكان يقوم بدعوة الجميع إلى العشاء في يوم السبت؛ لشرب النبيذ، مع قليل من كبد البط «فواجرا»، والذي كانت زوجته تشعر دائمًا أنه عشاء فاخر، وأنها تكاليف باهظة لا تليق بالعمالة والصبيان، كنت أشعر أحيانًا أنها تتعمد وضع الطعام بطريقة غير لائقة حتى تجعل الصبيان ينصرفون سريعًا.

في البداية لم أكن أفهم هل هذا كرم زائد من كريستيان، أم أن هذا هو التصرف الطبيعي من أسطى تجاه صبيانه. أشياء كثيرة لا أفهمها، ولكنني أحاول أن أكون مثل الآخرين، فإذا دعا الأسطى صبيانه إلى عشاء فإني أكون معهم، وإذا طلب منا شيئًا أحاول أن أكون مهتمًا، أحتاج أن أفهم أكثر ولا تواتيني الجرأة للسؤال، ولكنني تعلمت أن الوقت والمعاشية سيكونان كفيلين بهذا، وفي ذات ليلة، بينما كان جميع الصبيان مجتمعين في الورشة همس لوسيان في أذني قائلاً:

- لا بد أن تبتهج اليوم، كلنا مبتهجون

صمت قليلًا ثم قال بحذر:

- على ما أعتقد ما عدا كريستيان وزوجته، نحن من اليوم أحرار، لقد وقّع نابليون قرارًا بحرية التنقل من عمل إلى آخر دون الحصول على موافقة كتابية من الأسطى، لقد عرفت هذه الأخبار من صديق أبي الوحيد الذي ظل على قيد الحياة منهم، فقد كان والدي مستخدمًا في مطبعة الصم - البكم عند أحد أصدقائه الذي أصبح صاحب مطبعة بعد انقلاب ثيرميدور، فبدأ ينشر عددًا من الصحف وكان في موقع يمكنه من معرفة الكثير، وفهم الكثير، والاستماع إلى رأي باريس، فقد حضر أبي وأصدقائه في زمن مبكر، التصاعد المدهش لنابليون أو كما كانوا يتندرون عليه بالإشاعة الطائشة، قابلت صديقه هذا

اليوم مصادفة وقال لي:

- الإشاعة الضعيفة جدًّا، أصبحت فجأة مدوِّية وصاعقة أكثر من الرعد. لم تعد إشاعة، بل أصبحت حقيقة، نابليون اليوم يوقِّع قرارًا في مصلحة العمال، وحكى لي عن تفاصيل القرار.

كان لوسيان شابًّا تملؤه الحماسة، هو في النصف الأول من العشرينات من عمره، قليل الحديث وخاصة مع الصنایعية الآخرين الذين يعملون معنا في الورشة، حقًّا كان مختلفًا عنهم؛ فألفاظه شديدة التهذيب، يتحدث بصوت خفيض دومًا، أما حماسته فكانت تظهر فقط في حالتين: انغماسه في ابتكار حشوة جديدة، وقراءة الجرائد، وخاصة ما يهتم منها بأخبار الحكومة والحرب، كان لوسيان أيضًا شديد الاعتناء بمظهره، ينتقي ألوان ملابسه بعناية، بنطاله الفضفاض الواسع، قمصانه ذات الألوان الزاهية، منديله الملفوف حول عنقه المتدلي على صدره بحرية، يجعلك تتصور إذا رأيته أنه ينتمي إلى طبقةٍ عليّة القوم، لولا بنطاله الذي يفصح بدون تردد أنه عامل ابن عامل؛ فالأثرياء كانوا يرتدون بنطالًا آخر مصنوعًا من خامة تجعله يلتصق على الجسد فيبرز شكله وتفصيله.

فهمت بعدها أن دعوات كريستيان إلى هذا العشاء الفاخر في بيته، في عطلات نهاية الأسبوع، لم تكن عادة أصيلة عنده، ولكن يبدو أن أخبارًا عن هذا القانون الذي يتيح للعامل أن يترك عمله دون الرجوع إلى الأسطى، والذي أقره نابليون الآن بدأت تتردد منذ فترة؛ ولذا فقد حاول كريستيان بعدها أن يكسب ود صبيانه حتى يضمن ولاءهم.

استطرد لوسيان قائلاً:

- هل تستطيع أن تخمن كم شخصًا سيبقى مع كريستيان بعد هذا القرار؟ كان سؤالًا استنكاريًّا، سؤالًا يحمل الإجابة في طياته، وربما كان يحمل رسالة أو دعوة من لوسيان للتمرد على كريستيان.

لم تكن عندي أسباب كبيرة لترك العمل عند كريستيان، ربما لأن احتياجاتي لم تكن كبيرة، ربما لأنني لم أعانِ مثلهم، فأنا هنا منذ أشهر قليلة ولا أعرف ماذا يجب أن تكون عليه الأوضاع، حتى أقرر أنها تعجبني أو لا تعجبني، نعم سمعتهم يقولون إن القرض الإجباري قد جعل الفقراء يدفعون ثمن حرب الحكام، من دون أن تتعرض للخطر محافظ النقود التي يملكها ساكنو حي لوبيليتيه.

ربما لأنني لست مشغولًا حقًا بهذا العمل، وأنني فقط أمارسه حتى أملك قليلاً من المال، كما أن كريستيان لم يعترض مطلقاً أنني في رحلاتي معه كنت أستقطع بعض الوقت للبحث عن هاجروا من القبط، وكان لطيفاً معي، بل ساعدني أحياناً في الوصول إلى بعضهم.

في الحقيقة لم أشعر ببهجة الانتصار العظيمة التي رأيتها في عيون الصنایعية، كل ما كنت أفكر فيه كيف أجمع شعب القبط؛ لأقيم لهم القداس، وكيف أكتب وأسجل ما رأيته، سأعود يومًا إلى مصر وإلى كنيستي، سأفعل مثلما فعل أولاد العسال وأترك إرثًا لشعب كنيستنا يستفيدون منه.

(٤)

اختفت فرانسواز، لم ترسل سائق عربتها للمعسكر لدعوتي مرة أخرى، وبالرغم من أنني حاولت جاهدًا أن أتخطى هذا اللقاء العابر بيني وبين تلك الكونتيسة الناعمة، لكنها استعمرت كل حواسي، فأصيحُ وأمسيت لا أرى إلا صورتها، فكرت كثيرًا أن أقوم أنا بالزيارة، لا أعرف لماذا لم أجرؤ أن أفعل ذلك، هل خوفي من الاقتراب أكثر؟ أم خوفي من الرفض؟ الفارس الشجاع جالينجو هل حقًا أنا شجاع لهذه الدرجة؟ المؤكد أنني كنت خائفًا لهذه الدرجة، ففي طفولتي كنت أخاف من تقرير أبي الدائم لي، وأخاف من أب اعترافي، وأخاف من دخولي الكنيسة التي اكتشفت فيها ضعفي كإنسان تملؤه الخطيئة التي ورثناها رغبةً عنا وتتألم بسببها، الخوف ألا أنال الخلاص، ولا يقبلني المسيح في ملكوته، ثم تلتها مخاوف أخرى لا تنتهي، ولكن يتغير شكلها وهياتها وكأنها شيطان ذكي، فهنا خوفي من الحب، وهنا خوفي من الجسد، وهنا خوفي من الممالك، ورعبي من هذا الذي سيقرعني بالعصا إذا ما رأني أرثدي عما متهم أو أن أطمح أن أكون مثلهم.

هل حقًا ما أملكه هو شجاعة لا مثل لها؟ أم أنها مقاومة لضعف لا مثل له؟

لقد بدأت أدرك مع كل رقبةٍ تتطاير من سيفي لماذا عشقت ساحات المعارك؛ لأنها باختصار المكان الوحيد الذي يجبن الخوف أن يدخله، فهناك لا اختيارات سوى الشجاعة أو الموت، فإن الشجاعة العظيمة لا تقبل الوسط. لقد كنت مصممًا على خسران كل شيء، أو ربح كل شيء. كاللاعب الذي يغامر بأخر ما لديه.

كان أسبوع عيد الميلاد المجيد، لم تكن هناك أي مظاهر احتفالات صاحبة، ربما احتفل أحدهم هنا أو هناك على استحياء، لم أدري كيف اتخذت ذلك القرار في تلك الليلة الممطرة من ليالي مرسيليا، قررت أن اتخذها ذريعة لزيارة فرانسواز التي لم أكن واثقًا هل ستعنيها المسألة وتبتهج؟ أم ستستنكر تصرفي؟

استقبالها لي فاق كل جرأتي وشجاعتي. كانت أقصى أمانيّ وأنا متجه بجوادي إلى بيتها في جران كور، أن أجدها في المنزل، وألا تقابلني بجفاء أو تجاهل، وربما تمنيت وأنا في طريقي ألا تكون هناك.

تصورت أن أجد فرانسواز هناك وتفتح لي الخادمة وتبلغها بحضوري، حلمت أن تمثيني بنظرة عاشقة وتصمت ذلك الصمت الدافئ الذي منحني إياه من قبل، كانت ضربات قلبي تدق بشدة، وأتصبب عرقًا كلما اقتربت من رقم ١٧ في جران كور، ولكنني عندما وصلت هدأت قليلًا، فلا أثر لعربتها، ولا أثر لحركة أو حياة، ربما سافرت إلى أفينيون، خيبة أمل وشعور بالراحة في آن واحد، ولكن عدم وجود العربة جعلني أكثر جرأة في طرق الباب، فمن المؤكد أن لا أحد هنا.

يحدث هذا فقط في حكايات الجدات.. لا الجدّات تروى حكاياتٍ أخرى، حكايات عن الجيّات، وعن العنقاء، وعن الأنهار التي تفيض، والقمر وسنابل القمح، أما هذا فيحدث في الخيال في أحلام اليقظة لمراهق يكتشف نفسه كرجل.

تفتح فرانسواز لي الباب تدعوني إلى الدخول إلى غرفة الضيوف المظلمة تشعل المصابيح، وتتركني قليلًا ثم وبدون مقدمات تعود وتقف أمامي عارية تمامًا.

أغمضت عينيّ كمن لا يستطيع أمام الضوء الشديد أن يرى.. لم أر جسد امرأة من قبل، اخترقته.. نعم، ولكن دون أن أراه، نظرت إليّ بدهشة عجيبة:

- أنت؟ أيها الفارس تغمض عيناك وتدير وجهك؟

كيف لها أن تفهم أننا نطفيء الأنوار لنختبئ بشهواتنا في الظلام، وأني احتاج إلى شجاعة تفوق ألف مرة شجاعة شمشون حتى أعتاد النظر إلى جسد امرأة؟

لم تدعني فرانسواز أغمض عينيّ، قالت لي بكل وضوح وغنج:

- الرجل الذي لا يقوى على النظر إلى جسد امرأة لا يستحق أن يكون

فارسها، كيف للحب أن يكون دون أن ننظر إلى ما نحب؟ تمعّع بالنظر إلى ما تحب.

كم هي مختلفة تلك المرأة التي قادتني دون أن أدري إلى كل هذا التيه في جسد كأنه بركان لا يسمح لأحد أن يهرب من فوهته، الاختراق بكل ما فيه من ألم معجون بلذة، كيف لهذه الشقراء كل هذه السخونة؟ وكيف لي أن أطفئ بركانها المتقد تحت سُرتها؟ استفزنتني وتجراتُ عيناى شيئًا فشيئًا لأنظر إلى هذا الجسد العاري المنحوت بدقة، إلى تلك البشرة البيضاء المرمرية، وهذا الجلد الأملس، إلى ثدييها النافرين تتوسطهما قممًا جبلٍ ورديتا اللون، هذا الخصر النحيل الذي يقودك كخارطة طريق إلى البراح تحت سُرتها يشعل الرغبة التي تنال مني كوحشٍ وقعتُ في قبضته، لم تعطني فرانسواز أي فرصة للارتباك، كانت تقودني إلى كل شيء، أخذتُ يدي وضعتُها على جسدها المندي بقطرات الشهوة قائلة:

- كيف للحب أن ينضج دون أن تلمس ما تحب؟

لأول مرة تتجول يدي بجسد امرأة بكل هذه الحرية لامست فيها كل شيء، كل شيء، كل جزء من شعر رأسها حتى أصابع قدميها، وبينما أصابعي تكتشف كل الممنوعات اقتربتُ مني أكثر وأكثر قائلة:

- كيف للحب أن يكون دون أن تتذوق ما تحب؟

وضعتُ جبلها الوردى في فمي، ثم سَحَبته برفق، كانت حرارة زفيرها أفي ذنبي، همسات الحب والرغبة الشرهة التائهة بين شفثيها، وريقها يبلل كُلي، تطالبنى بفيضان الارتواء.

- أنت فارسي.. تي إيه مون كافالير.

لأول مرة أتذوق امرأة، ولأول مرة أعلم أن للشفاه طعمًا، ولأصابع القدم طعمًا آخر، وفي لحظة كانت فرانسواز جاثمة على ركبتيها، وأنا ممسك بشعرها من الخلف كفارسٍ يمسك لجام فرسيه، طرت بجسدها إلى ساحة العشق والنشوة مدفوعًا برائحة لم أشمها من قبل، ممزوجة بعرق الرغبة، أدارت جسدها، جذبتني إليها، أحاطتني بساقيها الملتفتين حول جذعي، كانت تبعدني وتقربني بساقيها كما تشاء مسافةً أقل من كف اليد، ولكن بين ثواني البعد والقرب تتولد بي أميال من الشهوة والرغبة فيها، صوت ارتطام حميم يعلو ويهبط إيقاعه كصليل السيوف في معركة، اندفعت فرانسواز في نوبة من تأوهات، وجسدها ينتفض برعشة متقطعة، وصوتها يعلو مصحوبًا بتأوهات

سَكَرَى مِنْ نَيْذِ الشَّبِقِ، بَيْنَمَا أَنَا جَائِمٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الْحَلْمِ وَالْحَلْمِ فَاقِدَ الْإِحْسَاسِ بِالزَّمَنِ وَالْمَكَانِ، بِدَاخِلِي زَيْرٌ مَكْتُومٌ أَسْمَعُهُ فِي عُرُوقِي النَّافِرَةِ وَجَسَدِي الْمَتَأَجِّجِ الَّذِي تَحُولُ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْحَدِيدِ عَلَى وَشِكِّ الْإِنْصِهَارِ تَحْتَ وَطْأَةِ حَرَارَتِهَا... غَرِبَتْ عَيْنَاهَا فِي عَالَمٍ آخَرَ، كَفَّتْ عَنِ إِبْعَادِي عَنْهَا، كَانَتْ سَاقَاهَا تَضْمَانِي لَهَا أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، تَدْفَعَانِ بِي أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ إِلَى الْعَمَقِ، احْتَضَنْتَنِي ضَاغِطَةً عَلَيَّ بِشِدَّةِ تِلْكَ الضَّغْطَةِ الَّتِي فَجَّرْتَنِي، فَعَلًّا صَوْتِي بِالنَّهِيمِ، بَيْنَمَا هِيَ تَصْرُخُ وَتَشْهَقُ، وَتَخْتَبِئُ وَتَبْكِي بِقُوَّةِ مَبْلَلَةٍ جَسَدِي بِدُمُوعِهَا الَّتِي أَفْزَعْتَنِي وَأَخْرَجْتَنِي مِنْ نَشْوَةِ الْإِكْتِمَالِ فَأَعَادْتَنِي إِلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، قَائِلًا بِجَزَعٍ:

- لِمَاذَا تَبْكِينَ يَا فِرَانَسَوَازَ؟ هَلْ أَلْمَتُكَ؟ هَلْ ضَايَقْتُكَ فِي شَيْءٍ؟

نَظَرْتُ إِلَيَّْ وَفِي عَيْنَيْهَا لَمَعَانٌ ثَمَالَةٌ الْإِرْتَوَاءِ قَائِلَةً:

- أَلَا تَعْرِفُ مَا هَذِهِ الدُمُوعُ؟

لَمْ يَكُنْ هَذَا الضَّابِطُ الْبَالِغُ مِنَ الْعُمُرِ وَاحِدًا وَعِشْرِينَ عَامًا حَقًّا يَعْرِفُ مَا هَذِهِ الدُمُوعُ فَقَدْ كَانَتْ خَبْرَتُهُ فِي مَعْرِفَةِ النِّسَاءِ قَلِيلَةً، وَكَانَتْ عَوَاطِفُهُ أَشْبَهَ بِعَوَاطِفِ مَرَاهِقٍ مُتَطَرِّفَةٍ مُتَأَرِّجَةٍ.

* * *

«لَا أَعْرِفُ مَا كُلُّ هَذَا الْإِحْسَاسِ بِالضَيْقِ الَّذِي جِئْتُ عَلَى صَدْرِي مِنْذُ كُنْتُ مَعَ فِرَانَسَوَازَ، لَمْ يَعْذُ طَيْفُهَا يَثِيرُ بِدَاخِلِي سَعَادَةً، وَلَكِنْ أَلَمٌ عَجِيبٌ، أَيَّامٌ وَأَسَابِيعٌ تَمُرُّ، وَهَذَا الْإِحْسَاسُ بِالضَيْقِ يَتَمَلَّكُنِي، يَأْكُلُنِي، هَلْ لِي أَنْ أَمْحُو تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنْ ذَاكِرَتِي؟ كَانَتْ مَحْبُوبَةً تَطَارَدْنِي، تَرَكْتُ زَوْجَتِي وَحِيدَةً فِي مِصْرٍ لِهَدْفِ أَسْمَى فِي نَفْسِي وَوَعْدُهَا بِالْعُودَةِ.. لَمْ أَكُنْ أَتَخِيلُ أَنَّي رَجُلٌ غَيْرُ أَمِينٍ لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ، مِشَاعِرِي الَّتِي تَفْجَرَتْ تَجَاهَ فِرَانَسَوَازَ وَحِينِي إِلَى رُؤْيَتِهَا، غَرَقِي فِي جَوْفِهَا كَشَفْتَنِي أَمَامَ نَفْسِي، أَنَا لَسْتُ ذَلِكَ الْفَارِسُ الْأَمِينُ الَّذِي صَوَّرَهُ لِي، غُرُورِي مَحْبُوبَةٌ كَانَتْ تَعْرِفُنِي أَكْثَرَ مِمَّا أَعْرِفُ نَفْسِي، وَلِذَا رَفَضْتُ وَدَاعِي.. رَفَضْتُ تَقْبِيلِي.. رَفَضْتُ أَنْ تَعَانِقْنِي، كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّي ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَخَلَّى عَنِ زَوْجَتِهِ وَيَرْحَلَ إِلَى الْمَجْهُولِ، كَثِيرُونَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا، أَمَا أَنَا فَقَدَرْتُ، كَانَتْ بِالتَّأَكِيدِ تَعْلَمُ أَنَّ الْقَلْبَ الْقَادِرَ عَلَى الْبَعْدِ، قَلْبٌ لَمْ يَتَمَلَّكْ مِنْهُ الْحُبُّ. بَكَيْتُ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَهْرَبُ مِنِّي دَمْعَةٌ، فَعِنْدَنَا الرِّجَالُ لَا يَبْكُونَ.. لَمْ أَبْكِ وَأَنَا أَرْحَلُ، وَأَنَا أَوْدَعْتُهَا، وَأَوْدَعْتُ أُمِّي، لَمْ أَبْكِ وَالسَّفِينَةُ تَتَحَرَّكُ وَتَبْتَعِدُ عَنِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَلَمْ أَهْتَزْ عِنْدَمَا مَاتَ يَعْقُوبُ، كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّي مَا زِلْتُ أَقْدِرُ، وَلَكِنْ الْيَوْمَ بَكَيْتُ عِنْدَمَا تَذَكَّرْتُ نَفْسِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ بَعْدَمَا ارْتَدَيْتُ مَلَابِسِي

عائداً من عند فرانسواز، لأنني فقط ليلتها تأكدت أنني لم أعد فضل الله الزيات، أصبحت فضل الذي تاه في جوف ليل فرانسواز. ووجدتني لا أريد شيئاً إلا الذهاب إلى الكنيسة، لم أفكر في الذهاب إلى الصلاة منذ أن أتيت إلى فرنسا، حتى في مصر كنت أذهب إلى القديس بحكم العادة، وليس في كل الآحاد، ربما في الأعياد مع الجميع، أما الآن فأشعر بحاجة شديدة إلى التقرب إلى الله، إلى الصلاة، إلى الاعتراف، إلى تلك اليد الإلهية التي ستعيد لي توازني، التي ستنزح هذا الثقل الجاثم على صدري، فلا أستطيع معه حتى التنفس.

ارتديت ملابسني وتوجهت إلى كنيسة القديس مارتان، الكنيسة الوحيدة التي أعرفها منذ أن دَفنا بالقرب منها الجنرال يعقوب، وعندما بدأتُ قَبَّتْها تلوح لي من بعيد كنت أشعر بهذا الثقل يتأهب للخروج، خطوتان فقط وأصل إلى الراحة، كم هو جميل الله الذي يعطينا فرصة الغفران، يسمح لنا لنبدأ من جديد، كم من الآلام والخطايا التي لو تحملناها وحدنا لفتكت بنا.

الروح تقتلها الخطيئة، فنعيش أجساداً بلا أرواح..

استقبلني الشمَّاس بلطف شديد، وكان ودوداً للغاية، وسألني:

- يبدو أنك لست من رعية الكنيسة، فلم أرك من قبل.

- نعم أنا قبطي، جئت إلى مرسيليا مع جيوش نابليون العائدة، ولي هنا فقط عدة أشهر وأريد أن أعترف.

كان واضحاً من ملابسني أنني ضابط في الجيش الفرنسي، طلبت منه مقابلة الكاهن، تركني بعضاً من الوقت، أخذت في تأمل الكنيسة من الداخل، جمال الأيقونات والمبنى، كم هي فخمة غنية ثرية كنائسهم، كانت المرة الأولى التي أرى فيها صليباً مجسداً عليه المسيح، أدهشني شكل هذا الصليب، وبدأت أتساءل لماذا لا يجسد القبط المسيح على صليبهم؟

عاد الشمَّاس إليّ، كنت واقفاً أمام أيقونة المسيح أصلي، وبينما كنت أرشم الصليب بإصبع واحد تقدّم في الشمَّاس، وبلطف شديد وجّهني أن ما أفعله ليس صحيحاً، وأن رشم الصليب لا يكون بإصبع واحدة كما فعلتُ، بل بالأيدي كلها، لم أدرك ما الفرق، ولكنه فعل هذا وأنا استجبت له وفعلت كما يفعل، لا أدري لماذا؟

أخذني إلى غرفة الكاهن الذي سمح باستقبالي دون تحديد موعد سابق، على عكس الغرف المتبع، ولكن يبدو أن ملابس الجيش أو ربما لأنني قبطي

مهاجر من بلاد بعيدة، جعله يوافق على استقبالي.
استقبلني الكاهن في مكتبه، ورحب بي بشدة، بدأت حديثي معه، حكيت
عن ليلتي مع فرانسواز، عن إحساسي بالخطيئة، عن خيانتني للعقد الإلهي
بيني وبين محبوبه، كان الكاهن يسمعي باهتمامٍ شديد، ولم يقاطعني في
الحديث حتى أنهيت اعترافي.

أخذ الأب في تذكيري ببعض الآيات في الإنجيل المقدس، ولكنه استطرد
مشيرًا إلى صندوق خشبي كبير:

- هنا نأخذ الاعتراف، إن ما فعلته معك الآن لا يعدّ اعترافًا، ممكن أن تسميه
جلسة ودية بين صديقين، ولكني لا أستطيع مساعدتك في أي شيء.

نظرت له متسائلًا، فلم أر هذا من قبل.

- كيف لكاهن أن يرفض الاعتراف؟ ولماذا؟

تحدث الكاهن بصوت خفيض، ولكنه حازم:

- لأنك بالنسبة لي غير مسيحي، ولكي أستطيع مساعدتك عليك أن تقبل
بايمان الكنيسة الجامعة الواحدة، الكنيسة الكاثوليكية، وعليك أن تتعمد حتى
تستطيع أن تمارس الأسرار الكنسية وتنال غفران الخطايا، وقتها تستطيع أن
تعطيني الاعتراف، ويكون من حقي أن أعطيك الحل.

- لست مسيحيًا؟

لا أعرف كيف تماسكت أعصابي، ولكنني باندفاع شمّرت كم قميصي عن
معصمي، وبصوت شديد الغضب والحسم قلت:

- أنظر إلى يدي، ألا ترى صليبي، أنا نصراني. أتيت إلى هنا لأني نصراني.

بدأ صوتي يرتفع بين الهذيان والصراخ تركت أرضي وزوجتي؛ لأنهم يقولون
لي هناك أشمل يا نصراني.. انزل من على البغلة يا نصراني. ينادون بالجهاد
فيينا لأننا نصارى.

والآن تريدني أن أتعمد؟ لقد تم تعميدي منذ طفولتي، عمدتني أمي منذ
طفولتي.

حاول الكاهن تهدئتي شارحًا أشياء لم أفهمها، عن أن الكنيسة القبطية لا
تعتبر مسيحية، وأنها حادت عن الإيمان الصحيح، وأن التعاليم التي تتبعها بعيدة
كل البعد عما قاله المسيح، وأن ما تعلمته هناك هو دين محرّف لا يقبله
المسيح.

لم يتحمل عقلي ما يقوله هذا الكاهن، ولم أتحمّل سماع كل هذا التشكيك

في إيماني، كيف لا أكون مسيحيًا؟ كيف لا تكون أُمي مسيحية وهي التي لا تترك القُداس أبدًا؟ والقديس اثناسيوس، والأنبا باخوم، وشفيعي تادرس الشطبي؟. كيف يكون كل هؤلاء كَفَرَة.

وجدتني أستاذن وأخرج بسرعة فائقة من هذا المكان الذي ينكرني، ولأول مره أشعر أن فرنسا ضيقة جدًّا، أضيق من حوارينا في مصر، على هذه الأرض توجد رحمة المسيح، ولكنها ليست لي، أنا وحدي دون كل هؤلاء الذين يخطئون في اليوم عشرات المرات محروم من الغفران، محروم من الرحمة، بدأت أشعر باللا شيء، لا شيء يشبهني، لا شيء يخصني هنا، كل الأشياء غريبة، لا الأرض التي أخطو عليها أرضي، ولا السماء فوقي فيها ربِّي، ولا الحضن الذي ارتميت عليه منذ أيام يحق لي. أخذت أصلي وأبكي وأردد ناظرًا إلى السماء.

«جي بنوت إتخين في فيؤوي ماريف توفو أنجيه بيكران:

أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك،

ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك.

كما في السماء كذلك على الأرض.

خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم،

واغفر لنا ما علينا،

كما نحن أيضًا نغفر لمن لنا عليه،

ولا تُدخلنا في تجربة،

لكن نجِّنا من الشرير بالمسيح يسوع ربنا..

لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد».

حتى الكنيسة رفضتني! ولكنها ليست كنيستي، تذكرت الأب عبد الملك هو الوحيد القادر على إنقاذي من هذا الألم، ولكن انتابني شعور خفي أنه خدعني، لا.. لا لم يخدعني بالضبط، ولكنه بالتأكيد كان يعلم أن نصارى فرنسا غير نصارى مصر، بالتأكيد كان يعلم أنهم لا يعترفون بإيماننا ولا بنا، لماذا لم يُقل لي؟ ولماذا جاء هو نفسه إلى هنا؟ وماذا يفعل هنا، وقد كان بإمكانه أن يبقى وسط شعبه؟ بدأ الشك يتسرب إلى نفسي ربما يكون على ملتهم.. من المؤكد أنه منهم ولذا تبعهم.

نعم هو منهم.. بكيت.

أخذ ألبير على عاتقه البحث عن عملٍ مناسبٍ لجين، حتى وجد فرصة في إحدى حانات مرسيليا حيث يمكن أن تعمل هناك نادلة، ولكن لم تفهم كيف لها بتلك الفرنسية الضعيفة أن تستطيع التعامل، في الواقع لم تستوعب كيف تعمل في حانة وهي التي تعودت سكن الحرملك؟

تحركت جين ذات مساء لمقابلة الأنسة العجوز مارجريت صاحبة الحانة، كانت امرأة بدينة، ضاعت معالم جسدها فأصبحت تشبه الفنتاس الكبير، وعلى الرغم مما حاولت أن تظهره هذه السيدة من رقي في مظهرها، لكن الباروكة المهذلة، وزوج القفازات الذين ضاع لونها الأحمر من كثرة الاستعمال، كانا يؤكدان أنها محاولة فاشلة لامرأة كانت ترغب يومًا ما في الصعود الاجتماعي، ملامح وجهها المستدير، بأنفها المدبب، كانا يستفزان شعورًا كبيرًا بالنفور منها بدون سبب محدد، وعلى الرغم من محاولة الأنسة مارجريت أن تكون ودودة مع جين، لكن هذه المبادرة قد باءت سريعًا بالفشل بعد أول جملة، ليس ذلك بسبب موقف ما من جين، ولكن طبيعتها اللاذعة تغلبت على رغبتها في التودد من تلك العائدة من عالم أساطير الشرق، امرأة أصبحت تنتمي بشكل أو بآخر إلى هؤلاء اللاتي يطلقن عليهن النساء الفضليات، قائلة:

- هل تعتقدين يا جين أن امرأة مثلك تنتمي للنساء الفضليات، سيكون من السهل عليها التعامل معنا؟

أطلقت الأنسة العجوز ضحكة عالية، استطاعت أن تمحو آثار الزمن، وتذيب في لحظة كتل الشحوم التي راكمتها السنون، وكأن الضحكة انطلقت من أنثى خرجت لتوّها من لقاء حميم ساخن.

لم تكن الغرفة الحقيبة التي وفرتها الأنسة مارجريت لجين بجدرانها المطلية بالجبس الأحمر القاني، والتي تأكلت أجزاء كثيرة منها بفعل الرطوبة وهوائها الممزوج برائحة العفن يشبه ما تخيلته جين وهي تقفز على ظهر الباخرة بالاس، في الحقيقة هي لم تتخيل شيئًا، أخذت جين تتفحص المكان تحت إضاءة مصباح من الزنك بهتت الإضاءة الصادرة عنه لشدة اتساخه، كان هناك أيضًا خزانة خشبية قديمة، وكرسي من القش وسرير حديدي عليه

مرتبة مهترئة وطاولة صغيرة ضاعت ملامحها من كثرة الدهون المتسخة عليها، وفي جانب من الغرفة وقاع الخزانة أكوام من الملابس الرثة الموحلة. اقتنعت الأنسة مارجريت أن جين لاتصلح للعمل في الحانة؛ حيث العمل هناك كان يعتمد بشكل كبير على الذهاب مع أي كان من الرجال مقابل قليل جدًا من المال يذهب معظمه للأنسة مارجريت، ولذا وفرت جين للعمل في المغسلة التي تمتلكها ولم تتوان الأنسة في إيجاد طريقة تسترد بها ما ستدفعه لجين فعرضت عليها استئجار تلك الغرفة بعشرة فرنكات في الشهر. في منتصف الشارع، كانت المغسلة تقع في أعلى بناية مكونة من طابقين، كان هناك ثلاثة خزانات ماء ضخمة وأسطوانات من الزنك، بينما في الخلف يرتفع طابق آخر خصيصًا لنشر الملابس المتراسة على حبال الغسيل، مغلق بإحكام ما عدا فتحات للتهوية، أما حجرة الغسيل نفسها، فكانت واسعة ذات سقف مسطح تدعمه عروق خشبية ظاهرة مرفوعة على أعمدة من حديد مصبوب، وبنوافذ تسمح لضوء الشمس بالمرور، وفي جانب من الغرفة جلست سيده مسئولة عن توزيع قطع الصابون والزرقة وأكياس بها مواد خاصة لتنظيف بقع الخمر والدهون.

سلمت السيدة لجين فرشتين لتنظيف الملابس وعصا خشبية لتضرب بها الغسيل وعددًا من قطع الصابون وأكياس الزرقة وتنظيف البقع، في البداية لم تستطع جين التنفس فقد كانت الغرفة معبأة برطوبة ثقيلة مشبعة برائحة الصابون، وفي الزوايا ترتفع أبخرة من أوانٍ على الماء، والملابس جعلت حتى الرؤية شبه مستحيلة، وبمرور الوقت استطاعت عيناها أن تكشف المكان الذي كان عبارة عن أحواض كبيرة اصطفت على جانبيها النساء الغسلات مكشوفات الأذرع حتى الأكتاف مشمرات ملابسهن المبللة، بينما مياه الغسيل برغاوي الصابون تجري تحت أقدامهن كنهيرات صغيرة لا يعبئن بوجودها. قادتها السيدة إلى إحدى المغسلات الضيقة المتآكلة، اصطفت بجوار النساء حول الحوض، وطلبت السيدة من إحدى العاملات، أن تعلمها ماذا يجب أن تفعل؟

أخذت جين تفعل مثلما تفعل الأخريات أسقطت الغسيل في المياه الممزوجة بالكlor ثم أخرجته.. وضعت الغسيل على المغسلة ودعته بالصابون، وقلبته، ودعته من الناحية الأخرى.

أخذت عصاها الخشبية، وأخذت تضرب الغسيل، لم تكن يداها قويتين بما

يكفي، فخرج صوت ضرباتها ناشراً عن ضربات النسوة اللاتي كن يضرين بسرعة وقوة مذهلة، فخرجت أصوات عصيهن منسجمات كمن تدرين جيداً على عزف جماعي.

ضربت كل الغسيل الأبيض، ثم أخرجته وعصرته، ثم فعلت مثلما تفعل الأخريات، عادت وغطسته في الحوض، واستعادته قطعة قطعة لتدعه بالصابون مرة ثانية، ولتنظيفه بالفرشاة كانت تثبت القطعة على المغسلة بيد وباليد الأخرى تمسك فرشاة قصيرة من النجيل تدعه بها، فتساقط الرغوي المتسخة على ملابسها.

ثم تطلب من الصبي دلوًا من الماء الساخن حتى تشطف به الغسيل الشطف النهائي والذي لم تعرف أول مرة أن الأنسة مارجریت سوف تخصم ثمنه من أجرتها، كما كانت تفعل مع الجميع حتى لا تدفع هي أجر الصبي مما جعل جين بعد ذلك تستخدم المياه الباردة من الصنبور مباشرة.

في المغسلة كانت مجموعات العاملات المتآلفات يستعصن عن قسوة العمل والبرودة وملابسهن الخفيفة المرتقة بالضحكات والنكات والسخرية وقصص الحب والغرام، كن بذئئات الكلام شرسات، أما هي فكانت هزيلة شاحبة لا تجيد شيئاً مما يستهويهن، لم تستطع أن تندمج معهن بسهولة. كانت تهرب من حديثهن التي لا تستسيغه بانحنائها فوق المغسلة طوال اليوم فيختفي وجهها عنهن في سحب البخار الرمادي المعلق.

لم تتخيل جين أن إيجار الغرفة الزهيد سيكون صعب تجميعه بعد كل هذا الشقاء في برك المياه الممزوجة بالكلور والأوساخ، والمياه التي تتساقط على الجميع من تقطير الملابس، وهذا الكم من الغسيل والتي كانت مارجریت تحاسبها عليه بالقطعة وليس بأجر يومي.

اكتشفت جين أن عليها أن تغسل ما لا يقل عن ثمانين قطعة يوميًا فقط لتوفر للأنسة أجرة الغرفة، أما إذا أرادت أن تملك بعض الطعام، فعليها أن تقفز بكمية ما تقوم بغسيله إلى الضعف.

نظرت جين إلى يديها التي اهترأت من مياه الجافيل وساعديها اللذين لم يعودا يقويان على أي شيء قائلة:

كيف لي أن أضرب كل هذا الكم من الملابس؟ يا ليتني أعود إلى بيتي، بيت إبراهيم بيك الألفي، فأنا لا أعرف غير حياة الجواري، في البداية كان طعم العبودية مُرًا، نعم كانت لحظة مرعبة، لحظة وقوفي على الدكة لأباع

وأشترى، ولكن ما إن دخلت البيوت وأصبحت واحدة منهن ألفت الحياة هناك، لن أدعي أنني كنت محظية ذات سطوةٍ ونفوذٍ في بيت إبراهيم بيك، فجسدي النحيل، وصدري الصغير، لم يكونا يشبهان كثيرًا ذوق البكوات، وعلى الرغم من هذا في كنف البيك فإن الحياة أسهل كثيرًا، لكل منا دورٌ تؤديه بهدوء ودون توتر. أما الآن فيجب عليّ أن أعمل منذ شروق الشمس حتى ساعات متأخرة من الليل، لأوفر لنفسي قليلًا من الحساء وكسرة خبز. لم أكن أدرك أن الحربة بكل هذه القسوة، وتدفع الإنسان لبذل كثير من الجهد لينال القليل، وربما لا يناله.

(٢)

الروح جريحة، ولا ملجأ، الزناة لا يرثون ملكوت السماء، أنا خارج رحمة الله. احترفت العزلة عن هذا العالم الغريب عني عن تلك الكنائس التي ترفض أن تمنحني الغفران، حتى عن روعي التي لا تهدأ ويورقها الإحساس بالخطيئة والحنين إلى الأرض، أدمنت الهروب بأن رهنت نفسي للمعارك، وقاومت هذه البرودة بالانصهار في المعرفة، كرّست نفسي للتعليم، قرأت غيبير الذي كان يوصي بالعمل المعتمد على التحشيد والسرعة في كتابه «بحث عام في التكتيك»، درست حملات فريدريك الثاني، وأعمال الإنكليزي لويد، وأعمال فارس دوتي بوسيه، ولكن الخطيئة طرحت كثيرين جرحى، وكل ضحاياها أقوياء. لم تفلح كل محاولاتي للهروب، لا شيء يفلح ونحن مكبلون بأثقال الخطيئة، لن أعيش هكذا محرومًا من الملكوت، لن أحتاج لكنائسكم تلك حتى أتطهر، لن أقبل أن أراني هذا المكسور أمام خطيئتي، لم أركب البحر حتى أكون ذلك المهزوم، «إن أغرتك عينك فاقلعها»، ياليتني قلعته، ياليت اليد التي جالت في مروج فرانسواز شلت، أو قطعت، ياليتني هربت مثل يوسف، وتركت ردائي، يا لها من مرارة كيف لي أن أعيش بهذا الثقل، لقد تهتك قلبي. الآن ألعن كل لحظة وكل دقيقة في أحضان فرانسواز، ياليت جوادي كبا بي ومت قبل أن تدنسي المتعة وتفسد جسدي، تماسكت واستجمعت قواي وضعت المقص ذا الرأس المستديرة على نارٍ مستعرة، وعندما بدأت حواف المقص الحادة يتغير لونها إلى الأحمر المتوهج، قمت بخلع ملابسني، أخذت المقص، لأستئصل مصدر الغواية وأكوي جرح الخطيئة، وإذا بيدي ترتعش، تلك اليد التي لم تخطيء يومًا هدفًا في الرمي، يد القناص

جالينجو ارتعشت، حاولت مرة ثانية وثالثة، ولكن يدي لم تستجب لأوامري، أبت يداي أن ترحمني وتساعدني أن أطهر روحي، وإذ بالمقص يسقط من يدي على الأرض، وأسقط معه جاثمًا على ركبتي مجهشًا بالبكاء وصوت بداخلي يزلزلني «زان.. خارج ملكوت الله - ألقوه خارجًا».

هربت إلى صوت المدافع علَّه يطغى على هذا الصراخ الذي لا يبارحني «خارج ملكوت الله.. القوة خارجًا»، رميت نفسي في ملكوت المعارك، كل شيء مريبك، قفزت إلى ذهني أيضًا كلمات فايان الواضحة والتي تبلغني أنني اقتلعت من جذوري، وأنه ليس لي أرض سوى أرض المعركة، وأن ولائي الآن فقط للحرب، قررت أن أتخطى هذا اللقاء بيني وبين فرانسواز وأن يكون تركيزي أكثر فيما أتيت فرنسا من أجله، المثير للدهشة أنني اكتشفت أنني لا أعرف لماذا جئت بالتحديد، لم أتبع يعقوب، ولم أصدق مئة بالمئة أنه سيستطيع الحصول على دعم ما حتى وإن كان هذا مخططه، وربما صدقته.. هل هربت حقًا من أشمل يا نصراني؟ أم أنني شغفت بحياة المحارب بعد أن ركبت الخيل واحترفت الرمي وأصبحت جالينجو؟ أم أنني لم أصدق الفشل في تحقيق الحلم الذي زرعه بداخلي يعقوب؟ الحلم أننا سنتخلص من المماليك عن طريق الفرنسية، فتبعتهم متعلقًا بهم كطوق نجا، حتى وأنا أراهم يَغرقون. كثيرون ممن ركبوا مراكب الفرنسية هاجروا وفضّلوا أن يبدأوا حياتهم من جديد، لكل منهم أسبابه، ولكنني رحلت مع الجنرال يعقوب، مع الفيلق القبطي، ومات يعقوب.... وبمجرد أن وطأت قدمي أرض فرنسا، كل شيء ذاب في طي النسيان، لم يعد جيش الشرق يتحدث عن مصر أو حتى يتذكرها، كل الضباط والجنرالات الذين كانوا يتصدرون المشهد تحولوا إلى أشخاص عاديين، وظهرت أسماء أخرى أكثر أهمية، أصبحت أحاديثهم واهتماماتهم متعلقة بإنجلترا والنمسا وإيطاليا وروسيا، وكأن مصر والشام وعكا والناصره سقطوا من خريطة الجغرافيا. صدق فايان، كان خبيرًا داهية يعلم أن القبطي المتمرد الثائر خرج مؤمنًا برسالة لم يكن رسولها سوى طفل عابث، ولم يكن القبطي وأحلامه بالنسبة له سوى لاعب يستخدمه حتى يمل لعبته، ولم تكن مصر بالنسبة له أكثر من نزوة للفتى الكورسيكي المدلل الذي يستهويه سحر الشرق، الآن كل ما حدث في مصر أصبح تاريخًا، والأكثر غرابة أنني أشعر أنه تاريخ لشخص آخر غيري، لشعب آخر.. الآن فقط تأكدت أنني لن أعود، والآن تولدت بي شجاعة من نوع آخر، شجاعة من لا يشتهي

شيئاً.. من لا يملك شيئاً يخاف أن يفقده، تركنا مارسيليا وتحركت الكتيبة من معسكر إلى معسكر، وتحولت حياتي من معركة لمعركة، وفي ساحات القتال لم أعد أخشى الموت، ولا يؤثر فيّ موت الآخرين، ولا أفكر في شيء سوى التمتع بالقتال.

(٣)

على الرغم من أن لوسيان ترك العمل عند كريستيان، لكننا لم نكف عن اللقاء، فقد تعهدت بتعليمه الكثير من الحشوات الشرقية، كانت مهارة يديه وموهبته كبيرة، وفي فترة محدودة كان لوسيان قد أتقن أيضاً صيغ الخشب بألوان مميزة، كالأخضر والأزرق والأحمر القاني، والتوشيح باللونين الذهبي والفضي، كما أتقن صناعة «الموزايك» الخشبي لتغطية سطوح قطع الأثاث كالحزائن والصناديق وعلب الزينة والأرائك وألواح اللعب.

وفي ذات يومٍ جاءني أحد العاملين في ورشة «جاكوب إخوان»، يدعوني للعمل عنده، ترددت كثيراً في قبول هذا العرض، فقد كان كريستيان لطيفاً معي، ولم يبدر منه ما يجعلني أنفر من العمل معه، ولكن ورشة «جاكوب إخوان» من أكبر الورش، وكان لها مكانة خاصة في صناعة الأثاث في عهد حكومة المديرين وقنصلية نابليون، حتى أنها كُلفت بتأثيث قصر مالميزون.

قال لي مدير الورشة: لقد سمعنا كثيراً عن مهارتك وفنك، فكثيرون ممن يعملون معنا الآن عملوا معك عند كريستيان، ونحن نريد أن نتعاون معك ونستفيد بمهارتك في تنفيذ بعض الأثاث لقصر مالميزون، فأنت كما تعلم أنه الآن أصبح مقرّاً للحكومة، ونحن نريد أن نقوم بتطعيم بعض الأثاث المطلوب منا ببعض السمات الزخرفية المستمدة من مصر، فنابليون يحب الشرق عموماً، ومصر خصوصاً.

كان شكل نابليون في الساحة الكبرى في المحروسة، أثناء احتفاله بذكرى تأسيس الجمهورية، محاطاً بأكثر من مئة عمود، كل منها يحمل راية مختلفة، والمسلة الضخمة المنقوشة في المركز، ومَشاهد معركة الأهرام المصورة على قوس النصر، تلوح في ذاكرتي وكأنني أستدعيها من ماضٍ بعيدٍ جداً.

ابتسمت ابتسامة مكتومة، ناظراً إلى الرجل قائلاً:

- أعرف جيداً أن نابليون يحب الشرق.

- إذن فقد اتفقنا، وسنبداً العمل من بداية الأسبوع المقبل.

لم تُلهني صناعة الأثاث عن هدفي الأول، فما جئت هنا لكي أقضي عمري في صناعة البرجيرات، ولكن مع الوقت لم يعد أحد يأتي إليّ في قداس الأحد الذي أعلنته لهم، كانت الأعداد تتناقص شهرًا بعد شهر. في البداية كنت متصورًا أنني أبحث عنهم حتى أقدم لهم العون، نعم؛ متخيلاً أن الغربية ستخلق عندهم هذا الاحتياج لي، ليس لي كشخص، ولكن للتقرب من الله، الاحتياج أن نكون معًا لنبحث معًا عن رائحة الأرض التي إن فقدناها نخلقها بذاكرتنا، نصنع حولنا تلك التفاصيل التي تجعل حياتنا أشبه بما كنا فيه، نبحث عن شركاء الذكريات لننتحدث معهم نفس اللغة، فبمفردات الكلام نستطيع أن نخلق هذا العالم المفقود، حتى لو لساعات تكون هي الزاد الذي يعطينا الدفعة لأيامٍ وأسابيع، سنجتمع في الآحاد ونصليّ القداس ونتحدث كما كنا نتحدث، وسنصنع القلقاس لنأكله معًا في الغطاس، ونصوم أيامنا المائتين وستة وخمسين، ونبحث عن الجريد لنصنع منه أكاليل أحد الزعف، ونجدد ولاءنا لإثناسيوس دائمًا... ولكن من أين لنا سعف النخيل؟ لم يحدث شيء من هذا، ربما كانت الأشهر الأولى فقط، تلك الأشهر التي ما زالوا فيها غرباء يبحثون عن السند ليعضد كل منهم الآخر، في البداية كان ظهوري لأحدهم مفاجأة تسعده جدًّا، وبعضهم أحيانًا كان يأتي إليّ إذا تأزمت به الحياة، ولكن الغربية تفرض شروطها، نعم الغربية تفرض شروطها، تفرض أن تقبل.. أن تتغير، وألا تبحث عن الأشياء التي كانت تسعدك من قبل، لأنها غير متاحة، تفرض أن تنسى عالمك وتخلق لنفسك عالمًا آخر، أصحابًا آخرين، وأهلًا جدًّا، تستمتع بتذوق طعام آخر، وأن تبتهج لأعياد أخرى، لأنك ببساطة إن تفعل ذلك سيقنتك الحنين، هناك مَنْ لم يتحملوا الغربية، قفزوا مع المراكب العائدة إلى ما يعرفونه وآخرون انشغلوا بأن يخلقوا لأنفسهم مكانًا ولو صغيرًا في العالم الجديد، أمّا أنا... كيف أكون كاهنًا بلا شعب؟

كل ما أريده شخصان.. شخصان فقط لا غير.

وبدون أن أدري وجدتني أفعل مثلهم، وجدتني أبحث عن شعب آخر في هؤلاء الذين أرهقتهم سنوات الدم، نعم استطاعوا إعلان الجمهورية، ولكن الأرواح وما عانتها من ألمٍ لا تشفيه القوانين، لا تعالج ما خلّفته الدماء من حقدٍ وخوفٍ، وحرصٍ وحسدٍ، وزهوٍ وحماسة.

وجدتني أتذكر وصية المسيح لتلاميذه: «اذهبوا إلى جميع الأمم، واجعلوا كل البشر تلاميذ لي».

كان لوسيان هو جواز مروري بينهم، فأصبح مكاني المفضل حانات فوبورسان ميشيل، حيث تلك الأعداد الهائلة من الثوار، حيث تلك الأرواح التي وجدت رفات لويس السادس عشر، وماري أنطوانيت، وروبسبير، في مقبرة واحدة في مادلين. في البداية كان كهوتي يخلق بيني وبينهم حاجزًا، لقد ثاروا ضد كل شيء، ضد المَلِك، وضد البابا، وضد المَلَك، مُلَّاك كل شيء وأي شيء، ولكن تحت ثمالة الخمر ينسون كهوتي ولوني، تأخذهم نشوة الحكي لغريب، يتباهون أمامه، صارخين نحن الافانجارد، يتشاجرون، يلوم بعضهم البعض، تنهال الألفاظ البذيئة بانسيابية مطلقة لتعبّر عن سعادتهم وحنقهم في وقت واحد، يغنون عندما يتذكرون انتصاراتهم. يغنون ساخرين من أنفسهم.

Ah. ca ira. ca ira. ca ira

les aristocrates a la lanterne

«كل شيء سيصير بخير
سنعلق الأرستقراط على أعمدة النور
كل شيء سيصير بخير
سنعلق الأرستقراط على المشانق
لن يكون عندنا أرستقراط ولا قساوسة
سيكون كل شيء بخير»

Ah. ca ira. ca ira, ca ira

كنت واهمًا أنني أستطيع أن أجعل لوسيان أو أصدقاءه يعودون إلى الإيمان، أو بالأحرى أن يعتنق هو أو أحدهم إيماني أنا، كان رفضهم أكبر من كل ما توقعت، وأنا أيضًا أصبحت حذرًا أن أتحدث معهم عن الإيمان، أحاديثهم مختلفة عما أعرف، عالمهم مختلف جدًا حد الصدمة بالنسبة لي، وجدنتي أكتب وأدوّن ماذا يقولون، بماذا يحلمون، ومن ماذا يخافون، كنت أسمع بشغف تعليقاتهم الساخرة على الآباء والإخوة، وعندما عرّف أحدهم معنى اسمي انفجر ضاحكًا وأصبحت مادة للمزاح معي قائلًا:

- لا لترجم معنى اسمك لأحد، عبدالمك اسمك وكهوتك هو تلخيص لكل ما قامت ضده الثورة، العبودية، والمَلِك، والكنيسة. أنت هنا في وسط الدهماء، سيعلقونك على أعمدة النور.

وجدنتي أكتب عنهم، عن النكات التي أطلقوها، سمعت قصصًا عن بطولات الناس في قتل الآباء الرهبان والكهنة، حتى أن أحدهم ذات مرة كان يحكي

بفرح وتَشَفٍّ، ولا أعلم هل هذه روايات حقيقية أم أنها أساطير البطولة الثورية التي عادةً ما يتناقلها الناس فتصبح حقيقةً مؤكدة، حكى الشاب أنه حضر في بداية الثورة، وكان وقتها ما يزال في عمر الرابعة عشرة، كيف استطاع الثوار أن يقتحموا كنيسة فيذبحون أحد رجال الإكليروس، ويشقون بطنه، ويأخذون أمعاءه، فيشنقون بها أباً آخر. كان رفض الشباب للكنيسة قاطعاً، لماذا رفض الناس الإيمان؟ وهل حقاً هم رفضوا الإيمان؟ أم رفضوا ما وقَّع عليهم من ظلم باسم الإيمان؟

أصبحت هذه اللقاءات في فوبور سان ميشيل، جزءاً من عالمي الذي لا أدري ما الذي ظل يجذبني إليه حتى بعد أن تيقنت أنه لا جدوى في هؤلاء، وأنتي لن أجد فيهم ضالتي، فقد كفروا بكل شيء حتى بأنفسهم.

في ذات مساء دعاني لوسيان إلى أن نلتقي في بيته، كان أمراً غريباً بالنسبة لي، فقد تعودنا أن نتقابل في المقهى أو في بيتي قال لي أريد أن أتحدث معك في أمر مهم، ذهبت معه، احتفي بي بترحابٍ شديد، ولكنه كان مضطرباً بشكل مبالغ فيه، قال:

- لقد تم استدعائي للحرب.

صمتُ قليلاً، فلم أعرف بماذا أجب، الحرب في كل مكان ولا مفر من الوقوع تحت وطأتها، قليلون هم من يعودون، طنابر الموت تحصد الأرواح بنهم.

امتد الصمت أكثر مما ينبغي كان يجب أن أقول شيئاً، أي شيء، ولكنني عجزت، كلمات التشجيع أو حتى الهلع ارتبكت على لساني، فلم تسمح أي منها للأخرى بالمرور.

استطرد لوسيان قائلاً:

- أنا لا أخشى الحرب، ولا أخشى الموت، فقد رأيت كثيراً، كنت طفلاً عندما قامت الثورة، كنت مع أمي، تعلقت بها وهي تزحف مع النساء حاملات السيوف والأسلحة إلى قصر فيرساي من أجل قطعة خبز، كانت أمي جميلة، ولكن الجوع جعلها شاحبة هزيلة، ولكن الجوع أيضاً خلق بداخلها قوة جعلتها قادرة على السير حتى فرساي، قوى البؤس التي ولدت فيها قوى الغضب، نحن اللامتسرولين الذين اقتحموا الباستيل وزحفوا إلى فرساي ولولا شجاعتنا لَمَا نجحت الثورة.

ابتسم لوسيان، بينما عيناه تملأها الدموع، متذكراً أمه التي ماتت في

الأحداث:

- أتعرف من هم اللامتسرولين؟

أكمل حديثه، لم ينتظر حتى إجابتي، استبدت به الرغبة في الحكى، أو إذا صح التعبير، الرغبة في البوح.

- نحن الفقراء العمّال الذين أبدًا لم نملك أي شيء، وعلى ما أعتقد لن نملك أي شيء، كنا الأيدي التي قَطعت رءوس المَلَكِيَّة والأرستقراطية، ففي عالمنا لا طبقات ولا امتيازات، نحن أفانجارد الثورة، نحن الطليعة كما كانوا يقولون لنا، أمّا الآن فنحن الرعاع الهمج القطيع الوحشي.
وقف لوسيان، اتجه إلى مكتبه وأخرج من أحد الأدراج عدة أعداد لصحفٍ قديمة، اختار إحداها:

- هذا عدد قديم لصحيفتنا اللامتسرولين، تحذر قراءها في ١٢ تيرميدور السنة الثانية قائلة: «سترون زهرة الزنبق التي ستخلف الشارات المثلثة الألوان، وكهنوتًا جديدًا يحل محل الكهنوت الذي أسقطتموه، والطغيان الذي سيقوم أخيرًا على جثثكم التي فاضت أرواحها».
نظرت إلى لوسيان بدهشة:

- ولكن ثورتكم نجحت! أسقطتم المَلَكِيَّة وتحققت مطالبكم، وأنتم الآن تحكمون.

- وأنا الآن أذهب إلى الحرب، أحببتك يا عبد الملك، لم أتجاوز حدودي أبدًا، ولم أفكر أن أقترح خصوصيتك وأسألك لماذا تركت بلدك وجئت مع نابليون إلى فرنسا؟ لا أريد إجابة، فقط أردت أن أشكرك لأنك علّمتني الكثير، وإنني لسعيد أنك هنا، وأتمنى أن تكون أنت أيضًا سعيدًا، وأنتك تكون قد وجدت ما جئت تسعى إليه.

شعرت أنها لحظة وداعٍ شديدة الخصوصية بين معلمٍ وتلميذه، وربما بين أبٍ وابنه، حاولت أن أطرد تلك الفكرة، قلت له:

- سأصلي من أجلك حتى تعود.

ابتسم لوسيان وقال شبه ضاحكًا:

- لا بأس، صلّ من أجلي.

هممت بوداع لوسيان، ولكنه استوقفني قائلاً:

- هل لك أن تصنع لي جميلًا؟ ربما أعود، وربما لا.. ليس عندي أي ثروة أو أي ممتلكات، ولكن عندي شيء أريد أن أتركه معك أمانة: لا أثق بأحد غيرك.

دخلَ لوسيان غرفته، وعاد يحمل في يديه علبة شفافة من الكريستال اللامع مثبتة على قاعدة خشبية، وما إن اقترب لوسيان مِنِّي حتى تبينت ما بداخلها..

قلب!

قلبٌ بشري منزوع من جسد، وموضوع بعناية كجوهرةٍ ثمينة في علبة من الكريستال الفاخر.

سارعَ لوسيان بالتفسير حتى يقطع دهشتي قائلاً:-

عندما مات أبي ائتمني على هذا القلب، لم يشرح لي قلب مَنْ، ولكنه اعترف لي أنه سرَّقه، لم يعلم بأمر هذا القلب إلا شخص آخر كان صديقًا لأبي، وكان كاهنًا في كنيسة سان ميشيل، ولكنه خلع ملابس الكهنة وانضم إلينا نحن اللامتسرولين، كنت أسمعه يردد دائمًا:

«إننا الكهنة أسهَمنا بالكلمة والفعل، وبالصمت والتعاس في سيادة حالة الظلم الواقع، لأن كرازتنا بالإنجيل كانت ناقصة، والآن يجب علينا أن نعمل معًا حتى نزيح هذا الظلم».

اختفى الأب اللامتسرول، كما أطلقنا عليه، ولا أعلم ماذا حدث له، هل قُتل أم ما يزال حيًّا في أحد السجون، أم هرب إلى مكان آخر بعد أن أصبحت فصائل الثورة تتهم بعضها بالخيانة ويقتل بعضها البعض؟

ربما لهذا السبب شعرت أنني أريد أن أعطيك هذه الأمانة. ربما لأنني أشعر أن هناك شيئًا ما مشتركًا بينك وبين الشخص الوحيد الذي ائتمنه أبي، وكانت وصيته لي أن أحافظ على هذا القلب حتى لا يقع في أيدي أعداء الحرية.

ودَّعني لوسيان محذرًا «لا تنسَ وصية أبي، حافظ على هذا القلب، ولا تعطه إلا لمن يدافع عن حق المقهورين ويؤمن بالحرية والمساواة».

(٤)

حقًا لم يكن سهلًا، لم أستطع أن أتعامل مع الأنسة مارجریت ببداءة لسانها الممزوجة بميوعةٍ لا تليق بها، ولا نساء المغسلة بشراستهن وبداءتهن حتى فرانسواز عندما بدأت حياتي الجديدة في بيتها لم أكن أتخيل أنها ستكون بالنسبة لي امرأة مبهمة لهذه الدرجة، فهي دائمًا شاردة تقضي معظم وقتها تقرأ كتبًا كثيرة، لا أفهم شيئًا منها، ولا حتى معاني عناوينها. وإذا تحدثت فإن أحاديثها لا تشبه أحاديث النساء، وخاصةً الجميلات منهن، لا أعرف هل كل

نساء النبلاء مثل أختي فرانسواز؟ كنت أخشى الحديث معها كما تخشى الجارية سيدها، وأصبحتُ أناديها كوتتيسة لدرجة أنها لاحظت، وقالت لي لقد ألغت الجمهورية الألقاب، ولم يعد هناك سيد وعبد، كلنا أصبح لقبنا المواطن، ولذا فإذا صممتِ على مخاطبتي بطريقة رسمية فيمكنك مناداتي بالمواطنة فرانسواز، وأنا أيضًا سأخاطبك بالمواطنة جين.

لا أعرف لماذا تملكني هذا الإحساس تجاه فرانسواز، على الرغم من أنها أختي الصغيرة، وكانت أيضًا تعاملني بمنتهى اللطف؛ ربما لأنها سيدة البيت؛ أو ربما لأنها الأصغر والأجمل والأذكى، بدأت أشعر بالغيرة عنها، حتى وجدت نفسي أوجرت تلك الغرفة عند الآنسة مارجريت، ولكن عدت إلى بيت فرانسواز فلم يقوى ساعداي على ضرب مئتي قطعة غسيل في اليوم، ولكنني مع الوقت أصبحت غير راغبة في أي شيء. وبدأت أنزوي شيئًا فشيئًا.

لاحظ ألبير هذا الانزواء، فإذا به ذات ليلة يقول لي:

- ما رأيك أن نخرج معًا لحضور أحد العروض المسرحية؟

ربما لم يكن الاختيار الأمثل منه، قلت:

- لا أفهم ما يقولونه في المسرحيات، كلامهم يشبه كلام فرانسواز.

ابتسم ألبير قائلاً:

- ممكن أن نبدلها بحفلة موسيقية، فالموسيقى هي لغة الإنسانية المشتركة.

سألته:

- وهل ستوافق الكوتتيسة؟

نظر إليّ ألبير بتعجبٍ، وقال متعمدًا:

- لا أفهمك يا جين، وما شأن فرانسواز في هذا؟ لماذا تحتاجين موافقتها؟

أنتِ حرة تتصرفين كما تشائين.

لا يعرف ألبير ماذا قال حتى انفجر في البكاء المحموم لهذه الدرجة:

- ما بك يا جين؟ وما كل هذا البكاء؟

شعرت بعطفه وودّه ولأول مرة أستطيع أن أفتح قلبي لأحد، أجبته وأنا أبكي

بكاءً إلى حد الصراخ:

- إنني تائهة لا أستطيع تحمّل كل هذا العبء، لم أعتد أن أفكر لنفسي، ولا

أقرر لنفسي، ولا أختار لنفسي. أشعر بالغيرة يا ألبير، وبالرغبة أن أعود إلى

حياتي التي ألفتها، إلى بيتي الذي أعرفه بيت إبراهيم بيك الألفي.

أخذ ألبير ينظر إليّ بكثير من الشفقة، اعتصره الألم والأسى من أجلي،
وإذا به يقترب مني بحب شديد ويمسك يدي قائلاً:-

- وأنا أيضًا لم أعتد أن أفكر وأقرر وأختار لنفسني، ربما حان الوقت لكي
نتعلم معًا يا سيدتي الجميلة، إنني مسافر إلى باريس بعد غد، الأمر عاجل هل
توافقين أن تكوني معي في هذه الرحلة؟

استغرقت الرحلة من مارسيليا إلى باريس عدة أيام، طلب مني أن أرافقه
في هذه الرحلة الضرورية له، ولأول مرة أراه لا يقود جواده الذي تركه في
مرسيليا، استأجرنا عربة وللمرة الأولى يجلس ألبير بجواري، تحول إلى
شخص آخر غير ذلك الصامت الذي عرفته والذي عرفناه جميعًا، أخذ يحكي
لي عن حياته والتي لم أكن أتخيل أنها بهذه القسوة. «ولدت في دائرة لياج
كنت أصغر إخوتي، ماتت أمي بعدما أنجبتني بشهور قليلة، كان أبي الذي
يعمل صانع قلنسوات شديد القسوة معها، كما حكى لي إخوتي، فكان يضربها
كثيرًا ضربًا مبرحًا، وكان أيضًا دائم الخيانة لها، ضربت أمي نفسها بسكين بعد
ولادتي بعدة أشهر، كثيرون يقولون إنها أصيبت بهلاوس وحزن شديد دفعها
إلى ذلك. في الحقيقة لم تكن أمي الوحيدة التي فعلت ذلك، فكثيرات
أخريات كن يقتلن أنفسهن بطرق مختلفة، معظمهن ممن كانوا يعانون
الشقاء والفقر مع كثرة الأولاد، تزوج أبي بأخرى والتي لم تتحمل أربعة
أطفال منهم رضيع لم يتجاوز عمره أشهر، تم توزيعنا على الأقارب الطيبين
أخذ قريب لنا في ألمانيا أخي الأكبر الذي كان عمره وقتها حوالي خمسة
عشر عامًا، وأخذت خالتي أختي مارتين والتي كانت تكبرني بثلاثة عشر عامًا،
وأنا فقدت من نصيب مارتين التي تكفلتني كأم صغيرة، وانتقلنا إلى بيت
خالتي في مدينة لينبورج، أما أخي الثالث والذي كان عمره سبع سنوات فكان
من نصيب عمتي في مدينة زوري، لم تكن الحياة في بيت خالتي سهلة فقد
كان على مارتين أن تعمل لتساعد خالتي، وأيضًا لترعاني أنا الرضيع الذي
كانت تحمله في مخلّة على ظهرها أينما تذهب، هربت مارتين من هذا
الشقاء، وبدأت تعمل في رعي الأبقار، شقاء من نوع آخر، لم يكن عمرها قد
تجاوز خمسة عشر عامًا، وأنا بالكاد أحبو بجوارها قليلًا ثم ينتابني البكاء
فترفعني وتحتضنني، ثم تعيدني إلى المخلّة التي على ظهرها وتكمل عملها.
كنت طفلًا أرى العالم من فوق ظهر مارتين المنحني على المزارع أو على
قطعة قماش تقوم بتفصيلها».

دمعت عينا ألبير قليلاً، واستكمل حديثه:
كان بإمكانها العمل كمرية في بيوت أثرياء، ولكنهم كانوا يرفضون أن
أكون معها، تخيلي يا جين رفضت هذه الحياة المطمئنة الدافئة في القصور
حتى لا تتخلى عني.

«مارتين كم كنت حنونة! ما أروعك!»، وحتى بعد أن أعطتها الحياة وجهها
الطيب، وأصبحت من الأثرياء لم تتخل عني قط، كانت في السادسة عشر،
أخذها ماركيز دو لوفالوا عنده، لا أعرف كيف تعرفت عليه، وأصبحت واحدة
من محظياته، كنت وقتها في الرابعة من عمري لم يمض عام حتى مات وترك
لها الكثير من الأموال والمجوهرات.

كنت أستمع إلى ألبير باهتمام وهو يحكي، ولا أعرف لماذا شعرت بالسعادة
من أجل مارتين بالرغم من أنني لا أعرفها، ولأول مرة أسمع عنها، ربما الأمل
في أن تكون الحياة يومًا عادلة، وتعطى وجهها الطيب لمن يستحقون حقًا،
للحياة وجوه كثيرة.

استطرد ألبير تحولت حياتنا فجأة، جمعت مارتين إخوتي ودفعت لتعليمنا
تعليمًا جيدًا، واستأجرت لي مربية لترعاني، أما هي فوقع في غرامها موسيقي
شهير اكتشف بها موهبة الغناء فأخذها معه إلى إيطاليا حيث بدأت تتلقى
دروسًا وتدريبات، ولكنه مات أيضًا هناك وترك لها ميراثه كله، في الحقيقة
كانت ثروته الكبيرة إضافة لم تكن مارتين وقتها بحاجة! فقد أصبحت من
ألمع مغنيات الأوبرا في إيطاليا وفرنسا وأصبح اسمها «ماري فالكور».

أصابتنى الدهشة، مارتين هي ماري فالكور؟

- نعم ماري فالكور هي أختي مارتين.

كان ألبير ينطق اسمها بإحساس شديد من الأسى والفقد لدرجة جعلتني
أتردد في سؤاله أين هي الآن؟

توقفنا لنحتسي شراب الشيكولاتة الدافئ ونتناول بعض المخبوزات في
مكان على الطريق قبل أن نصل إلى باريس.

كنت أتوق إلى باريس لم أر هذه المدينة من قبل، لا أحد يستطيع أن يفهم
شعور القروي وهو يرحل إلى العاصمة لأول مرة، شعور غريب مزيج من
الفرحة والدهشة والنشوة، وكأنك حققت نجاحًا ما، أو اشتريت رداءً غالي
الثلث، كنت تحلم به طول حياتك، كم أنا ممتنة لألبير الذي يأخذني إلى هناك.

ارتسمت على وجهي سعادة طفولية، لا أعرف هل هي التي جعلت ألبير

يتخفف من حالة الشجن التي انتابته وهو يحكي، أم أن إحساس الحب الذي بدأ يطل من عيونه. فأجاني ألبير ونحن نحتسي هذا المشروب الدافئ بقوله:

- جين أشعر بالحب تجاهك أعلم أنني أصغرك بعدة أعوام ولكنني أرى فيك ما لم أراه في أخريات.. هل تقبلين الزواج مني؟

لا أعرف لماذا هذه الإجابة الغبية التي قفزت مني دون تفكير؟

- لست متأكدة إذا ما زالت لدي القدرة على الإنجاب أم لا؟

ضحك ألبير وأجابني وأنا أيضًا لست متأكدًا إذا كانت لدي الرغبة في إنجاب

أطفال يعانون في هذه الحياة أم لا؟

طوى الحب الإحساسَ بالوقت، فإذا بنا على مشارف باريس، وقبل أن

نصل إلى بوليفاردو لوبيتال كانت ملامحه المبتهجة طوال طريق الرحلة بدأت

تتبدل ويعود إلى حالة الحزن والشجن، كنت أتبعه دون أن أسأل لماذا جئنا

إلى باريس؟، وما هذا الشيء المهم الذي يجب أن أعرفه؟ ولكن ما إن دخلنا

شارع المستشفى طلب من الحوذي أن يتوقف أمام مبنى عريق والذي كانت

أعلام الجمهورية بشارتها الثلاثة الأبيض والأزرق والأحمر ترفرف على واجهته

المكتوب عليه مستشفى «فوبور مارسو»، وقال لي الآن سأخذك معي إلى

زيارة أهم امرأة في حياتي، هي نزيلة هنا منذ ثمانية أعوام تقريبًا في عنبر

الأمراض العقلية.

انقبض قلبي وقلت:

- مارتين!.

كانت طرقات المستشفى تضج بالزائرين وأصوات المرضى وآهاتهم تطغى

على ذلك الضجيج، بينما رجال التمريض والأطباء يتحركون بشكل عادي بهدوء

وكأن أصوات الألم جزء من إيقاعهم الهادئ.

لم أقابل في حياتي مرضى عقليين شعرت بفرح، ورسم خيالي كل الصور

المرعبة عن هؤلاء الذين فقدوا عقولهم، كيف يتصرفون؟ كيف يتكلمون؟

كدت أتردد في الدخول لزيارتها، لولا أنني تصورت كم سيكون هذا مؤلمًا

لألبير إذا أظهرت هذا الخوف؟

كانت مارتين تجلس بجوار طاولة عليها بقايا طعام على كرسي صغير

مقيدة الأرجل بحلقات من السلاسل الحديدية المربوطة بسريرها في غرفة

ضيقة يتخللها الضوء من فتحة صغيرة في السقف مغطاة بأسلاك، بالكاد

تسمح بدخول قليل من الهواء، لاحظت أنها تقاريني في العمر ربما أكبر بعام

أو اثنين أو أقل بمثلتهما، ولكنها كانت سيدة بها آثار جمال أخذ، وبالرغم من أنها ترتدي لبس المرضى، ولكن جاذبية لا تقاوم في وجهها الدقيق، وعيونها شديدة الزرقاء، وقوامها الذي بالرغم من نحافته الشديدة يحتفظ بنضارة وأنوثة لا تخطئهما عين.

ما إن دخل ألبير الغرفة توجه إلى أخته مارتين التي انتبهت لوجود ثالث معهما، ولكن وجود هذا الثالث لم يفسد حرارة اللقاء بينهما والذي يبدو أنه يحدث على فترات متباعدة، وما إن انتهى من التعبير عن اشتياقهما ووحشتهما، حتى استدارات لي مارتين وبمتهى اللطف واللياقة رحبت بي بشدة.

عرفها ألبير بي قائلاً ببساطة وفرحة:

- جين فلوري أو سعيدة لا يهم، أحببتها، وعرضت عليها الزواج ونحن في طريقنا إليك.

ابتسمت مارتين وأخذت تنظر إليّ بحنان وعطف:

- كم أنا سعيدة من أجلك يا ألبير! كم أنا سعيدة من أجلك يا جين! الحب هو أجمل ما أعطانا الله، هنيئاً لكما، أخذت مارتين تتحدث بصوت كله عذوبة عن الحب والأسرة والدفع والتعاون.

أما أنا فكنت أتعجب من تلك السيدة التي تتحدث بهدوء، وتعطي انفعالات متوازنة لا تشي بأي شبه جنون أو اختلال، وودت لو سألت لماذا هي هنا؟ عندما أنهت مارتين حديثها عن الحب وبدون مقدمات جلس ألبير على ركبتيه أمامها، وانحنى ليقبل يديها قائلاً:

- مارتين اليوم هو يوم الأخبار السعيدة، لقد أتيت خصيصاً من مرسيليا كي أبشرك بخبر سارٍّ لم تضيّع أعوام عمرك الجميلة سدى؟! لقد أقر نابليون حق النساء في الطلاق.

ابتسمت مارتين، نظرت بطرف عينيها إلى طاولة بجوار سريرها عليها كومة من الجرائد وأجابت:

- أتابع الأخبار جيداً يا ألبير.

قاطعها ألبير قائلاً:

- أعتقد أنهم ربما سيكتبون لك على خروج قريباً.

سرحت مارتين قائلة:

- لماذا تصورت هذا؟

- لأن ما ناضلتِ من أجله، وكانوا يعتبرونه ضربًا من المستحيلات منذ أعوام قليلة، وأعدمت من أجله أوليمب دي، جوش وماتت من أجله كثيرات اليوم تقره حكومة القناصل وتعترف به.. إذن ما سيكون الداعي لإبقائك هنا لا بد أن تعودى لحررتك؟

- أنا اليوم بكامل حررتي يا ألبير، تحقق بعض ما حلمت به، ودافعت عنه، الجمهورية تقر بحق المرأة في الطلاق، لن تضطر المرأة أن تضرب نفسها بالسكين مثلما فعلت أمك لتهرب من جحيم زوج قاسٍ، أنا لا أحتاج للخروج، فالكلمة لا يقيدنا شيء، اتهموني بالجنون حتى لا تسمع كلمتي، ولكن كلمتي وصلت، وأخذتها مني آلاف النساء، لن يستطيع أحد أن يخرس الآلاف وقد نجح.

طلبت مارتين من ألبير أن يأخذني إلى صديقتها التي أودعتها أموالها ومجوهراتها قائلة بود ومحبة:

- انتقي قطعة منها هدية زواجك مني ومن ألبير.

انتهت الزيارة الحميمة وخرجنا من المستشفى في اتجاه شارع فوبور سان دنيس حيث مقر جمعية نساء الثورة لنقابل صديقة مارتين فى باريس، كنا نسير معًا على ممشى نهر السين الذي لم أره من قبل، كعاشقين يضع ألبير يده على كتفائي، يحتضنني بحنان لم أشعره من قبل. أخذ يحكي ويحكي عن مارتين وكيف عادت من إيطاليا في بداية الثورة، وشاركت في أول جمعية وطنية، وكيف اختلفت مع حكومة روبسيير، وبالرغم من مطالبتها أن تخفف من هجومها ومعارضتها لحكومة روبسيير، لكنها أبت، فاعتقلوها أول مرة في مدينة بوردو، وسجنوها لمدة عام، ثم أطلقوا سراحها. كان الجميع يتوقع أن تكف مارتين عن مهاجمتها للنظام الجديد بعد هذا السجن، وبالرغم من التحذيرات المتتالية والتهديدات المباشرة ظل صوتها الذي صدح في مسارح باريس وإيطاليا يصدح في الشوارع والميادين بالخطب والتهافتات، كان لها في البداية صوت مسموع، ولكن عندما أصبح هذا الصوت مخالفًا لمن يحكمون حاولوا إسكاته بكل الطرق، وبينما كانت مارتين ذات يوم تخطب في حديقة التوليري، هاجمتها جماعة من النساء مزقوا ملابسها حتى صارت عارية تمامًا وأخذوا في ضربها ضربًا مبرحًا بالآلات وبالأيدي، علت أصواتهن تتهمها بالخيانة والانحلال ولم يتركوها إلا عندما وقعت غارقة في دمائها وتصورن أنها ماتت.

ولكن لم تمت، مارتين تم نقلها إلى المستشفى التي أقرت أن مارتين فقدت قواها العقلية من تأثير الضرب، وتم إيداعها مستشفى فوبور مارسو، نظر إلّ ألبير تحدث بصوت كمن يدافع عن نفسه قائلاً:

- وكما رأيتِ يا جين، مارتين في كامل قواها العقلية، أليس كذلك؟ ولا أحد يعرف بالتحديد هل هذا التشخيص كان عمداً لإبعادها عن نشاطها الثوري، وحتى لا يثق الناس بكلامها؟ أم أن بعض الأطباء والذين آمنوا بأفكارها وأحبوها، حاولوا إنقاذها من مقصلة روبسبير بهذا التشخيص؟

وصلنا إلى مقر الجمعية، حجرة ليست كبيرة، ولكنها مزدحمة بأوراق مجلات، منشورات مطبوعة صغيرة، قصاصات من جرائد على الحوائط، بالطبع لم أفهم منها شيئاً، فأنا لا أجيد القراءة، ولكن الأغرب من كل هذا هؤلاء النساء اللاتي لا يشبهن كل من قابلت من النساء في حياتي، لا يشبهن الجوارى، ولا نساء المغسلة ولا الأنسة مارجريت، ولا حتى الكونتيسة فرانسواز، ملابسهن ليست شديدة الاختلاف، بالرغم من أن بعضهن كن يرتدين بنطالاً ذا ألوان غير معتادة، ولكن الأغرب بالنسبة لي قسمات وجوهن والتي بها جمال ككل النساء، ولكن شيئاً آخر يطغى على هذا الجمال شيئاً يبدو أكثر وضوحاً وحضوراً.

استقبلتنا صديقة مارتين التي لم تتذكر في البداية ألبير، ولكن ما إن ذكرها بنفسه رحبت به بشدة، ولكنها عاتبته:-

- لم أتوقع منك يا ألبير أن تختفي بعدما حدث لمارتين.

شعر ألبير بارتباك خفيف أجابها قائلاً:

- لم أتحمل ما حدث لها، أثرت البعد والصمت.

كانت السيدة لطيفة وذكية، أنهت هذا الحوار سريعاً، ولكن نظرتها كانت تقول له كان الأجدر بك أن تدافع عن حقها، وتكمل ما بدأته.

عرفها ألبير بي كخطيبته، أعطاهَا الرسالة التي تطلب فيها مارتين منها أن تفتح لي صندوق مجوهراتها. لم أكن أتخيل هذا الكم من المجوهرات، هذا ما تبقى بعدما أن أنفقت مارتين الكثير من أموالها على تأسيس الجمعية وطباعة الكتب والثورة.

في لحظة وددت أن آخذ كل شيء، وددت أن أقول لألبير أنت الرجل، أنت أخوها، أنت أحق بهذه الثروة، كيف تترك أختك المختلة تفعل بأموالها هذا، وتتركك بدون أموال في هذا الشقاء؟

اخترت قطعة ثمينة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت، ربما أثنى قطعة مما تبقى من مجوهرات مارتين، الآن عندي من المال ما يجعلني لست مجبرة على العمل لدى الأنسة مارجريت.

قضينا ليلتنا في باريس في أحد الفنادق الرخيصة، كانت ليلة مختلفة لقد أعطتني الحياة وجهها الطيب، وفي يوم واحد أملك الحب والمال والزوج، ولكن مارتين لم تفارق خيالي، وظللت أتساءل: ما الذي دفع هذه الحسنة الفاتنة أن تترك كل هذه الشهرة وهذا الثراء، ومئات المعجبين والعشاق، الذين يلقون عليها الزهور ويحاولون كسب ودها، لتزج بنفسها في هتافات وخطب وثورة تنتهي بها في مستشفى للأمراض العقلية؟ أفهم ذلك من الفقراء، قد يفعلون ذلك ليحصلوا على أي شيء، وإذا خسروا فلن يخسروا شيئاً.

لم تغف عيناى إلا بعد أن قررت أن أعاود زيارة مارتين في اليوم التالي ربما أفهم.

ما هو الشيء الذي يستحق أن تضحي من أجله بكل شيء؟

كانت مهارة فضل في الحرب تتجلى يومًا بعد يوم، شجاعته وثقته الشديدة بنفسه أخذت تلفت النظر، وفي معركة أوسترليتز أظهر موهبة حربية فريدة، موهبة أبهرت مَنْ حوله يفكر ويتحرك بحماسة الشرقي «الخطط الواسعة هي روح الحرب».

أمّا في راجواز يوليو ١٨٠٦ فَمَنَحَه الإمبراطور نيشان صليب الليجون دونور مكافأةً على دور فرقة التي كانت في طليعة الجيش الذي كان يحارب الجنود الروس في الجبل الأسود، مُنِحَت الأوسمة له ولثلاثة من الضباط في فرقة، وتمت الإشادة ببسالة وشجاعة وإقدام هذه الفرقة، ثم تمت ترقّيته إلى رتبة كولونيل، وبالرغم من كل هذا العنفوان في المعارك ولكن عللاً غامضة في جوفه بدأت تُورقه، أخذ يستوصف الأطباء الذين وصفوا له لعلاجها مسحوق الزئبق المخلوط بالطباشير، ولكنه لم يُرحه من آلامه التي كان يعتقد أنها تعود إلى معدته وكبدته، ولكن هذه الآلام كانت تنتقل في منطقة البطن، وقد حار الأطباء فوصف له بعضهم زيت الخروج، ووصف آخرون العلاج المائي، ولكن لا شيء من هذا يشعره بالراحة فقط الحرمان من الطعام هو المسكن الوحيد لعلته، فلم يعد يستطيع أن يأكل كما يهوى أو متى يهوى.

اشترى لنفسه منزلاً في شارع دي هيلدر بباريس يليق بالكولونيل، تحيطه حديقة جميلة تملؤها أشجار الكستناء العالية على الرغم من أنه لن يستطيع التغيب عن خدمته العسكرية طويلاً، فقد كان يحصل على إجازة لمدة أسبوعين أو ثلاثة كل عدة أشهر، كان يحاول فيها أن يعيش مُتَع بباريس بكل عنفوانها، هندامه كان مميّزًا، قمصانه من الحرير الهولندي، أما صدرته فتعلوها دائماً ماسة تتدلى منها سلسلة ذهبية أنيقة، الردينجوت الذي يرتديه كان من أفخر أنواع الأقمشة، حرص أيضاً أن يحجز مقصورة في كل مسارح باريس في تلك الفترات التي يتواجد فيها، أما عربته الخاصة فقد كانت بجوادين مطهمنين من أنقى السلالات الإنجليزية، ولكنه مع ذلك أصر أن يحصل على ثلاثة أحصنة من سلالة ذلك في الجواد الذي أهدها الشيخ الشرقاوي إلى بونابرت، وقد ساعده صداقته التي لم تنقطع مع رستم العبد الذي أهدها أيضاً الشيخ الشرقاوي إلى بونابرت، وكان له مثل ظله، اختار

فضل لنفسه أحد هذه الأحصنة ودربته تدريبًا مكثفًا ليكون جواده الحربي، أما الإثنان الآخران فعني أيضًا بتدريبهما جيدًا، فكان يراهن بهما في سباقات الخيل الباريسي في حلبة شون دي مارس وشاتوري، اشتهر الجوادان شهرة لم يكن قد نالها صاحبهما بعد فكانا دائمًا يكتسحان السباقات، ويحصدان الفوز، الحياة الباريسية كعادتها تجري في سباق مجنون مع الحفلات الموسيقية، والأوبرات، ورياضات الماء، وألعاب الورق، والرقص والحفلات والدردشة، والصالونات الذهبية التي كان القبول بها جواز مرور لعالم السلطة.

كان بهو منزل أنستازي دو تراي يعج بالمدعويين من نوابٍ ومصرفيين، ومن الباقين على قيد الحياة من طبقة النبلاء السابقة، رجال ونساء غير مفهوم انتماءاتهم، فهُم خليط عجيب من جمهوريين وساسة، وأرستقراطيين قدامى، وجميلات معظمهن أرامل فقدن أزواجهن على المقصلة، أو في ساحات القتال، وبعضهن كن عشيقاتٍ لنبلاء السلطة السابقة من ضباط وسياسيين وصحفيين ذوي مناصبٍ كبيرة، كل هؤلاء الذين لا يجمعهم شيء سوى بهو منزل أنستازي دو تراي وطين لكلمات رنانة متشابهة، لم يفهم فضل لماذا تمت دعوته إلى مثل هذا الصالون، وكيف عرفوا به وهو الآتي من بلاد القبط والخشونة، ومَن يكون هو حتى يكون أحد ضيوف أنستازي دو تراي.

لم يدرك أن أنستازي البارعة كانت تعرف ثمن الوقت، وتدرك أنها إذا أرادت ألا تكون جزءًا من ماضٍ مهمل فعليها ألا تخشى التسميات والألقاب الجديدة، فلكل زمن رجاله، ولكل الرجال عشيقات. لا يهم أي نوع من الرجال: رجال البلاط أم رجال الثورة، أم رجال الإمبراطورية؟ الغزل الذي أجادته في الماضي ستجيده في الحاضر والمستقبل، كان ذكاؤها الحاد يدرك أن المرأة هي ليست فقط تجسيدًا للترف واللذة، وإنما أيضًا تجسيد للنجاح والمال، وأن متعة الوصول إلى مخادع نساء البلاط لا تقل نشوة وانتصارًا عن متعة الوصول إلى فرساي.

كانت أنستازي كمثيالاتها من جميلات الصالونات، تغمر ضيوفها بكل صنوف الإغراء، جمالها كان شفيعًا لها أن تطلق بعض المزحات على الثورة ورجالها، ومهما كانت صلابتهم الثورية فإنها حتمًا كانت تخور أمام عذوبة أنستازي دو تراي والتي جعلت لها نفوذًا عميقًا، ولكنه خفي لا يدرك حجمه إلا مَن يدرك سحر أنوثتها الطاغية. وراء أبواب تلك الصالونات كانت كلمة سيد عادت

للظهور، والمخاطبة بصيغة المفرد تعتبر غير لائقة وغير مقبولة.
وقتها، وجد فضل اسمه مسجلاً في قائمة الراقصين معها المكتوبة على
مروحتها، جاء دوره أثناء رقصهما الفالس قالت له بسرعة:
- أدعوك للبقاء قليلاً بعد انصراف الضيوف.
لم يكن فضل يعلم ماذا تريد أنستازي، ولكن ما إن أنصرف الضيوف حتى
صبت لي قدحاً من النبيذ.

عاش فضل كل هذه الحياة بصخبها الواضح دون أن ينغمس فيها فكما
عافت معدته الطعام فقد عافت نفسه النساء وكان ظهور أي امرأة في حياته
يذكره بجسده الدنس ويستدعى ذلك الصوت الذي حاول أن يخرسه ولم
يفلح.

(٢)

لا أعلم لماذا صمْتُ وقتها، ولماذا قَبِلت هذه الأمانة بدون تفكير، هل كان
هذا لوقوع المفاجأة؟ أم أنه حب شديد للوسيان؟ ولكني الآن أشعر بالغم، لا
توجد مَسرة والدنيا تبدو ظلامًا، فعندما أحاول النوم لا أجد النوم، وجدتني
أقوم وأناجي المسيح بدموع أكثر غزارة، فعندما عزمت على الرحيل التجأت
إلى وجه الله، وبكيت أمامه بدموع الاضطراب شهراً كاملاً بعد وصولي إلى
مرسيليا، ثلاثون يوماً. كنت أسهر مسبّحاً بالتسبيحة التي حفظتها عن ظهر
قلب دائماً وحين يأتي زمن الميلاد كنت أرتل التسبيحة الكيهكية كل ليلة، تارة
أسبّح بالعربي، وتارة بالقبطي، طول الليل، وعندما كنت أتعب أجلس، وأظل
أسبّح وأهلل لله وأفرح، حتى أدخل في حالة من الهذيان الروحي، لا يشغلني
شيء عن صلواتي، ولكني الآن أشعر بالغم، بعبءٍ ثقيلٍ على قلبي، إذا عاد
لوسيان فسأعطيه قلبه المسروق، توالى الأسئلة عليّ، إذا لم يعد، ماذا أفعل
بهذا القلب؟

أشعر بحاجتي لمساندة الله أكثر من أي وقت مضى، أخذت أسكب نفسي
سكباً أمامه، وأقوم الليل أناجيه بالميطانيات، كنت أضرب عشرات
الميطانيات مردداً يا ربّ - يسوع المسيح - ارحمني. فطيب المسيح خاطري
وعزاني حتى كفت دموعي، وحدثني مطمئناً، قررت أخيراً أن أفتح ورشتي
الخاصة والتي ازدهرت بسرعة خيالية، ليس فقط في سان أنطوان، ولكن
في باريس كلها، أصبحت مشهورة باسم ورشة القبطي، أصبح نابليون

إمبراطورًا، ورجع الذوق العام إلى الكلاسيكية والفخامة، وأراد المُلَّاك الجدد أن يُؤثِّثوا بيوتهم على غرار سابقهم.

وعلى الرغم من هذا النجاح، لكنه أبدًا لم يشغلني عن الصلاة، فكنت مثل نحما في العهد القديم، بيدٍ واحدة أعمل العمل، وبالأخرى أمسك السلاح، وسلاحي هو صلاتي، شعرت أن يد المسيح معي تدفني وتعطيني القوة للبحث والفهم، فأصبح الليل بالنسبة لي هو حياتي الحقيقية، كنت أنظف اللبنة وأشعلها وأقرأ إصحاحاتٍ كثيرة في الإنجيل، حتى بلغت خمسين إصحاحًا في الليلة الواحدة، وأكتب وأقيد الإصحاحات التي قرأتها، وعندما ينفد النفط أعمرها مرة أخرى وأكمل في الصلاة والقراءة، وعندما يأتي الأحد وأشتاق إلى إحساس المتوحد بالكنيسة، كنت في كل يوم أحد أتذكر كنيسةً بعينها فأعيش في وسط شعبها، وكم كنت أسمع الألحان والمردات، وأصلي وأسجد بحرارةٍ من أجلها.

لم يعد لوسيان، ولكن عاد التقويم القديم كما عادت فرنسا إلى دينها الأصلي، دين المسيح، لم يتمكن الدين الثوري دين الاحتفالات العشارية من أن يحل محل المقدسات التي كانت مسيطرة بعمق على أحاسيس فئات شعبية بأكملها، شيء ما بداخلي يدفعني إلى البحث عن هذا الأب اللامتسرول، ربما لأعطيه القلب وأتخلص من تلك المسؤولية، أشياء كثيرة تغيرت، وكثيرون تغيرت قناعاتهم، كثيرون ممن آمنوا بالثورة كفروا بها، وآخرون ممن كانوا معادين للكهنوت رجعوا إلى إيمانهم ورحبوا بالاتفاق الذي عقده بابا كنيسة روميه بيوس السابع مع نابليون، حتى الكنائس التي بعد الثورة مباشرة وضعت لافتاتٍ تحمل اسمها الجديد «معابد المنطق»، تخلت عن هذا المنطق، وعادت إلى منطقتها القديم، إلى أسمائها القديمة كنيسة توماس الأكويني نوتردام أو إيفري لابتي، ربما عاد هو الآخر، كل ما أتذكره أنه كان كاهنًا في كنيسة سان ميشيل.

ولكن ليس معقولًا أن أذهب للبحث الآن في كنيسة سان ميشيل عن كاهنٍ لا أعرف اسمه بعد كل هذه السنوات، كل ما أعرفه عنه أنه اشتهر باسم الأب اللامتسرول، هل حقًا أريد أن أعطيه القلب؟ أم أنني أبحث عن ذلك الذي لا أعرفه ويقولون إنه يشبهني ويربطني به سر قلب؟

مرت سنوات، ومع الوقت قلَّ فزعي من هذا القلب، واستأنست بوجوده، أحيانًا كنت أتساءل: مَنْ يكون صاحب هذا القلب الذي أصبح شريك في

غربتني؟ رَسمت تصوراتٍ كثيرة عن صاحب القلب الذي مع الوقت أَلِفته، تخيلته مناضلاً ثوريًّا، تخيلته كاهنًا ورعًا تقيًّا تخيلته فتاة جميلة، كفتُّ عن تسميته القلب المسروق، وأطلقت عليه لقبًا آخر، هو «قلب الحرية».

كنت أشعر أن وجود القلب هو اختبار صعب لي، اختبار من الله لا أفهم رسالته، أسئلة كثيرة بداخلي.

هل تركت بلدي لأصبح حارسًا لقلب بشري منزوع من جسد، موضوع في علبة من الكريستال ومسروق؟ مَنْ هُمْ أعداء الحرية الذين ينبغي عليَّ أن أحرص ألا يقع القلب في أيديهم؟

ولكن السؤال الأصعب كان: كيف كانت الكرازة بالإنجيل ناقصة كما قال هذا الأب اللامتسرول؟

بدأت رحلة بحثي في كتابات الآباء وتعاليم الكنيسة الجامعة، لأجد تفسيرًا للجملة التي قالها الأب اللامتسرول، هل كان يقصد ما قاله بولس إن كرازتنا ناقصة؛ لأننا فقط نركز بالألم وليس القيامة منه، فتركنا انطباعًا الدين ليس إلا مسكَّنًا لآلام الشعب؟ هل ما فعله هذا الأب وكهنة الدوفينا عندما ثاروا على الظلم وضد أمراء الكنيسة، وانضموا إلى الشعب كانت كرازة بالقيامة من الألم؟

حسب الكتب المقدسة التي هي أنفاس الله، جاء المسيح مغيَّرًا متمرِّدًا على الأوضاع السائدة، فكم من الولايات صَبَّها على قادة اليهود. ألم يمسك السوط وهو الرحيم الوديع الذي قيل عنه لا يسمع أحد صوته في الشوارع، لكي يطرد الباعة ويغير الوضع الخاطيء السائد؟ لكن هل يجب علينا أن نمسك السوط نحن أيضًا لنبطش بالطغاة؟ أنا في حيرة، لكنني متأكد أنه على الأقل إن لم نمسك السوط الحقيقي، فيجب ألا نسكت على الظلم، لقد دفع المسيح حياته على الصليب فداءً لنا، وبسبب أنه قال الحق في زمن ساد فيه الظلم، يجب أن نمسك بسوط الكلمة معلنين أنه بعد الصليب قيامة، وبعد الألم والمعاناة انتصار.. ومع ذلك أندھش ألسنا نصلي في القداس «كما كان هكذا يكون من جيل إلى جيل». فكما تجسدت الكلمة من مئات السنين ليسند المنسحقين، فما هي الكلمة الآن تتجسد في نضال أولئك المنبوذين في كل شيء. كما تجسد الحق لينير ظلمة العالم منذ مئات السنين، فما هو الآن يتجسد في أولئك المرفوضين لينير بعدُ ظلام الشر وفساد محبة المال وشهوة السلطة، وسنكون شركاء في الظلم والمظالم التي ترتكب ما لم

نعلن صراحةً إدانتنا له.

آه يا رب؛ إن عقلي مليء بالأسئلة، وقلبي متحير ما معنى الإيمان في حياةٍ تلتزم بالنضال ضد الظلم والاغتراب؟ كيف يمكن الربط بين صنع سلامٍ عادلٍ

بين المجتمع الزمني وملكوت الله الأبدي؟

شعرت أن يد الله تدفعني أن أكتب وجدتني أعود إلى كتابه مدوناتٍ كما كنت أفعل في البداية باللغة القبطية وكانت المدونة هذه المرة عن هذا الشباب الثائر في فيورسان ميشيل عن اللامتسرولين، عن الكهنة الذين ثاروا ضد الظلم باسم الكنيسة، عن أم لوسيان التي ماتت وهي تبحث عن كسره خبز، عن لوسيان الذي ذهب إلى الحرب، عن باريس هذه المدينة التي سعت إلى كل ما كنت أحلم به ولم أكن أدركه تمامًا، عندما تمردت وسافرت مع يعقوب، باريس التي جددت روحها وذهنها وانتفضت ضد كل ظلم وكأن باريس تكتب ميطانية الإنسانية، فكانت مدونتي «ميطانية باريس».

كانت الساعة تدق الحادية عشرة والربع في فال دو جراس، عندما دخل السكرتير إلى مكتب منصور حين ليبلغه أنه الكونتيسة دو بورجون تطلب مقابلته.

لم يكن منصور حين قد قابل مدام دو بورجون من قبل، ولكنه كان يعرف الكولونيل رينيه دو بورجون، والذي مات مؤخرًا في واجرام.

سمح منصور لها بالدخول، كان يتوقع مسبقًا أنها جاءت لتبحث أمر حسابها ومعاشها كأرملة كولونيل لقي حتفه في معركة، كان ذلك يتم من خلال مكاتب الحرية والتي تعين بها منصور حين عند قدومه مع العائدين من مصر. دخلت مدام دو بورجون ترتدي فستانًا منتوا بلون الخوخ، تزينه نقوش خفيفة من خيوط الذهب والفضة، سيدة حسناء مسبوكة القوام، تفوح بمزيج مختلف نافذ من رائحة بارفان مع نبيذ فرنسي، في لحظة هيبّ له أن رائحة الجنة والبرتقال تغمر المكان، وعلى الرغم من التل الذي يغطي وجهها، لكن سمار بشرة غير معتاد يطل من خلف عقد لؤلؤ يحيط برقبتها.

أدركت مدام دو بورجون بمجرد دخولها غرفة الإداري في مكتب الحرية، والذي يرتدي بدلة مصنوعة من المخمل الحريري، أن هذا الرجل الجنوبي بعينه السوداوين الواسعتين، وهذه الرموش الكثيفة، وهذا الشعر الفاحم بتجعيده الخفيفة المنسقة، وهذا الشارب الكثيف والمهذب بعناية على الطريقة الفرنسية، من هناك القريب إلى القلب البعيد عن العين، هناك الذي تكالب على ذاكرتها في ثوانٍ معدودة.. بولاق، ميدان الخرق، الأربكية، بين السوريين، قهوة عبده المالطي المعتوق.

سمح لها بالجلوس، شيء ما جعلها ترتبك بالنظر إليه، إحساس غريب تملكها تجاهه، هل هو الحنين إلى هناك؟

رحب بها منصور، بدأ حديثه معها بلطفٍ يليق بالحديث مع امرأة جميلة، أرملة كولونيل، ولكن الحقيقة أن تلك الرائحة أربكته، حاول أن يطرد هذه الرائحة التي جعلته منجذبًا لامرأة لم يرَ بعدُ وجهها:

الكولونيل رينيه كان شخصًا رائعًا، تعازي لك.

قررت أن تتأكد من حدسها، قالت عمدًا بفرنسيتها ذات اللكنة:

- الإجراءات في مكتب الحرية صعبة ومعقدة، صعبة على سيده مثلي لم

تأتِ إلى فرنسا إلا من عدة أعوام، وأهلي جميعًا في مصر.
لمعت عينا منصور بومضة وبريق هائلين، انطلق لسانه يسألها باللغة
العربية:

- أنتِ مصرية؟

ضحكت ضحكة المنتصر، فقد صدقَ توقعها، ولكنها مثلت الدهشة، وردت
أيضًا باللغة العربية:

- أنت مصري؟

فكر منصور لثوانٍ وقرر استعادة توازنه قائلاً بالفرنسية:
- فعلاً الإجراءات صعبة ومعقدة، ولكن لا تقلقي مدام دو بوجون، سأتابع
أوراق المعاش، هذا أقل شيء يمكن أن أقدمه لمصرية مثلي في هذه
الظروف.

كان بداخل منصور لهفة للحديث معها، كل شيء فيها حميم، عيناها
السوداوان، بشرتها الخمرية المسكرة، شعرها الأسود الذي يكشف عن امرأة
فكت جدائلها لتوّها.

شعرت هي أيضًا بهذا الدف، والاهتمام، كانت تود أن تطيل معه الحديث
ولكن اللياقة لم تكن تسمح بأن تبقى وقتًا أكثر من هذا، لذا أجابته شاكرة:
- شكرًا لهذا الاهتمام مسيو..

- منصور... منصور حنين.

- شكرًا لك مسيو منصور، ولكن كيف أتابع الأمر؟

- في البداية أعطني جميع الأوراق المتعلقة بالمعاش، وبإمكانك أن تتركي
لي عنوانك، وسأمر عليك حتى لا تتعبني نفسك بالمجيء إلى هنا مرة أخرى،
إذا كنت لا تمانعين.

كان منصور رجلاً في منتصف الأربعينات من عمره، يملك من الوسامة
والمعرفة التي تطبع على الرجال هيبة تجعله مصدر ثقة ومحل احترام، كما
أنه كان أيضًا من الذكاء أن يدرك أن عرضه لن يقابل بالرفض، فقد سمع في
صوت مدام دو بوجون الهادئ أنفاس امرأة تحاول أن تخفي رجفة لمست
داخلها.

ابتسمت قائلة:

- بكل سرور مسيو منصور، وشكرًا مقدمًا لمجهودك واهتمامك، ٢٠ شارع

سان دومينيك.

قام منصور من كرسيه ليودعها إلى باب المكتب:
- إلى اللقاء مدام دو بوجون.
نظرت إليه قائلة:
- اسمي زهرة.. إلى اللقاء مسيو منصور.

(٤)

بدأ الكولونيل فضل يتبوأ مكاتته بعد أن انتبهت القيادة لقدرته الهائلة على التخطيط، والتي ظهرت في معركتين من أهم معارك الجيش العظيم، فقامت القيادة بضمّه إلى لجنة أنشئت خصيصًا بغرض تطوير أسلوب القتال خارج أوروبا، كانت قدرته على تحديث العقائد العسكرية هائلة، وكان من المتحمسين لاستخدام النظام المنضم في الجيش النابليوني، فقد كان استخدام الخطوط الأولى للمقاتلين مهمًا جدًّا، لأن سلوك القطعات مرتبط بصورة رئيسية في معظم الأوقات بأثر الصدمة الأولى، وكان السؤال المطروح هل ينبغي أن يستخدم الصف الأول والثاني البنادق؟ أم من المفضل أن يخفف حملهما ويزوِّدا برماح تقليدية؟ أما السؤال الثاني فكيف يمكن تدخل المقاتلين المزودين بالبنادق من خلف هذين الصفيين الأولين؟

بدأ الحلم القديم يراودني مرة أخرى، بانضمامي إلى هذه اللجنة، الحلم الذي أتيت من أجله منذ سنوات وفقدته، أو تظاهرت بفقده، هل من الممكن من خلال عملي في تلك اللجنة أن أحرك الأمور وأثير الانتباه لأعود إلى محبوبة مرت سنوات لا أعرف عنها شيئًا، ولم أحاول أن أسأل عنها وعن أخبارها. كان من الممكن، ولكنني خفت.. جئت للمرة المائة، خفت أن أعرف أنها ماتت، لا بد أن تبقى محبوبة، لا يقبل عقلي أي احتمال آخر، لا بد أن تبقى حتى أعود، سأعود حتمًا كما وعدتها وستبقى حتمًا في انتظاري. وأنا عائد على رأس حملة يقودها الكولونيل القبطي فضل الله الزيات، ولم لا؟

الجسد يتبع الرأس، كنا جسدًا لنابليون نتبعه لتحقيق حلمه، ألا يمكن أن تنقلب الصورة فأكون أنا الرأس التي تدبر وتقود جيوش نابليون لتحقيق حلمها؟ نعم، أعلم أن الأمر ليس بهذه السهولة، ولكن الحياة علّمتني أنه لا يوجد مستحيل، ألم يكن نابليون نفسه من كورسيكا التي احتلتها الجيوش الفرنسية؟ وكان والده في البداية ضمن الوطنيين الذين قاوموا الاحتلال الفرنسي؟ ألم يصبح هذا الفتى المهزومة مدينته إمبراطورًا لتلك الدولة التي

احتلتها يومًا ما، وقائدًا لأكبر جيوش العالم؟ ألم يكن نابليون هذا الطفل الذي يسخر منه زملاؤه لفرنسيته الضعيفة ولهجته القروية، حتى اسمه كانوا ينطقونه إمعانًا في السخرية منه، بطريقة تعني صاحب القشة على أنفه؟ كم هي عجيبة تلك المفارقة! كان الأطفال يسخرون من اسمه كما كنت أنا «نخلة» الذي يسخر منه الأطفال عندما نزحْتُ من الصعيد إلى القاهرة قائلين مستهزئين: الصعيد أرسل لنا نخلة، وربما في الغد يرسل لنا شجرة. كان هو قشة، كما كنت أنا نخلة.

لم أعد هذا الشاب الصغير الذي قفز في المركب هربًا من «اشمل يا نصراني»، تعلمت الكثير، وأصبحت قريبًا جدًّا من هؤلاء الذين يقررون المصائر، فابيان ودرسه الأول الذي فهمته جيدًا: «السياسة هي رجم الحرب». هم يريدون القضاء على الدولة العثمانية، وأنا أريد استقلال مصر من الدولة العثمانية، سأتحين تلك اللحظة التي ستتوافق فيها مصالحهم مع ما أريد، أو بمعنى أدق سأحاول خلق تلك الفرصة التي ستجعل المصالح متوافقة مع ما أريد، أعلم أن أكون من أصحاب القرار ليس أمرًا سهلًا، وعلى الرغم من مبادئ المساواة التي أعلنتها الجمهورية لكنى لست متأكدًا: هل ستقف البشرة السمرَاء، واللكنة الفرنسية المعجونة بالعربية، حائلًا أن أكون من رجال الصف الأول؟ فلا القرارات، ولا الأفكار العظيمة تغير النفوس جذريًا ومرة واحدة، وهل سيقبل الجمهوريون النبلاء، سواء من كانوا حقًا من أبناء النبلاء أو أبناء من تمنوا أن يكونوا نبلاء؟ وعندما حانت لهم الفرصة ليحكموا تحوّلوا إلى صورة معكوسة في مرآة من حياة النبلاء الذين ثاروا ضدهم، صورة تمارس كل ما كانت تفعله هذه الطبقة ولكن تحت اسم آخر وشعار آخر: هل هؤلاء أن يقبلوا بسهولة أن يدير عالمهم ويقود جيوشهم قبطني أسمر؟

لم أتوقع أن تعاود أنستازي دعوتي إلى العشاء مع مرور هذه السنوات، فبعد تلك الليلة لم أذهب إلى هناك مرة أخرى، لم ألبِ دعوتها لي والتي كررتها عدة مرات، ثم توقفت هي عن دعوتي، أعتقد أنها لم تستطع استيعاب أن يرفضها رجل تشتهييه بعد أن فتحت له كل مكانها لم تكن تعلم وهي من أجمل نساء باريس، وتمتلك قدرة هائلة على إشعال المكان الذي تتواجد فيه، أننى عفْتُ النساء بعد ما حدث بيني وبين فرانسواز، كما أن هذا النوع من النساء لم يجذبني أبدًا.

أما هي فلم تفهم طبعًا أن هذا الحماس والبريق اللذين يشعان دائمًا من عينيه، لدرجة تصور لمن يراها أنه جنوح، لم يكونا سوى مزيج معقد من الصوفية والطموح، والعاطفة الرقيقة.

مضت سنوات ليست بالكثيرة، وكانت الدعوة هذه المرة مختلفة.
«أتمنى ألا ترفض دعوتي إلى العشاء هذه المرة، فإنني أريد أن أتحدث معك في شأنٍ يخصك ويخص بلادك».. هذا ما احتوته الدعوة.

هذه المرة لم أرفض دعوتها، فقد أربكتني تلك الدعوة، ما هي علاقة أنستازي دو تراي ببلادى؟ أخذ الخوف يملكني بشدة، ولكنني كنت أحاول طمأنة نفسي، فقد انقطعت صلتي ببلادى، لا أتواصل مع أحد، ولا أسعى لمقابلة أحد، ولا أرتب أي شيء، لم يتبق لى إلا حلم أممي نفسي يومًا ما سأكون في المكان الذي يسمح لى بتحقيقه، وجاءني خاطر مرعب، هل يعرفون كل شيء لهذه الدرجة؟ حتى الأحلام؟

وعلى الرغم من مرور سنوات لم تكف أنستازي عن محاولة استخدام أنوثتها اللاذعة والتي تدغدغ لبَّ أي رجلٍ، حتى تستطيع جذبني إلى نفوذ سحرها.. بينما أنا كنت مشدودًا متوترًا في حالة انتظارٍ طالت قليلًا، في محاولات اللطف التي أبدتها لي والتي كنت أود أن أقطعها لأعرف ما الموضوع، ولكن اللياقة بالطبع جعلتني أصبر حتى سألتني:

- هل تعلم من هو عمر أفندي؟
نمر أفندي.. أفندي، هذا اللقب التركي الذي لم أسمعته منذ أن غادرث مصر.

استكملت كلامها:

- سأطلعك على وثيقة مهمة وأعدك إذا ساعدتني في معرفة من هو نمر أفندي، فإننا بالتأكيد لن ننسى لك هذا.

من نمر أفندي بالنيابة عن الوفد المصري للقنصل الأول بونابرت..
إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية، من الوفد المصري الكثير من الحب له

محجر مرسيليا في أول فنديمير (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر ١٢١٦.
في أيام العالم الأولى في تلك العصور البعيدة المجهولة، عندما كانت فرنسا لا تختلف كثيرًا عما صورته الطبيعة ولا يظهر منها للناظر إلا جليد وغابات، كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقي دروس العلم والعرفان على متشرعي

الإغريق، ثم دار الفلك دورته، وشاء القدر أن يفد مصر في اليوم الحاضر أحفاد معلمي الحضارة بالأمس إلى فرنسا وهي تحت حكمكم الخالد الذكر، ليدرسوا أنظمةً يحبونها، ويتعرفوا ما اهتدت إليه من وسائل لا عهد لغيرها من الأمم بها، تلك الوسائل التي مكّنت جمهورية ناشئة من صيانة ما كسبته في ميدان الحرب بما استحدثته من نظمٍ سياسية جديدة.. وكما أن صولون حين عودته من مصر شرع للإغريق، كذلك الوفد المصري الذي فوّضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيضع لمصر ما ترضاه لها من نظمٍ عندما يعود إليها من فرنسا.

يكون هذا - أيها القنصل الأول - إذا تنزلت من أجل مجدك ولنفع الجمهورية السياسي، فمددت يد المساعدة للمصريين البؤساء الذين حطمت في الماضي أغلالهم، والذين عادوا ينوءون بها من جديد، وأحسنّت استقبال وكلائهم في باريس. وفي العاصمة سيكون استقبالنا حفاً شرقياً يحدد ذكرى فتحٍ عظيمٍ نلته ثم فقدته. ولا بدّ أن تحس إحساساً شديداً بألم ما فقدت، فأمر في معاهدات الصلح العام أن تكون مصر مستقلة تعوض عليك خسارتك مائة مرة. هذه هي أمانينا، وهذا ما أخذنا على أنفسنا ميثاقاً به.

عن الوفد المصري

وكيله

نمر أفندي

أي وفد تتكلم عنه أنستازي؟ ومن نمر أفندي هذا؟ الرسالة مؤرخة أول فنديمير، أي بعد وصولنا ميناء مرسيليا بستة أيام. لم يكن معنا على ما أتذكر أي شخص بهذا الاسم وهذا اللقب ولا أعتقد أن أيّاً ممن هاجروا إلى فرنسا كان أفندياً، وربما يكون هناك بعض الأفندية ولكن من المؤكد لم يوجد بينهم أي نمر.

كنت حذراً جدّاً في ردي على أنستازي، فمن المؤكد أن هذه الرسالة تعني شيئاً، وبالتأكيد هذا الشيء لا يهم أنستازي دو تراي، فقط وإنما يهم أطرافاً أخرى أطلعتها على الرسالة لتصل إلى شيء له أبعاد سياسية وربما حربية لا أفهمها.

- العزيزة أنستازي، لا أتذكر أنني سمعت هذا الاسم من قبل، ولكنني أعدك أنني سأبذل كل ما في وسعي لتلبية طلبك.

كانت الذاكرة تحاول أن تعمل بأقصى طاقتها، لمحاوله تذكّر من كانوا على

الباخرة، كنت شبه متأكد أنه لا يوجد شخص بهذا الاسم، بالطبع أنا أعلم أنني لا أعرف المهاجرين جميعًا، ولكنني متأكد أن هذا الاسم غير الشائع إن كان قد وجد فسيكون معروفًا.

كنت أفكر كيف أصل إلى هذا الشخص، وما الداعي الآن للبحث عن شخص كتبَ مخاطبةً للقنصل الأول بونابرت بعد مرور عشر سنوات؟
«السياسة هي رجم الحرب».. كلمات فاييان التي لا تفارقني.
أما السؤال الأهم فهو، أي وفدٍ مصري وكّل عمر أفندي هذا للحديث باسمه؟

تبددت مشاعر الخوف لديّ، لمعت عيناى مبتسمًا.

وفد مصرى يسعى لاستقلال مصر.

حقًا.. نمر.. أفندي.

قررت أن أهدئ وألا أبادر بالأسئلة حتى لا تكشف قلقي، فمن المؤكد أن ما قالته اليوم أنستازي ليس إلا مجرد تمهيد لا تنتظر من ورائه أي نتيجة، ولا بدّ أنها ستعاود الاتصال بي مرة ثانية لتفصح لي أكثر عن هذا الموضوع، وماذا تريد بالضبط، ولكن يبدو أنها لاحظت هذا الهدوء، فاجأتني عند انصرافي قائلة:
- إنها ليست الرسالة الوحيدة، هناك أيضًا مخاطبات مع الإنجليز.

(0)

كنت أعلم جيدًا، بعد تلك الليلة الصاخبة مع فضل، أنه لن يعاود الاتصال بي، ليس من منطلق خبرة امرأة محنكة في عالم الرجال، فلا اعتقد أبدًا أنني من هؤلاء النساء، فلم يدخل فراشي قبل فضل سوى رجل واحد هو زوجي نيكولا، ولكن من خبرة امرأة تعرف الإيمان رأت في هذا الرجل اليكر وشمّ الصليب على عقله وروحه، وليس على يديه فقط.. لقد كنت في البداية أشبه فضل وأخذت مني الرحلة سنوات حتى أقوى على التمرد على ما قد تلقيته من تدريب ديني مكثف، سنوات حتى أستطيع أن أتخلص من هذا الإحساس المسبق بالذنب وأنا أفعل أي شيء، سنوات حتى أستطيع أخلع ملابسى أمام فضل، بكل هذه الجرأة وأطلق لساني يتكلم ويفصح عما أريد بكل حرية.

كنت في الرابعة عشرة عندما بدأت أقرأ، وقتها اكتشف معلّمي في الكنيسة الأفكار التي بدأت أتحدث عنها، حجبَ عني الكتب وعاقبني بحرمانى من تناول إن لم أتب عن هذه الأفكار، كنت طفلة، خفتُ من الحرمان من

الخلاص الذي وعد به يسوع رعاياه، كانت ليالي مرعبة عشتها خائفة من أفكاري، انتشلني الكونت دو لاموت، خلصني، ليس فقط من الفقر، ولكن من هذا العالم المحدود داخل النصوص المحفوفة بمخاطر الخوف من الخطيئة، لم تمضِ إلا عدة أعوام رأيت بعيني الجموع يعلقون الكنائس ويقتلون الآباء، هذا الأب الذي حرمني من النوم هادئة ليالي، وأمسك عني محبة المسيح، لا أعلم عنه شيئاً، ربما قُتِل أو هو الآن مطارد أو سجين، لم أشعر بأي تعاطفٍ تجاهه، ربما لو لم يكن نهرني، ربما لو كان سمح لأفكاري أن تعبر عما يراودني من شكوك؛ لكنت تعاطفت معه، هذا الفرع الذي يعيشه هو اليوم لا يقل عن فزعي في صباي، عندما هددني بالخروج من رحمة المسيح، شيء ما بداخلي، شعور مزيج من الانتقام والتشفي أو كما يقول الناس بشكل أكثر كياسة حتى يبعدوا عن أنفسهم شبه النفوس الشريرة، ويرتدون ثوب الكمال: إن ما حل به كان عقاب السماء، ولكن نفس الجموع الذين قتلوا السجناء قتلوا المخلص أيضاً..

كل ما كان مسلمًا من قبل لا يجوز المساس بها، تغير؛ فلا الملك ظل ملكًا، ولا الكنيسة بقيت كما هي، أصبحت معابد لرب آخر اسمه المنطق، إنها الثورة!

ولكن النفوس التي اعتادت الإيمان لا تستطيع التخلص منه، ربما تثور على شيء ما أو تعترض على شكل الإيمان أو طقوسه، ولكنها من المؤكد سوف تبحث عن إيمان آخر، خرجت مع الجموع في العشرين من بريرال السنة الثانية من الجمهورية ٨ يونيو ١٧٩٤ في المهرجان الذي أقيم في ميدان شون دي مارس، لنتحتفل بميلاد الديانة الجديدة «الفضيلة».

كان روبسبير يلقي حُطْبَتَه بحماسٍ ووهج:

- «الكائن الأسمى لم يَخْلُق الملوِّك ليأكلوا لحم الإنسانية، ولا خَلَق الكهنة ليسرجونا كالحيوانات الشرسة في عربة الملوِّك، ولا ليعطوا للعالم نماذج للوضاعة والخيانة والجبن والفجور والزيف، ولكنه خَلَق الكون للإعلان عن قوته، خَلَق الإنسان ليساعد المرء أخاه، ليحب الناس بعضهم البعض، للوصول للسعادة بطريق الفضيلة».

وعلى الرغم من الجُمَل البراقة المؤثرة لم أصدق روبسبير، كانت هناك تساؤلات كثيرة في نفسي، لماذا اختار روبسبير اليوم الخمسين بالتحديد عيد العنصرة ليعلن ميلاد دينه الجديد؟ هل هي رسالة خفية يداعب بها المؤمنين

الغاضبين مثلي من آبائهم وكنيستهم، يقول لهم بها إن الروح القدس ستحل به كما حلت بالرسل؟

على أية حال لم تجد ديانة الكائن الأسمى «الفضيلة» حظها من النجاح، فقد اعتبر خصومُه السياسيون أنها لعبة سياسي بارع يتجه إلى الديكتاتورية، وأن فكرة الإله الأعلى ما هي إلا خطوة صنعها لنفسه ليكون هو كاهنه الأعلى، بينما آمن البعض أن روبسبير هو تجسيد شاؤول وفقاً لنبوءة العهد القديم التي تقول: إن هناك نبياً اسمه شاؤول سيأتي لينقذ البشرية من ضياعها. مات روبسبير.. وماتت ديانته.

واكتشفتُ أنه لا توجد حقيقة مؤكدة، أدركت أننا نتبدل بتغير ما نملاً به نفوسنا وعقولنا من أفكار أو على الأصح ما يملون به نفوسنا وعقولنا، ما لقنوني به في الدير والكنيسة جعلني فرانسواز أخرى غير تلك عاشت ولدت شبه يتيمة لأبٍ تاجرٍ مغدور به مع جدّتها العجوز الفقيرة التي تجمع العنب تارة، وتصنع الجبن تارة في قرى أفينيون، تنظر إلى البحر الذي أخذ ابتثها الوحيدة وزوجها وحفيدتها الكبرى، تتحدث معه، تناجيه. وهي تنتظر عودة المراكب التي لا تعود، جدّتي التي ملأنتني بالأساطير والأحلام وانتظار المستحيل، أدركت أننا نعيش في عالم أجوف بنى تاريخه وقوانينه ومزايه وعقابه، حتى جواز مروره لعالم ما بعد الموت، على تسميات أوهمنا أنها مسلّمات، وفي لحظة تمرّدٍ عليها أنكرها، وفي لحظة أخرى ارتد لها وجدّد ولاءه بدون أي وجل، وكل مرة يطالبنا أن ننصاع لاختيارته لنا، ويجب عليّ أن أقبل أن أكون فرانسواز ابنة الدير، ثم فرانسواز زوجة الكونت، ثم فرانسواز الثورية التي تتبرأ من ابنة الدير وزوجة الكونت، قررت أن أرفض كل ما تلقنته من قبل وأخلق لنفسني قاموسي الجديد، وأن أبحث عن معنای الخاص للفضيلة، حتى لو في أحضان الفارس القبطي.

لم تفهمنى جين ولم تفهم أبداً لماذا لم أحاول أنا الاتصال بفضل مرة أخرى؟

في ٢٠ سان دومينيك كان اللقاء الأول، بينما كنت أصعد سلالم الدرج إلى بيت مدام دو بورجون، كنت أعلم أنني أصعد إلى امرأة لن تكون عابرة في حياتي، الرجال يشعرون ويعرفون قَدْر كل امرأة بالنسبة لهم قبل أن يبدؤوا أي شيء، تكون المسألة واضحة، فتلك سيدة أعجبت لفتنتها، وتلك أعجبه فيها جسدها، وأخرى أعجبت مكائنها، وغيرها أعجبت لأنه يرى فيها شيئاً يريد اكتشافه، فتكون الرحلة بالنسبة له فقط رحلة اكتشافٍ تنتهي بمجرد الاكتشاف.

هذه المرة، أعرف أنني أصعد إلى قمة اللاعودة.

استضافتني زهرة مرَّحبة بلطف كانت مرتدية فستاناً بسيطاً فضفاضاً، لا يشبه الملابس الفرنسية، شَعرها مجدول صغيرتين، تمرح كل منهما على أحد كتفيها، تقفزان من الأمام للخلف بمرونة طفلٍ في نشوة اللعب. ابتسمت حين رأيتها قائلاً:

- حلوة الضفائر، تشبه ضفائر أمي.

- أجب الضفائر، ولا أستطيع أن أصف شَعري بهذه الطريقة في المجتمعات الفرنسية، ولكنني في البيت أجدها.

لاحظت إنني لأول مره أنتبه لتلك الأشياء وهذه التفاصيل.

- تخيلي لم أفكر أبداً في مسألة الضفائر، وبالرغم من أنها جميلة، جذابة، ربما لم ألحظ جمالها قط من شدة الاعتقاد، فالنساء في بلادنا لا يصفن شَعرن بطريقة أخرى، عاشت أمي وكبرت وماتت ولم تغير ضفائرها، تخيلي فقط الآن انتبهت، لم أرها أبداً وقد حلت ضفائرها.

ضحكت زهرة ربما على سذاجتي قائلة:

- لم تكن زوجها حتى ترى ضفائرها محلولة.

سكنت قليلاً، بدأنا حديثاً مفعماً بالشغف عن أي شيء وكل شيء، سألتها كيف تزوجت رينيه، كنت قد فهمت بالتأكيد أنها عرفت في مصر وتزوجته في مصر أثناء الحملة وأنا أيضاً أعرفه من مصر.

- أنا ابنة الشيخ محمد العطيبي، ضرب الفرنسيون بولاق واحترقت وقتها بالكامل، أخذني الصابط رينيه، وقتها كان الخوف هو كل ما أملك، الخوف من

العدو، الخوف من الرجل، الخوف من الله، الخوف على أهلي، الخوف من أهلي، الخوف من كل شيء وعلى كل شيء.

- ولكن هل تزوجته خوفًا؟

- لا، لم يؤذني رينيه، بالعكس حافظ عليّ ولم يجرحني، عاملني بمتنهي الود واللفظ، وسلّمني للشيخ الدمهوري الذي كان صديقَه، وكان رينيه دائم الزيارة له ولكثير من المشايخ أصدقاء والدي رحمه الله وفي ذات ليلة فاجأني الشيخ الدمهوري بأن رينيه طلبني للزواج، كان يبلغني الخبر وهو سعيد وفرح بهذا العرض، لا أعرف لماذا تزوجته، ربما شعورًا بالأسى والخوف من المستقبل، ولكن من المؤكد أنني لم أحبه بالقدر الذي أحبني هو به. صمتت قليلًا ثم أكملت:

- في الحقيقة لم أكن أفهم هؤلاء المشايخ الذين وضعوا يدهم في يد النصارى.

شعر منصور بغصة في حلقه، حاول تجاوزها سريعًا.. كانت زهرة مسترسلة في حديثها مكملة: - ولم أكن أجرؤ على السؤال، ولكن عندما بلغني الشيخ الدمهوري برغبة رينيه في الزواج مني، وجدتها فرصة لأسأله: لا أفهمك يا شيخ محمد، كيف لك أنت وأصداؤك المشايخ أن تحبوا الفرنساوية النصارى؟ وقتها ابتسم الشيخ محمد، وقال: يا زهرة النصارى هم أول من تصروا الرسول عليه الصلاة والسلام، وأول من ساعدوه في أن يثبت دعوته. وديننا أعتبرهم من أهل الكتاب وحفظ لهم دمهم وعرضهم، والرسول تزوج منهم. قلت له: ولكنهم أغراب جاءوا يستولون على أرضنا؟

ضحك الشيخ الدمهوري، وسألني هل أنت ضدهم لأنهم نصارى أم لأنهم أغراب؟ لو لأنهم أغراب فالعثمانية أيضًا أغراب، والمماليك أغراب، ما أدرك من أي بلاد الدنيا جاءوا لنا يحكموننا من منّي وخمسين عامًا ويمصون دمنا، والخير كله لهم، بلدنا أصبحت متقسمة كأنها تكيات، كل مملوك أخذ له تكية يأخذ خيرها لنفسه ولناسيه.

- أجبتة قائلة: ولكن لا تؤاخذني يا شيخ محمد، هناك أيضًا مشايخ مثل الشيخ المرزوقي، وعمر مكرم، وغيرهما، يرون عكس ذلك، ويدعمون المماليك ضد الفرنساوية.

- إن الشيخ عمر مكرم وغيره يروني خائئًا أو أبحث عن مصلحة، أو جبانًا، فأنافق الحاكم الجديد، ولكني يا زهرة والله وكتاب الله العزيز، لا أريد لنفسني

منفعة شخصية؛ ولكم في رسول الله أسوءُ حَسَنَة، لقد هرب الرسول بدعوته من أهله وذهبَ إلى النصارى الذين لم يؤذوه، ولم يعترضوا دعوته، وتركوا له المجال، حتى أن تقويمنا الإسلامي يبدأ من تاريخ الهجرة، لأنها كانت البداية الحقيقية لتثبيت الدعوة، القصة باختصار - يا زهرة - أن هناك خناقة بين حاكمين أجنيين، الاثنان غريبان، الاثنان ليسا مِننا، واحد أجني مسلم لكنه ظالم لنا، جربناه قرون، ظلّمه فاق الحدود، ولا يعاملنا بعدل الله. الشيخ الدمهوري، وقتها قال لي «الممالك ظلمة، الغز لا أمان لهم»، والآخر أجني أيضًا، وعلى الرغم من أنه نصراني لا يجبرنا أن نترك ديننا، يعد بالعدل والحقوق، وكل شيخ من المشايخ اختار ما اعتقد أنه يرضى به الله، ومع ذلك فأنا أحترم عمر مكرم جدًّا وأفهم موقفه، وربما العكس غير صحيح.

قاطعت زهرة قائلة:

- هل تعلمين ماذا فعل محمد علي مع عمر مكرم الآن؟

- مَن محمد علي؟

- يبدو أنك لا تتابعين أخبار مصر محمد علي عسكري في الجيش العثماني ألباني الأصل، يحكم مصر منذ حوالي ست أو سبع سنوات، أقنع عمر مكرم وعددًا من المشايخ أنه سيقوم العدل ويخفف الضرائب عن الناس، صدّقه المشايخ، وأولهم عمر مكرم، ودعموه بثورة مسلّحة ضد خورشيد باشا، حتى تم عزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي، وساعده أيضًا أنه يحصل على اعتراف السلطان العثماني به كوالي على مصر، وعندما تمكن من الحكم قرر القضاء على عمر مكرم ونفاه إلى دمياط، آسف لمقاطعتك، أكملني حديثك: تنهدت زهرة قائلة:

- مسكين عمر مكرم، استغله محمد علي.

نظرت إلى زهرة التي بدأت تتحدث بدون توقف. عن حياتها وعن المشايخ وعن ما حدث في بولاق وكأنها أخيرًا وجدت مَن ترمي له بحمل ثقيل أعياءها ثقله منذ سنوات، لا أعرف لماذا أردت أن تتوقف عن الحديث، ربما أشفقت عليها من فتح جروح يبدو أن سنواتٍ كثيرةً في باريس لم تجعلها تلتئم. قلت لها مداعبًا:

- أتحيين عروض الأوبرا كوميك؟ ما رأيك أن نذهب معًا يوم السبت القادم.

ابتسمت قائلة:

- بكل سرور.

تأهبت للانصراف، ولكنها استوقفتني قائلة:
- لقد أعددت العشاء.

شعرتُ بحرجي ورغبتني في الاعتذار، فإذا بها تكمل كلامها:
- لقد أعددت لك بصارة بالبصل، بصعوبة استطعت الحصول على فول مدشوش.

وبينما نتناول العشاء، قالت لي:

- ألم تتعجب من كلام الشيخ الدمهوري وموقفه في مساندة الفرنسية،
ومن أنني مسلمة تزوجت ضابطًا فرنسيًا، وجئت إلى هنا؟ أنت نصراني،
مفهوم أن تكون في صفهم وتأتي معهم إلى بلادهم.
ضحكتُ قائلاً:

- لم آت معهم لأنني نصراني، ولعلمك معظم النصارى وأكابرهم مثل
جرجس الجوهري، كانوا مع السلطان.

تحجرت ملامح زهرة وأصابتها دهشة مرعبة، فنطقت عيناها بمزيج من
البلاهة الطفولية والسذاجة: - لا أفهم شيئًا مسلمون في صف الفرنسية،
ونصارى في صف العثمانيين. ولماذا إذن أتيت؟ هل تزوجت فرنسية؟
ضحكتُ ضحكة عالية:

- لم أتزوج فرنسية.. لا تروق لي الفرنسيات؛ أتيت من أجل شيء آخر أهم،
سأحكي لك هذا عندما تقبلين دعوتي إلى العشاء في بيتي بعد عرض الأوبرا
كوميك.

قرر فايان الاستقالة بعد عودتنا من مصر بفترة ليست كبيرة، قرر أن يترك الجيش، وربما شعر بأنه غير مرغوب به، وأنه إذا لم يفعل ذلك سيقيلونه هُم، وربما فعلاً تمت إقالته أو أجبر على الاستقالة، دعاني لزيارته في بيته الريفي الصغير بالقرب من ليون، ترك لي عنوانه، لم أفكر في عمل هذا من قبل، ولكنني الآن أشعر بحاجة شديدة لفايان، أشعر أنني في متاهة كبرى في هذا العالم الذي اختلطت فيه الأشياء، أنستازي دو تراي، هذه الرسائل من هذا المدعو نمر أفندي، وفد لاستقلال مصر في فرنسا يخاطب الحكومة البريطانية، بريطانيا العدو الأول والأكبر لنابليون، وقوات الحلفاء التي لا تنسى ما فعل بهم نابليون في استروليتز.. أشعر أنني في خطر، ولا أفهم ماذا يدور حولي.

فقط فايان يفهمهم.

كان الجو الربيعي المعتدل بمثابة استقبالٍ مطمئن لي، ففي رحلتي إلى بيته في بلفيل كانت كروم العنب في طريقها لأن تثمر، كنت متخوفاً ألا أجد فايان، ولكنها كانت محاولة ضرورية.

في بيت فايان وفي حديقته وجدت شخصاً، آخر شخصاً بدا لي لأول وهلة أنه فلاح قروي، اختفت ملامح التوتر والتي زادت حداثها في الفترة الأخيرة قبل استقالته.

استقبلني فايان بحفاوة وترحاب شديدين، كان يتحدث معي وكأنه طفل سعيد بعالمه وإنجازاته من ثمار التفاح والكمثرى والعنب يعرّفني على كل ركن في أركان الحديقة، وما زرعه بها من أنواع الفاكهة.

- لولا هذه الفاكهة وهذه الأرض ما كنت أنسى أبداً منظر الدماء أمام كنيسة سان روش وشواطئ يافا.

قادني بعدها إلى غرفة صغيرة تحت الأرض، مخزن يصنع فيه بنفسه المربّات والجبن والمخللات، وكثيراً من أنواع الخمور، وخاصةً النبيذ.

- هذه هي حياتي الآن حتى هوايتي المفضلة الصيد تخلت عنها، استعصت عنها بصيد السمك.

سرح قليلاً ثم أكمل حديثه بنبرة مختلفة:

- ممتع جداً أن تقضي يومك على نهر السون؛ فقد أخذت على نفسي عهداً

ألا أطلق رصاصة واحدة، وألا أكون سببًا في إراقة نقطة دم واحدة.
قادني بعدها إلى غرفة الاستقبال، وجدت في أحد جوانب الغرفة بيانو،
وكثيرًا من الكتب لفينلون، وروسو، وفولتير، وكثيرًا من منشورات الثورة،
ميركيور، وصديق الشعب وكتاب سلاسل العبودية لجان بول مارا.
نظرت إلى فايان قائلاً:

- ليست الزراعة وحدها التي تستهويك.

لم يُعر فايان جملتي هذه اهتمامًا، دعاني إلى احتساء قليل من النبيذ مع
جين سانت مارسيلين الفاخرة التي أصبح يصنعها بنفسه في بيته هنا في
بلقيل، سوف تتذوق البوجوليه أفضل أنواع النبيذ.
وبعد أن رحب بي سألتني عن سبب زيارتي المفاجئة.
لا بدَّ أن هناك شيئًا غير عادي حتى تقطع هذه المسافة دون أن تحاول حتى
أن تتأكد من وجودي.

حكيت له كل شيء عن محاولات أنستازي دو تراي المستميتة لأن تتقرب
مني كأنتي، وأن تضميني إلى صالونها الشهير، حكيت له عن المخاطبات من
نمر أفندي إلى بريطانيا وفرنسا للمطالبة باستقلال مصر، عن مخاوفي التي
دفعتنني للمجيء له.

كان فايان يسمع باهتمام شديد وتركيز عالٍ، صمت قليلًا ثم قال:

- لقد سمعت عن شيء مثل هذا من قبل، على ما أتذكر إن هذا الحديث
سمعته من الفارس الإيطالي لاسكاريس، هو من فرسان مالطا، أعرفه، هو
غريب الأطوار قليلًا ضحك بشدة وقهقه قهقهة عالية: - في الحقيقة هو غريب
الأطوار كثيرًا، ولكن لن نتحدث الآن عن لاسكاريس، سيطول عنه الحديث
كثيرًا، في الحقيقة عصرنا هذا هو عصر غربي الأطوار، وأعتقد أن هذا
المحتوى الذي قرأته لي الآن لا يصدر عن يعقوب، ربما كانت فكرته، ولكن
هناك من صاغها بهذه الطريقة المحنكة التي يفهمها الغرب، والآن دعني
أسألك ماذا تريد أن تعرف؟ هل تريد أن تتأكد من وجود وفد جاء يسعى
للاستقلال؟ أم تريد أن تعرف: هل يوجد شخص يدعى نمر أفندي أم لا؟ هل
تريد أن تتأكد من صحة هذه الخطابات؟ أم تريد أن تعرف كيف تتصرف مع
أنستازي دو تراي؟

ضحك فايان مرة ثانية، وأضاف:

- أقصد بخصوص الخطابات؛ فالشأن الآخر أعتقد أنك كفيل به.

ترددت فلم أعرف بماذا أجيب.

عاد فاييان لاستكمال حديثه:

- يبدو أنك لا تعرف بالضبط ماذا تريد أو بالأحرى ماذا يقلقك، ولكن دعنا نتحدث بشكل عملي، حتى إذا كان هناك وفد جاء منذ ما يقرب من عشر سنوات ليطالب باستقلال مصر، عشر سنوات مدة كافية لتظهر أي نتائج لمساعي هذا الوفد أو حتى أي بادرة تخص مصر أو استقلالها.
- هل تقصد أنه لم يكن هناك وفد؟

- لا بالعكس، أتصور أنه فعلاً كانت هناك مجموعة طموحة جاءت مع جيش الشرق، ولأنكم تعيشون في عالم منعزل تصورت هذه المجموعة أن الأمر سهل، وعلى ما أعتقد أنه في ذلك الوقت كانت مصر قد خرجت - ولو بشكل مؤقت - من دائرة الصراع، فلم يثر هذا الوفد اهتمام أحد، فضلاً عن أنه إذا افترضنا جدلاً أن هناك من اهتم بشأن هذا الوفد فإنهم من المؤكد أدركوا أنه لا يمثل قوة حقيقية أو فعّالة في مصر، قوة قادرة على اتخاذ قرار أو إحداث تغيير، هذا بالإضافة إلى أن إدراك أنهم كتبوا مراسلات لبريطانيا يطلبون مساعدتها في الاستقلال، وهُم عائدون مع جيش نابليون ويعيشون في فرنسا، هذا وحده جدير بتجاهل هذه المجموعة، ليس لأنها خاطبت بريطانيا العدو الأول لفرنسا، بل لأنها خاطبت بريطانيا وفرنسا معاً، هذا التصرف وحده كفيل بأن تعرف أنهم لم يملكوا القدرة حتى على تحديد على أي أرض يريدون حليفاً.

كنت أستمع إلى فاييان وأنا أتذكر من سافروا معنا على المركب خلاف المعلم يعقوب الذي مات على المركب، الكاهن الشفتشي، ومدير الجمارك، العبيد والعمال، والنساء الهاربات مع الضباط الفرنسية بحثاً عن الحب، من هؤلاء يصلح أن يكون قوة تتفاوض مع فرنسا أو بريطانيا من أجل استقلال مصر؟

استطرد فاييان قائلاً:

- أعتقد أن هذه المجموعة الطموحة لم تجد اهتماماً من أحد فتلاشت آمالها وثبتت همّتها، وربما عادت إلى مصر أو بدأت حياتها في المجتمع الفرنسي حسبما استطاعت أو أتيح لها.

- ولكنّ بداخلي فضول شديد لمعرفة هذا الوفد الذي جاء لطلب الاستقلال لمصر، ولمعرفة من هو نمر أفندي؟

ابتسم فايان قائلاً:

- الشرقي سيظل شقيقاً حتى لو أصبح كولونياً في جيش نابليون.
ابتسمت أنا أيضاً، شعرت أن فايان محق.

استطرد فايان قائلاً:

- ما فائدة أن تعرف إن كان هناك وفد طالب بالاستقلال أم لا إذا كانت النتيجة لا شيء؟

فعلاً أنت محق.. ولكن إذا كان الأمر هكذا، محاولة بئسة من مجموعة طموحة كما أطلقت عليهم، لماذا أنستازي دو تراي تظهر لي هذه المخاطبات الآن؟

نظر فايان إلى مجموعة الكتب والمنشورات والصحف في جانب الغرفة، وقال:

- عدة سنوات لك في فرنسا ليست كفيلاً بأن تفهم هذه التركيبة الاجتماعية المعقدة، أعتقد أنه من الصعب جداً أن يفهم أحد مثلاً الثورة التي أريقت باسمها دماء الآلاف وأصبح تساقط الرؤوس من المقصلة مشهداً يومياً اعتاده الناس، حتى أنهم يبيعون الزهور والخبز في الساحات، بينما تمر بجوارهم العربات المكشوفة المحملة بالأجساد منزوعة الرؤوس كمشهد يومي لا يثيرهم ولا ينتبهون إليه، زعماء الثورة يطالبون بحرية التعبير، يقتلون كل من يخالفهم في الرأي بدعوى الحفاظ على منجزات الثورة، حكومة الثورة تطالب الجيش بالتدخل لقمع المتظاهرين بقتلهم بالمدافع، زعماء الثورة والذين اقترحوا معاً لقتل الملك يختلفون، يقتل بعضهم بعضاً، رويسبير يقتل دانتون، وباراس يقتل رويسبير، ومارا تغتاله امرأة من معارضيه في حمام بيته، الناس في الشوارع يقتلون بعضهم البعض، يُقتل العزل داخل السجون خوفاً من خروجهم لدعم الملك، فقط مجرد شائعة أنهم سيدعمون الملكية كانت كفيلاً بأن يذبحوهم في السجون، عندما امتنع رجال الدين عن قسَم يمين الولاء للدستور المدني الفرنسي خرجت الهتافات بإعدام الخونة، أعطت الثوار الحق في ذبح الكهنة وتدمير الكنائس والأيقونات، وعندما اعترض الفلاحون في فانديه على التغييرات المفروضة على الكنيسة في النظام المدني، واقتحموا مقر التجنيد العسكري التابع للحكومة الفرنسية، اندلعت المذابح، وقتلت الحكومة حوالي ربع مليون مواطن في عملية القمع: قانون التجنيد العام الإجباري، إنشاء تنظيمات شبه عسكرية لإجبار المزارعين

على الاستسلام، تمرير قانون «المشتبه بهم»، والذي أذن للحكومة الثورية أن تقوم بإعدام مرتكبي «الجرائم ضد الحرية»، الإرهاب باسم الحفاظ على الحرية. الجوع لا ينتهي، الناس يلقون بأنفسهم في نهر السين انتحارًا؛ هربًا من الجوع وحكومة الثورة تأمر حاميتها العسكرية بإخماد ثورات الجوع، وبدلًا من أن يطعموا الناس يقتلونهم، شوارع فرنسا كلها تفوح منها دماء الفرنسيين. «كنا لا نريد أن نأتي ما نلام عليه من الأفعال ولكن الأزمة كانت تدفعنا إليه» كما قال دانتون.

توقف فايبان فجأة عن الحديث الذي استرسل فيه بحدّة وانفعال كأنه في ساحةٍ أمام جماهيرٍ غفيرة، يريد أن يشعل حماسهم ويوقظ ضمائرهم، ثم عاود الحديث قائلاً: - لهذا كان يجب عليّ أن أنسحب إلى هنا، هنا أشعر بآدميتي وإنسانيّتي، هنا في هذه الكتب أجد الثورة التي أحبها..

- معذرةً فايبان.. ولكنني منذ أتيت إلى فرنسا لم أر شيئًا من هذا مطلقًا.
انفعل فايبان لدرجةٍ جعلتني أخاف منه، قال:

- لأنه لم تعد هناك ثورة.

ضرب بقبضة يده بشدة على الطاولة، وأكمل:
- سرّقتها الديكتاتور الكورسيكي.

- عدة سنوات ليست كفيلة بأن أفهم، ولا حتى خمسمائة عام. كان التباين الشديد في تصرفات فايبان مرعبًا بالنسبة لي، فايبان من تصورت أعرفه جيدًا بدا لي مختلفًا، تحوّل في لحظةٍ من شخصٍ حانقٍ على الثورة إلى شخصٍ آخر حانقٍ على من سرّق الثورة.

وربما ليس مختلفًا، ربما قصور في الفهم عندي، ربما حقًا صعّب على قبطني مثلي، حتى لو أصبح كولونيلاً في الجيش العظيم، أن تتسع مداركه لفهم هذا التناقض.

هدأ فايبان قليلًا، واستطرد في حديثه:

- لا تقلق، أنستازي دو تراي تستخدم هذه المراسلات فقط للضغط عليك حتى تستجيب لها، وربما تمنحها بعض النفوذ، هي تعلم جيدًا أن هذه المراسلات لا قيمة لها ولا تهم أحدًا، حلم جماعة طموحة، ولكنها تعلم أيضًا أنك غريب، وأن وضعك في دائرة اتهام أنك تنتمي إلى جماعة تراسل بريطانيا سيخيفك ويضعفك ويجعلها قادرة على السيطرة عليك.. نساء البلاط جميلات ساحرات، ولكن خلف هذا السحر يختفي مكر ودهاء يفوقان مكر تاليران.

استجمعت قوتي وسألت فايان:
- لماذا تركت الجيش؟

أجابني بصوت رجلٍ حكيمٍ بأئس:

- لأن مشهد الافتتاح لم يكن ينبئ عما حدث. لم ينبح أحد، مَن قُتلوا وأغرقت دماؤهم الشوارعَ وحوافَّ المقصلة، ومَن رفعوا السلاح فطاردتهم استغاثات المقتولين ولعناتهم في فراشهم وفي أحضان زوجاتهم، حتى هؤلاء الذين لم يرغبوا أن يشاركوا بأي شيء أُرقتهم أصوات الهتافات في الميادين، وزكمت أنوفهم رائحةُ الدم في الشوارع وساحات المعارك، في الثورة كلنا دفعنا الثمن، ثمن الحرية، الحرية التي سرقها الفتى الكورسيكي حتى يبني مجده ويعيد الطغيان الذي كنا تصورنا أننا كسرناه.

بينما أودَّع فايان وقعت عيني على خيال مائة في جانبٍ شبه معتمٍ من الغرفة، مثبت على وجهه صورة لنابليون معلقٍ على منصة الإعدام، وعليه لافتة مكتوب عليها.

«الموت للطاغية آجلاً أم عاجلاً.. الموت للطغاة، الحياة للشعب».

يناير ١٨٠٥

مذيلة بامضاء

فايان

(٣)

أتت زهرة إلى صالة فافرت، في هذه المرة كانت في هيئتها الباريسية شديدة الأناقة، كانت طازجة كالوردة وشهية، تحركنا بعد انتهاء العرض إلى بيتي في شارع سان جيرمان، بمجرد أن اقتربنا قالت لي: - يبدو أنك استطعت أن تخلق لنفسك حياة جيدة هنا في باريس. أجبته ضاحكاً:

- بشكل كبير نعم، ولكن لم أستطع تحقيق كل شيء، فلم يكن ممكناً أن أطلب من الطاهية أن تحضر لنا عشاء من البصارة والفول النبات، ولكنني أعتقد أنه لا مانع عندك من تناول الفواجرا مع قليل من البطاطس البوريه. كنت أرى بداخلها فضولاً لتعرف حكايتي، كيف جئت إلى فرنسا؟ وما هو الشيء الأهم من وجهة نظري؟

بعد العشاء، أخرجت من مكتبتي صحيفة الحملة الفرنسية، «كورييه

دوليحييت». في عددها رقم ٥٤ وبدأت أقرأ عليها ما في الصحيفة: «اتخذ كليبر القرار التأسيسي في ٢٢ نوفمبر / تشرين الثاني عام ١٧٩٩، وكتب إلى حكومة الديركتوار (الإدارة) بتاريخ ٨ يناير / كانون الثاني ١٨٠٠.

«إن هذا المشروع الأدبي الذي سوف ترحب به كل حكومات أوروبا، سوف يكون محل تقدير أكبر بكثير في بلد يشجع حرية جميع الفنون. كما أن الكتاب الذين يؤلفون هذا العمل الجمعي إنما يتطلعون إلى شرف منح عملهم طابعًا قوميًا، وهُم يعرضون مشروعهم عليكم بشكل محدد».

وأضافت الوثيقة: «إن الأبحاث المتعلقة بالحالة الراهنة لمصر إنما تقدم موضوعًا مهمًا للفلسفة والسياسة، كما أن القوانين والعادات والتاريخ والحكم والصناعة والتجارة وإيرادات هذا البلد تستحق دراسة أشمل لا يمكن انتظارها من الرحالة الفرنسيين أو الأجانب الذين سبقونا. لقد جمعت الأشخاص الذين بدوا لي أكثر ملاءمة للتنافس في هذا العمل ومنحتهم كل السلطة والإمكانات التي يحتاجون إليها».

لم أفهم شيئًا، ما هذه الصحيفة؟ وما هذا المشروع الذي تتحدث عنه؟

قالت زهرة:

- المجمع العلمي.

- ما هذا المجمع العلمي؟

عندما جاء نابليون إلى مصر، أحضر معه حوالي مائة وستين عالمًا وفنانيًا في كل المجالات، يدرسون مصر، يدرسون كل شيء فيها، عملت معهم في المجمع العلمي في بيت حسن كاشف جركس القديم، وبيت منصور كتخدا السناري.

- وما علاقتك أنت بالفنون والعلوم؟

- لم يكن لي وقتها علاقة مباشرة بالفنون، كنت مترجمًا لهم ولكني انبهرت بهم، كانت المرة الأولى التي أرى فيها من يرسم المعابد الضخمة التي تعودت أن ألعب فيها أنا وأصحابي في الطفولة، نختبئ وراء الأعمدة نلعب استغماية، نسمع حكايات جدتي لأمي عنها وعن العفاريت التي ستهاجمنا إذا ذهبنا هناك ليلًا عند التمثالين الضخمين اللذين في وقت معين في السنة يتكلمان ويصدران أصواتًا مخيفة كعقاب للأطفال، والناس أخطأت في حق ربنا، عرفت أن التمثالين المرعبين فعلاً يصدران أصواتًا مخيفة، فقط لأن بهما ثقبًا، وفي وقت معين كل سنة اتجاه الرياح يجعل الهواء يمر من خلال

الثقوب، وهو السبب في الصوت، مثلها مثل آلات النفخ الموسيقية، ولكن ليس عقابًا لنا.

توقف منصور فجأة عن الحديث، وأخرج آلة موسيقية تشبه الناي من أحد أدراج مكتبه، وبدأ بالعزف عليها، وبعد أن انتهى قال: - شيء جميل أليس كذلك؟ صوت الهواء من الثقوب ليس مرعبًا على الإطلاق، أتعرفين ما اسم هذه الآلة باليونانية؟ مون أولوس، بالعربية تعني مزار الحب.

نظرت إلى زهرة فجأة وسألتها:

- هل عرفت الحب من قبل؟

ارتبكتُ، فكرتُ كثيرًا وكأنها تبحث عن الإجابة الصادقة بداخلها.

وكانها لم تسأل نفسها من قبل هذا السؤال، أجابتنِي:

- عرفت بعضه.

إجابة محيرة مثل صاحبيتها.

لم أفكر من قبل أن هناك ما يسمى بعض الحب، عرفت الحب كله مع زوجتي التي غيبتها الوباء دارت ذكريات بداخلي عن المشاعر التي عشتها تجاه فتيات مختلفات في المراهقة، وهنا في باريس عن السيدة الفرنسية التي أحببتها أعوامًا ولم أستطع أن أتزوجها، كنت دائمًا أشعر أن هناك شيئًا ينقصني معها، هل هذا ممكن أن يندرج تحت المسمى الذي أطلقته الآن زهرة «بعض الحب»؟

استكملت زهرة حديثنا السابق وكانها تهرب من سيرة الحب قائلة:

- عملت معهم هناك في مصر مترجمًا، انتهت مهمتك وعادوا هم إلى

بلادهم، إذن ما الذي دعاك أن تترك تجارتك الناجحة وتأتي معهم؟

- لم أترك تجارتني فأنا أديرها من هنا ولم أكن مترجمًا بالمعنى العادي،

ولكنني كنت أساعدهم في فهم النصوص، فمعرفتي باللغة العربية والفرنسية

وقليلاً من القبطية.

- القبطية؟ وهل أنتم القبط لكم لغة خاصة غيرنا نحن؟

- اللغة القبطية هي لغة كل المصريين قبل أن يأتي العرب المسلمون إلى

مصر، في البداية كانت صلواتنا المسيحية وترانيمنا تقال بالقبطية، حتى أتى

البابا غبريال بن تريك منذ حوالي ستمائة عام، وقرر السماح بإقامة الصلوات

باللغة العربية، ولذا فالقبط الآن يتحدثون بالعربية، الآن يعرف اللغة القبطية

فقط بعض رجال الدين وليسوا كلهم أو من يدفعهم فضولهم للغات والمعرفة

مثلي.

- أيمكنني تعلمها؟

- طبعًا، أتحبين أن أعلمها لك أم تحبين أن تأتي معي إلى «أبونا عبد الملك الشفتشي»؟ فهو يجيدها أكثر مني، وقد أسس مدرسة صغيرة في بيته لتعليم القبطية.

- من هو عبد الملك الشفتشي؟ ولماذا يعلِّم القبطية؟ ولمن؟

- أبونا عبد الملك كاهن من كنيسة مارمينا في مصر القديمة، هاجر مع المهاجرين مع الحملة على متن السفينة بالاس. اندهشت زهرة قاطعتني قائلة:

- هل أتيت إلى هنا على السفينة بالاس؟ أنا أيضًا كنت على ظهر السفينة بالاس، سرحت قليلًا: - غريبة الصدفة، أكمل، آسفة لمقاطعتك.

- أبدًا لا شيء. هو كاهن، علامة شديد التواضع، على الرغم من أنه يملك كثيرًا من العلم، وورشة من أهم ورش صناعة الأثاث في باريس، ويكسب من هذا مبالغ طائلة، لكنه قرر إنفاق كل ما يكسبه من مال في مساعدة الأسر الفقيرة وخاصة من هاجروا من المصريين إلى فرنسا ولم يستطيعوا أن يوفروا لأنفسهم دخلًا عاليًا، ولكنه على الرغم من كل هذا فإن اهتمامه الأول للعلم، فقد ألف كثيرًا من الكتب بالفرنسية عن إيمان الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، كما ترجم أيضًا كثيرًا من المخطوطات القبطية، وقد أصبحنا نتواصل كثيرًا في الفترة الأخيرة عندما قرر إنشاء هذه المدرسة الصغيرة لتعليم اللغة القبطية، فكثير ممن يعكفون من علماء الحملة على دراسة تاريخ مصر مهتمون بمعرفة تلك اللغة، وأيضًا كثير من الطلبة الطامحين في فك شفرات التاريخ يهوون تلك اللغات القديمة التي تحتوي معرفة لم يصل إلى فهمها أحد.. أترغبين أن أكتب لك اسمك بالقبطية؟

أخذ منصور يكتب لها اسمها، وأيضًا اسمه.

- تبدو غريبة وصعبة، لا أعتقد أنني أستطيع تعلّمها.

- إذا أردت بإمكاننا أن نذهب إلى زيارة «أبونا عبد الملك».

كان يقولها كأنبوبة اختبار لشيء ما بداخله.. وكانت النتيجة كما تمنّاها أو كما توقعها.

- لا.. ربما تعلمني أنت فأنا لن أتحمّل هذا الالتزام فقط أريد أن أتعرف قليلًا

على القبطية، وليس تعلّمها.

واستطردت متسائلة:

- والفرنسية، كيف تعلمتها؟

- كنا نعمل بالتجارة ونسافر إلى الشام، ولنا كثير من العلاقات مع بعض التجار الفرنسيين، وكان ذلك قبل مجيء الحملة، كنت أحب هذه اللغة، وتعلمت منهم بعض مبادئها وبعض الكلمات، ولكن عندما أتت الحملة وبدأت العمل معهم ساعدوني في دراسة اللغة أكثر، ومع العمل أصبحت أتكلم بشكل أفضل كثيرًا.

- ما زلت لا أفهم ما الشيء الذي دفعك إلى المجيء إلى فرنسا؟ ولكن الوقت تأخر، ويجب على أن أعود إلى البيت.
ضحكت قائلاً:

- حسناً مدام دو بوجون، إذن لا بد أن يكون لنا لقاء آخر، هل تمانعين أن نذهب معاً إلى إحدى حفلات الأوديون الراقصة يوم السبت القادم، ونرقص معاً رقصة الكادريل؟

هزت رأسها بموافقة مبتهجة قائلة:

- شرط أن يكون العشاء عندي بعدها.
وأكملت ضاحكة: بصارة.

(٤)

كانت زيارة فضل للأب عبد الملك مفاجأة كبيرة سارة بعد أن انغمس في ورشته وكتاباته وصلواته سنوياً كثيرة... انتعشت بداخله ذكريات كنيسة مارمينا، ابتسم لفضل، رحب به وقام برشمه بالصليب، سأله: - ألا تريد أن أعطيك الحل حتى تتناول؟

قالها وهو يعلم أنه لن يستطيع أن يقيم له القداس، فلا ثالث.

ردّ فضل بدا غريباً:

- طبعاً يا أبونا، حقاً لقد اشتقت للتناول، ولكنني في الحقيقة أثبت لأمرٍ آخر أهم.

امتعض عبد الملك في داخله، ما الشيء الذي يمكن أن يكون أهم من تناول.

استكمل فضل حديثه قائلاً:

- جئت أسألك عن نمر أفندي، أو الوفد الذي جاء يسعى لاستقلال مصر أو

شيء من هذا القبيل؟

صمت عبد الملك كثيرًا صمًا يوحى بالدراية العامة أو الجهل التام.
استطرد فضل قائلاً:

- إن وضعي حساس جدًّا، أنت تعلم أنني أصبحت في صفوف القيادة في جيش نابليون وعضوًا في إحدى اللجان المهمة.

حكى له عن أنستازي دو تراي وعن الخطاب الأول، وأكمل حديثه:

- ذهبت إلى فايان الذي تعامل مع الموضوع بشيء من عدم الأهمية؛ مما أعطاني نفس الانطباع، ولكنني فوجئت بهذه السيدة، والتي لها نفوذ كبير تدعوني مرة أخرى للعشاء، وتطلعتني على خطابات أخرى، غير الخطاب الأول الذي كان موجّهًا إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية في أول فندمير مذيلاً بتوقيع نمر أفندي، ربما كانوا أكثر أهمية، وبدأ في قراءة أحد هذه الخطابات الذي كان مرسلًا من القبطان إدموندس، ربّان السفينة الحربية بالاس. للأرل أوف سانت فنسنت اللورد الأول للبحرية الإنجليزية.

على ظهر السفينة بالاس.

جزيرة منورقة في ٤ أكتوبر سنة ١٨٠١.

يقول فيه:

«سيدي»

أبحث لنفسي أن أرسل لكم المذكرات المرفقة بكتابي هذا، اعتقادًا مني بأنه قد يهم حكومة بلادي أن تعلم أن أشخاصًا يسمون أنفسهم الوفد المصري يقيمون في باريس في الوقت الحاضر.

كان ممكن ركب في مصر السفينة بالاس تحت إمرتي رجل قبلى ذو سمعة حسنة جدًّا، وهو من زعماء طائفته وله فيها نفوذ كبير وقد منحه الفرنسيون لقب جنرال لينالوا تأييده.

توقف فضل عن قراءة الرسالة التي نسخها معلقًا:

- يقصد هنا المعلم يعقوب ليس غيره هو الوحيد الذي حاز لقب جنرال، وفي بقية الرسالة يذكر اسمه صراحة.

- أكمل الرسالة يا فضل.

«عنيت بعض العناية بهذا المنفى سيئ الحظ، مما جعله يحادثني في شئون بلاده، وقد صرح لي بأنه يعتقد أن أي أنواع الحكم في مصر أفضل من حكم الترك لها، وأنه انضم للفرنسيين تلبية لباعثٍ وطني علّه يخفف عن مواطنيه

ما قاسوه، وأن الفرنسيين خدعوه، وأن المصريين في الوقت الحاضر يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك، وأنه لم يفقد بعد إيمانه في خدمة بلاده، وأن ارتحاله لفرنسا قد يمكنه من هذا...».

نظر عبد الملك إلى فضل معلقًا مندهشًا متسائلًا:

- إذا كان موقفه أنه يرى أن الفرنسيين خدعوا المصريين، فلماذا جاء إلى فرنسا؟

ثم استطرد قائلاً:

- أكمل الرسالة، ربما أفهم أكثر.

استطرد فضل في القراءة:

«وقال أيضًا إن الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم لها قوة السيطرة في أوروبا، وأنه لم يعرف إلا قليلًا عن قوة إنجلترا البحرية، ولكنه كان يعرف - رغم هذا - أنه بلا موافقة إنجلترا فإن رغبته في قيام حكومة مستقلة في مصر لن تحقق».

أخذ فضل يطلع عبد الملك على الرسائل الأخرى. اقرأ هذا معي الجزء يا أبونا، من رسالة أخرى عبارة عن مذكرات مرفوعة للقبطان آدموندس لتذكّره في الوقت المناسب له برعوس أهم الموضوعات التي تبادلها مؤرخة على ظهر السفينة بالاس ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠١.

الجزء السابع في المذكرات

فرضنا أن حكومات الدول الأوروبية سمحت باستقلال مصر.. كيف يحكم المصريون أنفسهم؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم؟ «١. لا يسمح لنا تعجلنا في تحرير هذه المذكرات بتفصيل الخطة التي يفكر فيها الوفد المصري لحكم البلاد، ويكفي الآن أن تلاحظ أن المسألة ليست انقلابًا منشؤه استنارة الأمة واحتكاك آراء فلسفية بعضها ببعض. لا يقوم نظام الحكم الجديد على شيء من هذا، بل تضع قواعده الظروف القاهرة، وتخضع له رعية مسالمة جاهلة لا يعرف أفرادها الآن أو لا يكادون يعرفون إلا عاطفتين خُلُفتين: المصلحة والخوف، فإن أمكن الحكومة الجديدة (وليس هذا بالأمر العسير) أن ترفه من عيش الناس بعض الشيء، وأن تزيد كسبهم قليلًا، فمن المحقق أنها تجد منهم نصراء متحمسين، أو ليس أي نظام أفضل من الاستبداد التركي، لتكن إذن الحكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية، كما كانت حكومة الشيخ همام العربي في الصعيد».

توقف فضل عن القراءة.

- هل تعلم شيئاً عن حكومة الشيخ همام العربي؟

- أكمل يا فضل، ولنتناقش بعد ما أفهم أكثر ماذا تحوي هذه الرسائل.

- «٢. كيف يدافع المصريون عن استقلالهم؟ ماذا يصنعون لو اعتدت عليهم

دولة أوروبية؟ لا نتوقع حدوث شيء من هذا إلا بعد زمن طويل، وعند ذلك

يكون قد تم تنظيم الجيش الوطني وجعله بحيث يستطيع رد الاعتداء. أما إذا

كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فإننا نعتقد أن الدول الأوروبية يحظر

عليها مس استقلال مصر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المصريين

يمكنهم أن يستخدموا جيشاً أجنبياً من اثني عشر ألفاً إلى خمسة عشر ألف

جندي، وينفقوا عليه، ويكفي هذا الجيش الأجنبي لصد الترك عند حد الصحراء،

ولسحق المماليك في مصر نفسها، ويكون هذا الجيش الأجنبي أيضاً نواة

الجيش الوطني. هذا ولما نعلمه من تأثير الذهب في العثمانيين وأنهم لا عمل

لهم إلا للحصول عليه فإننا نستطيع ردهم عن مصر ببذله لهم. وكان المماليك

يستخدمون المال كلما رأوا سُحب السياسة تتلبد في القسطنطينية وتذرهم

بشرٌ مستطير.

وينبغي ألا يفوتنا أن نذكر أن المصريين منقسمون بين عدة طوائف، وأن

هذا الانقسام يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف فتنكافأ بذلك قواها. وللوفد

المصري صلات بهذه الطوائف على اختلافها، ولا ينحاز لواحدة منها دون

الأخرى. وهذه الصلات مستورة وستظل مستورة تماماً عن الحكومة التركية

في مصر، ولا بدّ من هذه الحيلة إزاء حكمٍ مستبد يأخذ الناس بالشبهات. ولو

عرف الترك حقيقة الأمر لَمَا ترددوا في الفتك بإخوان الاستقلال عن آخرهم.

والذين هجروا مصر مع الجيش الفرنسي من هؤلاء الإخوان قد تحدوا الترك

(وأمنوه)، ولكن إخواننا في مصر حالهم غير هذه؛ هُم تحت السيف والعصا،

فليس أمامهم إلا المواربة والظهور عبيد السلطان المخلصين.

عن الوفد المصري

نمر أفندي

وأيضاً توجد رسالة أخرى من نمر أفندي موجهة إلى وزير الخارجية

الفرنسية تاليران.

مضت أكثر من أربع ساعات يقرءون الرسائل المختلفة والمذكرات، لم

يعط فيها الأب عبد الملك أي انطباعات لفضل، أو أي إجابات واضحة

وصريحة.

لم يشعر فضل بأن عبد الملك يفصح عما يعرفه عن هذا الموضوع.
وفجأة سأله بطريقة مباغتة كما يفعل في ساحات القتال:
- أبونا، هل أنت نمر أفندي؟

أصبحت العلاقة بين زهرة ومنصور أكثر ألفةً وحميمية، فلم تكن حفلة الأوديون الراقصة هي آخر لقاءاتهما، بل اعتادا أن يرى كل منهما الآخر، في البداية مرة أسبوعيًّا لقاء في أحد المسارح الباريسية أو حفلات الرقص، مسرحية لديدرو أو موليير أو ليلة صاحبة في البارادو، أو حفل موسيقي في الأوبرا، ولكن عشاءهما المنزلي في بيت أحدهما بعد كل عرض كان اللحظة التي ينتظرانها، الصمت المتواطئ لعقد الهوى الذي لم تسعفهما الجرأة كثيرًا ليبوح به أحدهما للآخر، أصبحت السماحيات هي علامات الحب، سمحت له أن يأتي لزيارتها في الصباح فيرى أنوثتها العفوية الندية وهي تتحرك بحرية مرتدية بشكيرًا مطررًا بألوانه الوردية الناعمة، سمحت له أن يلف ذراعه حول خصرها وأن يضمها في شبه عناق تخترق فيه رائحة جسديهما روحيهما، كان السماح أن يقترب حتى تختلط أنفاسهما، أن تلمس شفاته وجنتيها وكأنها عفوية تلقائية غير مقصودة.

علمها كيف تشاركه الحلم، الحلم الذي دفعه إلى أن يأتي إلى هنا، كان قد أصبح ضمن المساعدين للجنة التي كونها بشتال منذ تسع سنوات لدراسة وتوثيق ما جمعته الحملة. ترجم منصور الأغاني الشعبية والأمثال، الحس والمعنى وروح الكلام، حتى الهتافات.

«الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان»، سرحت زهرة قائلة:
- ذكّرنتي بأيام بعيدة، كنتُ في السوق، انتهتُ لأجد أمامي موكبًا صارمًا يتزعمه هذا الضابط الزاهي المظهر الفارع الطول، راكبًا على خيله وخلفه أتباعه من الأروام والجزائريين والمغاربة، على رأسه عمامة بيضاء ضخمة تظهر بشرته البرونزية وعيناه تلمعان، وعلى شفثيه ابتسامة يجمد لها الدم في العروق، وقد ارتدى ثوبه اليوناني الموشى بالقصب، وحزامًا أحمر، ومعطفاً تعلوه رمانتان، أخذتُ أدقق النظر فيه، أول مرة أراه، ذلك المتعجرف الذي يربع الجميع ويقطع الرقاب ويقدم لجنرال الفرنسيين هدية زكية بأكملها مملوءة براءوس البدو والفلاحين.

وأكملتُ ضاحكة:

ولكنني ظللت أردد الهتاف كأغنية أتسلّى بها ساعة العصاري؛ لأنني أحب الرمان، لماذا أطلق الناس على برطلمين الرومي هذا الاسم؟

كان يشاركها معه ويسألها ويفهم منها أكثر وأكثر، مثلًا ماذا تشعر الفتاة وهي تغني في ليلة الحنة؟ حتى تكون ترجمته معبرةً حقًا عن الناس، وليست كتابة رحالة خواجة، وبينما هما مندمجان في ذات ليلة في تحليل إحدى الأغنيات اندمجت زهرة وقفت من مكانها وأخذت تغني وترقص كأنها في حنة.

- كنت متأكدًا أن جمالك كان فائتًا ليلتها.

- أي ليلة؟

- ليلة حنّك.

- أي حنة؟ لم يكن عندي حنة ولا فرح.

حاولت زهرة طرد هذه الفكرة، وربما قاومت الحزنَ بالبهجة، وقفت من مكانها، أخذت تغني وترقص كأنها في ليلة حنة قائلة: - كانت أجمل ليالي عمري ليلة فرح محبوبة.

توقفت عن الرقص، ولكن جذعها كان ما يزال يتمايل كنخلة تستعد لأن تطرح رطبها.

سألته:

- ألا تحن لمصر؟

أجابها:

- أنا أعيش هنا في مصر مع الكتابة عنها والتوثيق لها، أساعد العلماء ليفهموها أكثر ويعرفوها أكثر، سنترك أثرًا إذا ما تم تجميع هذا الجهد وطباعته، وهناك فعلاً مقترح بذلك في عدة مجلدات ستحمل اسم «وصف مصر». وأنتِ ألا تحنين إلى مصر؟

- أجن.. طبعًا.. ولكن لم يعد لي أحد هناك، فقط محبوبة غزال ابنة جرجس المعجوني صديقة عمري، أكيد تعرفه، ما أنتم قبط مثل بعض، زوجة فضل الله الزيات، رأيت على نفس السفينة التي جئنا جميعًا عليها، ولم أكن أعرف وقتها لماذا هاجر مع الفرنسيين، ألا تستطيع يا منصور الوصول إلى فضل إذا كان ما يزال حيًّا؟

- فضل ما يزال حيًّا، أنا أعرفه جيدًا، إنه يشغل الآن منصبًا مرموقًا في الجيش، ليس فقط منصبًا مرموقًا، لقد وصل إلى اللجان العليا وهو من أصحاب القرار، يعيش في أرقى أحياء باريس، في ش هيلدر، وتتقابل أحيانًا في الصالونات، كما سمعت أنه على ما أظن كولونيل، ومرشح لأن يترقى إلى رتبة أعلى.

- لقد حاولت الاتصال بمحبوبة مرة بعد عامين من وصولي إلى فرنسا، عندما علمت من رينيه أن سيبيستياني أوفده بونابرت إلى مصر في مهمةٍ ما، كنت أعلم أن علاقته طيبة بالشيخ المسيري، طلبت منه أن يطلب من سيبيستياني أن يطلب من المسيري أن يذهب إلى محبوبة، أرسلت لها بعض الهدايا، كان سيبيستياني لطيفًا وفعل ما أردت لدرجة أنه صاحبَ الشيخ المسيري في زيارته لمحبوبة.

ولكن ما عرفته من رينيه أن محبوبة لم تكن شديدة الترحاب بهم، وعلى الرغم من أنها فرحت بالهدايا مني، ولكنها طلبت من الشيخ المسيري أن يبلغني أن هديتها الكبرى أن أصل إلى فضل وأبلغه أن العدرا استجابت، وأن له ولدًا في مصر، فقد اكتشفت محبوبة بعد رحيل فضل أنها حامل، لم أستطع الوصول إلى فضل، لم يهتم رينيه بطلبي هذا، سألته مرة أو مرتين ثم نسي الموضوع.

تخيل محبوبة عندها ولد عمره الآن على ما أعتقد عشر سنوات، وفضل لا يعلم!

ولكنني أتعجب لماذا لم يحاول هو الاتصال بها على الرغم من أن القنصلية لا تزال موجودة، وهناك ألف طريقة. ألا تستطيع يا منصور الوصول إلى فضل؟ هل تستطيع الاتصال به؟ لا أفهم إذا كان يملك كل هذه الإمكانيات الهائلة، فلماذا يترك محبوبة وابنها في تلك الظروف القاسية؟ لقد علمت أنها تعيش على بعض المعونات التي تحصل عليها من أكابر القبط، أعتقد جرجس الجوهري، فقد قالت في رسالتها الشفهية لي: «أنا لا أريد من فضل مالا، فالمعلم الجوهري يتولانا بعد وفاة أبي، فقط أريده أن يعرف أن له ابناً في انتظار عودة أبيه».

شرد منصور بعيدًا، ونظر إلى زهرة التي لم يفهم هل كانت تنتظر منه إجابة أو تفسيرًا، أم أنها أرادت فقط أن تعبر عن اندهاشها.

تحدّث بصوت عالٍ كأنه يفكر معها:

- ماذا تنتظرين من رجلٍ لا يعرف إلا توقع الموت؟ الحياة بالنسبة له الانتقال من ثكنةٍ إلى ثكنة، رأسه يعمل كجهازه الهضمي، يبتلع الأوامر وينفذها كما تعمل معدته مع الوجبات التي تتلقاها في مواعيد محددة، ألم تكوني زوجة لرجلٍ عسكري؟ رديني في كلامي هذا إذا كنتُ مخطئًا؟

شردت زهرة قليلًا، فلم تفكر ذات يوم في رينيه من هذا المنطق، ولكن

شريط الذكريات كان يعمل بسرعة فائقة فترى علاقتهما التي دامت سنوات قليلة.

حَقًّا حتى الحب والابتسامة التي كانت رائعة، كانت منظمة مدروسة، وكأنها طبقًا لبرنامج، فلا صخب ولا انفعالات، ولا توتر، باردة هادئة ممتعة، ولكنها بروح أشبه بروح الثكنات.

حوالي عشر سنوات مرت لم أرَ فيها فرانسواز ولا جين. ماذا دهاني؟ هل خارت عزيمتي؟ وعلى الرغم من كل هذا الإحساس بالخطيئة أخذ شوق ما يتنازعني تجاه فرانسواز التي حاولتُ الهروب منها سنواتٍ وسنوات، الهروب من رغبتني في لقاء تلك المرمرية التي فاضت عليَّ لحظات من المتعة التي تضاهي - بل تفوق - كل ما حلمت به وكأنها سحرتني.

خلال أسابيع ستتحرك الجيوش إلى روسيا، لم أصل إلى أي معلومة عن المدعو نمر أفندي وكيل الوفد، تذكرت منصور حنين، إنه رجل مثقف، ولا بدَّ أنه كان عضوًا في هذا الوفد الذي كتب هذا المشروع، إنه مشروع استقلال وطني متكامل، ولا يمكن أن يكون مَن قاموا به مجموعة ساذجة طموحة كما قال فايبيان. إن التفاصيل المكتوبة في الخطابات تدل على أنهم جماعة واعية، كيف نسيت منصور حنين؟ كيف غاب عن ذهني ذلك الرجل الذي لولاه لما كنت هنا الآن؟

لم يفدني أبونا عبد الملك بأي شيء، إنها حقًا سذاجة مني أنني تصورت أنه من الممكن أن يحكي لي شيئًا، فهؤلاء الكهنة عندهم قدرة بالغة على حفظ الأسرار، أي أسرار، مهما كانت تفاهتها، فكيف يكون الحال مع سرِّ كهذا؟ أعتقد أن منصور حنين كان أحد أعضاء هذا الوفد، لا بل أكاد أجزم أن منصور حنين هو نمر أفندي، فَمَن غيره يملك هذه المعرفة وهذا الترتيب في الأفكار؟!

أتصور أنه من الضروري أن أراه في الحقيقة. لا أشعر الآن بخطورة فعلية تهددني، ويبدو أن فايبيان كان محققًا، وأن هذا الموضوع وعلى الرغم من جديته لم يكن إلا وسيلة ضغط عليَّ من أنستازي دو تراي، وعلى الرغم من ذلك فإنني أريد أن أعرف هؤلاء الذين امتلكوا هذه الفكرة، «مصر دولة مستقلة»، وجاءوا سعيًا لتنفيذها، جملة لم تخطر لي ببال ولا حتى كنت سأفهمها إذا سمعتها عندما قفزت على الباخرة بالاس. كم كنت حانقًا متهورًا! كل ما كنت أحلم به أن أكون محاربًا بارعًا، وأعود مع الفرنسيين بجيوشهم لنطرد العثمانيين أما هؤلاء فكان حلمهم أقوى وأكبر «دولة مستقلة وجيش مستقل». إذا وجدت أيًا منهم سأستطيع معرفة التفاصيل الأكثر دقة التي لم

تُذكَر في الخطابات، ربما يكون بإمكاننا تحريك المشروع، تصوراتهم وخططهم مع خبرتي العسكرية ووجودي في مركز القيادات، وعلاقتي الطيبة المباشرة بنابليون، كل هذه عوامل قد تساعد في تحريك الفكرة. ولكن الوقت ضيق، ربما أرجئ هذا اللقاء لبعد عودتي من روسيا.

فرانسواز لقاءً من نوع آخر، لقاءً يستبد بي، ولكن الباقي من الوقت قليل جدًّا، هل أستطيع أن أذهب إلى ضيعة بلوا في طريقي إلى باريس قبل العرض العسكري الذي سأشارك فيه مع الإمبراطور في ميدان الكاروسيل؟ العرض الذي ستودِّع فيه الجماهير جيوشها المتجهة في حملة إلى روسيا، كانت فرنسا كلها في حالة ترقبٍ وحذر، وإذا جاز التعبير في حالة خوف، فلم يستطع أحد من قبل أن يغزو روسيا، أخطار هذه الحملة يدركها أبسط البسطاء، فإذا فعلها نابليون فستكون فرنسا قد تربعت على عرش أوروبا دون منازع. ولكن ماذا إذا فشل؟ الإمبراطورية الفرنسية على المحك، ونابليون كعادته يؤمن بنرده الذي تدرج على البسطاء أما الناس - حتى أكثر الناقمين عليه والغاضبين من سياساته - فلم يكن أمامهم إلا أن يدعموه، ويتوجهوا إلى الله بالدعاء له.

لم أنم طوال ليلتي. حسمت أمري بالتحرك مع بزوغ الفجر إلى بلوا، وبعد أقل من ساعة كانت مركبة بأربع عجلات تشق طريقها إلى بلوا بأقصى سرعة بين أشجار الجوز وبمحاذاة نهر اللوار الذي بدأت الشمس ترمي بأشعتها الصباحية الأولى على مياهه الساكنة مع نسمة هواء خفيفة، فتحركها كأُمَّ توقظ أطفالها بهدوء، طالت النسمة الصباحية وَجْهي فانعشتني قليلًا، ولكن بماذا أبرر زيارتي غير المتوقعة لها؟

لم يكن من السهل الوصول إليها بعد مرور عشر سنوات، ومع ذلك بذلت جهدًا كبيرًا للتقصي عنها وعن جين ومعرفة أين هي.

كنت أتوقع أشياء كثيرة، توقعت مثلًا أن تتحول إلى غانية من غانيات البلاط التيرميدوري العشيقات اللاتي يملكن الكثير من الذكاء والدهاء و سخونة الفراش المغطاة بألقاب النبالة الجديدة.

توقعت أن تكون قد تزوجت من نبيلٍ جديد، توقعت أن تكون قد ماتت من الجوع بعد أن فقدت ثروتها، توقعت أن تكون قد جُنَّت في رحلتها للبحث عن الفضيلة.

توقعت كل شيء إلا أن تكون فرانسواز قد اختارت لنفسها هذه العزلة

العميقة، وهذا الصمت الحقيقي، وانضمت إلى المنذورين؛ حركة المتصوفة الكاثوليك.

تخيلتها كما هي تَصِرة، وربما زادت نضارةً عن تلك الصورة التي رسمتها ذاكرتي لها، امرأة مكتملة على مشارف الأربعينات، ربما أكثر قليلاً، ترتدي فستانًا مصنوعًا من التفتا الثقيلة أخضر اللون متناغمًا بسلاسة مع لون عينيها اللتين ازدادتتا يقظةً وجرأة، رقبتها المرمرية تطل على استحياء من الياقة المطرزة تطريزًا خفيًا بلونٍ أكثر اخضرارًا، ولكن لم أستطع أن أخمن كيف سيكون لقاءنا، كيف ستستقبلني بعد ما عرفته عن تغير مسار حياتها الرهيب، بعد أن صارت إحدى الداعيات لحركة المنذورين والباعثين الجدد لأفكار مدام جويون عن الإيمان: «إن النفوسَ أشبه بالسيول التي انبثقت من عند الله، وإنها لن تجد الراحة حتى تُفني نفسها فيه - تعالى - كأنها الأنهار يتلعبها البحر، فإذا الفردية تتلاشى، وإذا الوعي بالذات أو بالعالم، بل الوعي كله - ينتهي ولا يبقى غير الاندماج في الله - في مثل هذه الحال تكون النفس معصومة، لا ينال منها خير ولا شر، ولا فضيلة ولا خطيئة. فمهما فعلت ففعلها صواب، ولا تستطيع قوة أن تؤذيها. في مثل المحبة الإلهية لم يعد لأمر الدنيا أي وزن، وفي مثل هذا التسامي الروحي يجوز للمرء أن يهمل كل الطقوس الدينية، ومع ذلك يرقى إلى السماء، لا بعد الموت فحسب، بل في الحياة أيضًا».

قرأت مدام جويون حتى أعرف فرانسواز الجديدة، ولكن هل ستعرفني هي بعد مرور حوالي عشرة أعوام؟ لقد تغيرت كثيرًا، انا الآن الكولونيل فضل كل شيء فيَّ تغير، هندامي، عربتي ذات العجلات الأربع والخيول المطهمة، حتى سُمرتي أصبحت مشوبة بْحُمْرة فرنسية، تَذَكَّرت عندما رأيت فرانسواز أمام الميناء في مرسيليا، جندي مهاجر من الشرق يرى لأول مرة في حياته كونتيسة تنزل من عربتها.

«كم تختلف مشاعرنا تجاه الأشياء! كل ما لا نملكه يبدو لنا عظيمًا مبهرا حتى نملكه، فيتحول إلى العادي». قفز إلى ذهني سؤال: هل لو كنتُ قابلت فرانسواز الآن، هل كانت ستبهرنني كما فعلت بي بعد أيام من وصولي إلى مرسيليا؟».

جمال مدينة تور التي ظهرت أمامي من بين التلال والمياه، بكاتدرائيتها القديمة، كسُحْبٍ معلقة، لم يعطني فرصة للإجابة، فقد أسرتني مساحات الخضرة والجزر المتناثرة في نهر اللوار الممتلئ بالقوارب الشراعية التي

تقطعه جيئةً وذهابًا إمَّا حاملةً للمسافرين بين شطري ضفاف النهر، أو حملًا للبضائع بين منبعه ومصبه، أشرعتها البيضاء تعكس أشعة الشمس فتضيء صفحة المياه، ويتقوى ملاحو السفن بالأغاني استجلابًا للجَدِّ والبهجة في رحلاتهم الطويلة التي يستعينون فيها ببغال بالأجرة لتجر سفنهم عندما تنقطع الرياح ويعاكسهم تيار النهر بعض السفن كانت للصيد بالشبَّاك وتحمل صيدها من فم النهر عندما يلثم المحيط، مزارع الكروم على ضفة نهر اللوار، شغف الحياة التي بدأت تدب بالحركة في سكان شقوق التلال المكسوة بالخرصة، الرجال يحرثون الحقول، النساء اللاتي يجلسن أمام دواليب المغازل تحت أشجار اللوز.. هذا التناغم الهادئ الذي لا يقطعه إلا طرقات صانعي شقف الأردواز من الصخور، كانت رائحة أشجار الصفصاف التي امتزجت مع رائحة النهر كفيلة بأن تزيح المحارب وتعود بي إلى الطفل الذي اعتاد اللهو في مياه النيل وترع أسيوط، الطفل الذي صار شابًّا وقرر القفز في الباخرة بالاس المتجهة إلى مرسليليا.

استرجعت ذاكرتي تفاصيل تلك الليلة، وبالتحديد كل ما قالته لي فرانسواز بعد أن لاحظت شرودي وارتباكي في تلك الليلة الملعونة.
ألا تتفق معي يا فضل أننا نعيش في عالم أجوف بنى تاريخه وقوانينه ومزاياه وعقابه، حتى جواز مروره لعالم ما بعد الموت، على مسميات اعتبرها حقيقة؟ كم أشعر بسخف كل هذه التسميات!
أتعلم يا فضل أنني قررت أن أنقي نفسي من أفكار العالم وأصنع لنفسي قاموسي الخاص؟

فمثلًا ما يسمونه العفة هو في قاموسي الجديد الخطيئة بعينها.
أتذكر وجهها وهي تسألني: أتعرف لماذا؟ عازمة على استكمال شرح ما تريد دون أن تنتظر مني إجابة، بينما عيناها القادرتان الماكرتان تقولان لي: أعرف بماذا تفكر.

خطيئة في حق النفس بتعذيبها وتجويعها، وخطيئة في حق الرب أن تعاند مشيئته في حُلُقٍ مفعمٍ بالرغبة. كيف يكون ما حَلَقنا الله عليه هو الخطيئة؟
ربما كانت كلمات فرانسواز وقتها أكثر ما أفرعني منها، ربما لو كان الأمر لقاءً جسديًّا عابرًا كنت استطعت أن أتعامل معه. حوارها الذي تلا لقاءنا الأسطوري بالنسبة لي جعل منها ليلة مخيفة لي بكل ما فيها.

في لحظةٍ ما بدأت أتردد، وأخذت تراودني فكرة ألا أعرج على بلوا، وأكمل

نظام العسكرية، عندما أدخلت الـ Levee en Mass الجيش الوطني فيصبح جيشًا قوامه الشعب، وسمحت بانضمام الجنسيات الأخرى، خاصةً بعدما جرت تصفية كثير من النخب العسكرية التابعة للنظام الملكي الفرنسي المخلوع، هل كان فضل استطاع أن يصبح كولونيلاً في الجيش الفرنسي؟ ولكن السؤال الأصعب الآن: حتى إذا استطعت لقاءه، كيف أتحدث معه في أمرٍ بالغ الخصوصية وشائكٍ مثل هذا؟

كان لقائي المعتاد مع زهرة في سهرة السبت هذه المرة؛ لنحضر عرضًا مسرحيًا جديدًا لأوجست فون كوتسيو، ولكنني فوجئت بها ترسل الحوذي إليّ قبل الموعد بساعات؛ ليبلغني أنها مريضة قليلًا، ولن تستطيع الذهاب إلى المسرح، ولكنها تدعوني إلى العشاء في منزلها.

لم يأخذ المرض من جمالها شيئًا، كانت بهية وشهية كعادتها، ولكن هدوءها الرصين في ذلك اليوم كان مثيرًا لدرجة أنني اقتربت منها برغبة، محمومة لم أستطع إيقافها، لم أستطع أن أخفي هذه النظرات وتلك اللمسة التي يشع منها الشبق، فزعتُ زهرة:

- ماذا تفعل يا منصور؟

صوتها المذعور أفاقني من حالة ثمالة العشق، أجبتها مرتبًا:

- أحبك.

تماسكُ قليلًا، وكررت:

- أحبك كما ينبغي للحب أن يكون.

أخفضتُ عينيها، تجنبت النظر إليّ وحاولت أن تغير مجرى الحديث:

- هل وجدت طريقة للوصول لفضل؟

- زهرة أحبك، دعينا نقرب، نشعل الحياة بما أعطتنا من محبة، قد بلغ بنا

العشق منتهاه يا زهرة، لقد أضناني الحب، واستبدت بي الرغبة.

كانت تتساءل، كيف تركت مشاعرها ليستحوذ عليها منصور إلى هذا الحد؟

أجابته:

- من اخترع الحب يا منصور أصاب المحبين في مقتل، أنت تعلم جيدًا أننا لا

نستطيع أن نكون معًا.

- ما المانع؟

قالها شبه ضاحك:

- ألا تزالين شيخة يا زهرة؟ شيخة لا تنفرج قبضتها إلا بالتحليل والتحليل

بالعقد والشهادتين.. والشهود؟

كان ردُّها بجديّة غير متوقّعة له وصوت يملؤه الاستنكار:

- هل تسمّي ما تربّينا عليه وتعلمناه في بيوتنا شيخة؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا شيخة بنت شيخ، أنا لم أنسَ يا منصور أنني ابنة الشيخ العطيفي.

أجابها منصور بصوت المحب مداعبًا:

- وأنا أحب تلك الشيخة، إذن فلنتزوج.

- تتزوج؟ أنسيت أنك نصراني؟

انفعل منصور، وأصابته الدهشة قائلاً:

- مدام دو بورجون، أرملة الكونت رينيه دو بورجون، أو لم يكن رينيه

نصرانيًا؟

- ولكنه أشهر إسلامه ونطق الشهادتين، وزوّجني له الشيخ الدمهوري.

- لقد فعل ذلك فقط لتكوني زوجته، أتخدعيني أم تخدعين نفسك؟ لقد

عاد رينيه إلى حياته وصلواته، أنت الآن فرنسية، أرملة كولونيل فرنسي، لك

مطلق الحرية أن تتزوجي ممن تريدن. ممّ تخافين؟

- من الله.

- الله يعلم ان رينيه لم يكن مسلمًا.

- ولكن الله يعلم أنني تزوجت مسلمًا، نطق أمامي وأمام الشيخ

الشهادتين.

- ولكنك تعرفين أيضًا أنه كان مؤمنًا في داخله بدين آخر، وربما كان ملحدًا،

ألا يعلم الله هذا أيضًا؟

- ولكنه فعلها من أجلي، أحبني وفعلها من أجلي، وإذا كنت تحبني حقًا

فانطق الشهادتين.

- لا يا زهرة، الفرق بيننا كبير، لقد أتى الفرنسي إلى مصر غازيًا، والغزاة

عادةً يفعلون أي شيء للحصول على الغنيمة، في الحروب كل الوسائل

مشروعة، أما أنا فأحبك يا زهرة، ولأن حبي لك ليس تملكًا لا يمكن أن ابنه

على خدعة. نطقي الشهادتين خدعة لك، أنت تستمرئينها لأنها تكفيك شر

الإحساس بالخطيئة، ولكني أحترمك؛ ولذا لن أنطق الشهادتين.

كان وقع الجملة غير مفهوم لها، كيف يرفض أن ينطق الشهادتين من أجل

أن يكون معها ويسمّي هذا احترامًا؟

استطرد منصور قائلاً:

أنتِ يا زهرة أتيتِ إلى هنا مع الفرنسي راضحةً مستسلمة في أعماقك
لقدرك، أما أنا فقد كان مجيئي اختياريًا، اختياريًا أن أكون مَن أريد، وأن أفعل ما
أريد، اختياريًا أن أكون نفسي، للأسف يا زهرة لم تغير القفزات الحربية ولا
لغتكَ الفرنسية الجميلة منك شيئًا، لم تأخذي من فرنسا سوى المظهر، زهرة
أحبك، تَخَلِّصي من هذه الشكليات، أريد أن أكون معك، أريد أن أحبك كما
ينبغي للعشوق أن يكون.

- ربما أنا حقًا يا منصور كما وصفتنى تلك الضعيفة المستسلمة، وأنت ذلك
القوي الذي استطاع أن يختار حياته، أتمنى ألا تكون ضعيفًا مثلي أمام
خرافات وشكليات كما سمَّيتها، الاختيار هذه المرة صعب، أنت أيها الشجاع
مَن يسلبك حريتك هذه المرة هو نفسك، وإيمانك، ودينك، هل ستكون شجاعًا
وتتمرد على نفسك حتى تكون مع من تريد؟

توارت مشاعر الحب أمام جِدة هذا النقاش، والذي حوّل زهرة ومنصور إلى
مبارزين يحاول كل منهما إثبات قوته، وربما ينتظر كل منهما أن يجد الجملة
المناسبة التي يسدد بها القاضية، ولكن للحب قوى خفية لا توجد في ساحة
المبارزة، قوَى تجعل كلاً من الطرفين يخاف من تسديد الضربة.

هدأت نبرة منصور، وتوجّه إلى زهرة. اقترب منها أكثر بلمسةٍ حنونة ونظره
تتراوح ما بين القوة والاستعطاف، لقد خُلِقنا لنكون معًا، ليس من قبيل
المصادفة أن تجمعا الحياة في تلك البلاد الغريبة علينا وتعطينا الفرصة أن
نتواجد معًا في هذه الظروف التي نَحَّت الدين جانبًا، وحررت الإنسان من كل
السطوات، وخالقت إلى الوجود أرضية إنسانية جديدة يستطيع فيها الناس أن
يكونوا معًا حتى على اختلافاتهم، أنا لا أطالبك أن تكفّي عن إيمانك أو تغييره
من أجلي، فلا تطالبيني أيضًا بذلك، وأطلب منك ألا تقبلي أي خدعة، وأن
تبحثي معي عن تلك الأرض الجديدة التي نستطيع أن نتقابل فيها دون أن يقهر
أحد منا الآخر.

(٣)

مايو، صيف ألف وثمانمائة واثنى عشر، جهز نابليون نصف مليون جندي،
نصفهم فقط من الفرنسيين كنت واحدًا من الذين رأوا أن في اجتياح روسيا
مجازفة، ولكن نابليون كان يتوقع معركة سريعة وسهلة على الحدود، يضطر
فيها ألكسندر إلى المجيء إليه ليوقع معه اتفاقية لإجبار قيصر روسيا على

وقف التجارة مع بريطانيا، على أن يعود إلى فرنسا قبل نهاية الصيف. في الرابع والعشرين من يونيو، بدأت أبواق الحرب تدق، وُزعت الأعلام الفرنسية، عبّرنا من نهر نيمان، كنا حوالي مئتي ألف من طلائع الجيش الفرنسي إلى حدود الإمبراطورية الروسية، ومن نقطة ثانية عبر ثمانون ألف، ومن نقطة ثالثة عبر ثمانون ألفًا آخرين، دخلنا قلعة كوفنو بينما في هذه الليلة كان ألكسندر في حفل راقص في فلييوس، وهناك عرف أن نابليون عبر حدود الإمبراطورية، في اليوم التالي قمنا بمواجهة محدودة مع القوات الروسية الموجودة في منطقة برايايشكي، وبعد ستة أيام من عبورنا الحدود حدث ما توقعه نابليون، جاءنا بالاشوف برسالة من ألكسندر تطلب منا توقيع الصلح على أساس انسحابنا من روسيا، ولكن يبدو أن لذة الانتصار ودخولنا حدود الإمبراطورية جعلت نابليون يرفض الصلح، في الحقيقة كان نابليون دائمًا شخصًا غير متوقع، هادئًا متماسكًا، صلبًا لدرجة تصل أحيانًا إلى الصلابة؛ ولذا لا يستطيع مطلقًا أن يخمّن أحد ماذا يمكن أن يدور برأسه.

قوات روسيا كانت موزعة على طول وعرض الإمبراطورية، كانت خطتنا ألا نعطيهم الفرصة لتجميع قواتهم، مما أجّل المواجهة، في الحقيقة بعد ما حدث بدأت أشك أن الروس قصدوا هذا حتى تكون المواجهة بعد أن يجهدوا جيوشنا، اضطررنا إلى التقدم عمقًا داخل روسيا مسيرة سبعة أسابيع، ابتعدنا نحو مائتي ميلٍ عن الحدود، بدأ التموين يتضاءل، الأرض موحلة، صعوبة السير وتحريك العجلات، قطع التعب بما يزيد عن مئة ألف جندي من جنودنا، بالقرب من سمولينسك استطاع الجيش الأول والثاني الروسي الالتقاء، وكان هذا أول نجاح للجيش الروسي المواجهة في سمولينسك مع جيشنا المنهك قليلًا بعد مسيرة سبعة أسابيع، كانت أعداد جيشنا تفوق عدد جيش الروس حتى بعد أن تركنا جزءًا كبيرًا منه ليؤمنوا الطرق، كنا حوالي مئة وخمسة وعشرين ألفًا، بينما كان عدد الروس لا يزيد عن مئة ألف، ولكنها كانت معركة شديدة حامية استمرت ثلاثة أيام بين الكر والفر، ولم تُحسم لصالح أحد.

وعلى الرغم من انسحاب الجيوش الروسية لكن سمولينسك كانت بداية المعركة الحقيقية بيننا وبينهم، ويمكن أن أقول إنها كانت بداية هزيمتنا، قبل سمولينسك كانت المعارك صغيرة مع الحاميات، أمّا الناس فكانوا لا يفهمون ماذا يجري بوضوح، كانوا يبيعون لنا ونشتري منهم أحيانًا ما نريد، في معركة سمولينسك فهم الروس أننا غزاة، قدمنا لاحتلال وطنهم، في انسحابهم

أحرقوا القرى ومستودعات الغذاء بأكملها، حرقوا كل شيء، دمرُوا كل شيء، كانت القرى والغابات تلتهمها النيران التي كانت ألسنتها تبلغنا رسالة الروس لنا، «سنحرقها بأيدينا ولن تتألوا من خيرها شيئاً، لن تطعمكم أرضنا ولن تجدوا عليها إلا الحطام».. نعم خططوا لتجويعنا.

مباشرةً بعد موقعة سمولينسك قرر نابليون أن يعرض السلام على ألكسندر، كما يبدو للجميع من موقع المنتصر، ولكني أتصور أنه استشعر الخطر، هذا القائد الفذ المخضرم يعلم أن المعركة مع الجيش هي حسابات قوى والسياسات والأساليب والخطط والمناهج، أمّا المعركة مع شعب يحرق وطنه حتى لا يسلمه للعدو فهي شيء آخر خارج الحسابات.

وكما فهم نابليون نيران سمولينسك، فهمها أيضاً ألكسندر ولم يرد على عرضه بالصلح.

بعد معركة سمولينسك وعدم رد ألكسندر، كان الموقف بالنسبة لنا مؤرقاً، العودة إلى باريس قد توحى بالفشل، وموسكو أصبحت قريبة ولكن التورط أعمق وأعمق في روسيا أيضاً مخاطرة لها حساباتها، تم تعيين الداهية كوتوزوف قائداً عاماً للجيش الروسية، قرر القائد الروسي وقف الانسحاب ودعا إلى المواجهة في قرية بوردينو للدفاع عن موسكو، كانت جيوشنا من مائة وثلاثين ألفاً من أشجع الرجال، وعلى الرغم من تكافؤ العدد لكن أسلحة الروس كانت أضعف كثيراً من أسلحة جيوشنا. استشرس الروس في المواجهة، فكانت أصعب المعارك على الإطلاق. كان هدير المدافع وقعقة السلاح وصراخ الجنود يجلب إحساساً من الفجعة والفرع والأسى والصدمة، مع حلول الظلام بدأت أصوات المعركة تهدأ، ولكن الرمايات والقتل المتبادل جعلنا من ساحات بوردينو نموذجاً لا يطاق.

شاهد نابليون كل ما يجري على أرض المعركة من مرتفعات بوردينو، أصبنا بالرعب من حجم الخسائر، حيث قُتل أكثر من ثلاثين ألف جواد، وخمسة وثلاثين ألف جندي، ولكن كوتوزوف يأمر بالانسحاب مرة أخرى ليحافظ على جيشه.

في تلك الليلة سمعنا نبأ انسحاب الجيش وتركه موسكو بدون دفاعات، كانت تلك هي فرصتنا لنحتل موسكو ونجبر ألكسندر على الصلح، هرب سكان المدينة من شدة الخوف، في الرابع عشر من سبتمبر وصلنا موسكو، القباب الذهبية لقصور موسكو كانت تلمع أمامنا، لكن لم يحتشد المستقبلون لتحية

الإمبراطور، لم يأتيه أحد بمفاتيح المدينة، ولم يرسل ألكسندر في طلب السلام، استولى نابليون على الكرملين وبعث مبعوثًا إلى ألكسندر في طلب السلام، وكانت الليلة الأولى أيقظ الحرس نابليون يبلغونه أن النيران تشتعل في أنحاء موسكو، عقدوا العزم على حرق المدينة في ذلك المساء الرهيب، كانت ألسنة اللهب ترتفع إلى الفضاء مرة أخرى، فتحوا السجون لعصابات الكوزاك، ولم يصلنا ردّ.

ألكسندر لم يكن راغبًا في السلام، كان يعلم أن قسوة الشتاء الروسي ستكون كفيلة بالقضاء علينا، تعبنا في انتظار رد ألكسندر على الرسالة الأولى والثانية، رد لم يأت أبدًا، التموين يتناقص، وبدأت عصابات الكوزاك تهاجمنا بضراوة، بدأ الشتاء الروسي القارص، والثلوج تتساقط بشكل مرعب، فكر نابليون في التحرك تجاه سان بطرسبورج للحاق بألكسندر، كنا ضد هذه الخطة غير المجدية لأسباب كثيرة، نذهب إلى المواجهة في الشمال في هذا الصقيع بجيش منهك وفي ظهرنا كوتوزوف بقواته، فكرة غير صائبة تمامًا، نظر إليّ الجنرال كولانكور لمعرفة رأبي، هزرت رأسي بما يعني «لن نذهب أبعد من ذلك».

كان الجميع قد استقر على عدم التحرك إلى سان بطرسبرج. استجاب نابليون لهذا الرأي، وكان القرار أن نترك موسكو فورًا بعد خمسة أسابيع فقط من احتلالها، لم نستطع أن نجبر ألكسندر على توقيع اتفاقية سلام، وضع الجنود المؤن والغنائم في العربات، جيوش عائدة بالأثربات والأسرى أشبه بالجيوش القديمة!

كانت الخطة أن نتجه بالجيش والجنود إلى الجنوب الغربي، حيث المناخ أكثر دفئًا، ولكن الروس أجبرونا على تغيير الاتجاه مرة أخرى إلى بورودينو، كنا نمشي على جثث القتلى التي سقطت هناك في المعارك التي دارت من شهر بعد أن أحاطها الجليد، أخذنا نتسحب عبر ساحات المعارك، لم نجد مأوى من قسوة المناخ، ولم تكفنا المؤن المتضائلة، استمر الثلج في الهطول، لم أكن أدرك أنني النصراني سأذهب إلى كل هذا الشمال. «أستجيب لك أيها المملوك وأخذت شمالي، تسلطت على ذاكرتي جملة: اشمل يا نصراني.. كم هو بعيد جدًا هذا الشمال الذي دفعتني إليه. أنهكتني الرحيل في تلك الأراضي التي تبدو بلا بداية أو نهاية إلى تلك البلاد الباردة ذات المساحات الشاسعة من الأبيض، فلا لون هنا غيره، إلى تلك الدروب الضيقة

بين أشجار الغابات التي تعلوها طبقات الجليد، تفوق الستة أمتار، أخفت تحتها الحياة فلا يوجد إلا هذا الصقيع، كان جنودنا يفتقرون إلى الملابس الدافئة والأحذية، وعندما بدأت الحرارة تهبط إلى ثلاثين درجة تحت الصفر بدأ رجالنا يتجمدون من الجليد، كان الرجال يتميلون تدريجيًا ويسقطون، خرجت أصابعهم من الأحذية بلونها الأحمر الذي كان يتحول تدريجيًا إلى الزرقة ثم إلى السواد، لم يعد الجنود يقوون على حمل أي شيء، نجح الروس في أن يجبرونا أن نترك الغنائم بمحض إرادتنا تخلى جنودنا عن أسلحتهم، دفنت غنائم موسكو الثمينة في الخنادق على أرضهم، وكأن الغنائم لها نفس الإرادة لن تأخذوا منا شيئًا.

أغلق الشتاء الروسي طريق عودتنا إلى فرنسا طاردتنا كتائبهم للانتقام منا، اضطررنا للاتجاه غربًا إلى مناطق لا يكسوها إلا الثلوج، وصل البرد إلى عظامنا، لا شيء إلا الجليد والحطام، أصبح الموت هو النجاة من الألم والتجمد، هذا الألم الذي لا يمكن تخيله ولا وصفه لجنوبي مثلي، شمس المحروسة تأتيني في الذاكرة، تطل عليّ من السماء كأنها تسخر مني، وددت في لحظة لو أستطيع أن أحرك الكرة الأرضية بإصبعي فتقع هذه الأرض تحت شمسنا، ولكن السماء صافية، خالية من كل شيء، لا سحب ولا غيوم، ولا شمس، سماء لها نفس صقيع الأرض التي نحن عليها، أصبح القتلى من الجنود ذوي المقاسات الكبيرة غنيمة، يتقاتل على ملابسهم وبياداتهم من تبقى على قيد الحياة، يخلعون ملابس من مات منهم، يتركونهم عراة ليرتدوها فوق ملابسهم طمعًا في أي دفء، أما البيادات فتحشى بما قد يجدونه من قشٍّ أو خرق مهلهلة من بقايا البديل العسكرية الغالية طمعًا في أن يحمي أطرافه من التجمد، لم أكن أتخيل أنني قد أفعل هذا يومًا ما، ولكنها الرغبة في النجاة، وجددني أفعل مثل الجميع، لا أعرف كيف فعلت هذا، كنت أقلب جثث الجنود الملقاة على طول الطريق لأجد ما أرتديه، فعلها كثيرون مثلي وقبلي، كانت معظم الجثث عارية تمامًا، لم نترك لهم شيئًا، فكرة واحدة سيطرت عليّ، لن أموت بهذا الشكل، لم أترك أرضي حتى أموت متجمدًا عاريًا في قارعة الطريق، نعم توقعنت أن أموت في معركة، بطعنة سيفٍ من محاربٍ ماهر، أو بطلقةٍ من بندقية قنّاصٍ، أي طريقة تمنحني شرف العسكرية. ولكن لن أموت بهذه الطريقة.

النجاة من الصقيع لم تكن آخر المخاطر، الجوع الذي لا يرحم، في مذبحه

جماعية لشركاء الرحلة والمصير أكل مَنْ تبقى حيًّا مِنْ جنودنا جياذهم حتى لا يموتوا جوعًا.

فَعَلَّهَا كوتوزوف ونفذ ما وعد به ليلة دخولنا موسكو.

«سأجعلهم يندمون على دخول روسيا، سأجعلهم يأكلون جياذهم».

كنت أطيل النظر إلى هذا الأدهم الجامح، بلونه الأحمر وعنقه الطويلة ذات العضلات السمينة وجذعه المربع الناعم الأملس كأنه يستشعر الخطر، وعلى الرغم من البرد والجوع كان ذكيًّا صبورًا، حنونًا عليّ يداعيني بذيله الطويل وشعره الحريري، يفهم أن نهايته وشيكة، يقول لي ذلك بنظرات عينيه الواسعتين الصافيتين، والتي اعتدت أن أفهمها. كما اعتاد هو أن يفهمني لم يخذلني أبدًا في المعارك، الجوع ينهشني، ولكنني لم أقو على أن أكل شريك الرحلة والأصل.

بدا لي أن النجاة وشيكة، لم يبق إلا عدة أميال ونصل إلى الحدود، ولكن الروس اعترضوا انسحابنا عند نهر ترزينا، دمروا الجسر الوحيد الذي يعبر النهر ليأسروا نابليون، كان نابليون شرسًا في مقاومته، هدم بعض البيوت، واستخدم الضباط المهندسون أخشابها لبناء جسر، بدأنا في عبور جسر ترزينا، في البداية عبر نابليون وبعض مساعديه، وبدأ الجنود يعبرون، كانت قواي لا تحملني على الحركة بسرعة شديدة، منهكٌ حتى في شعور العبور المشجع، كنت أشعر بخوار، رائحة جسدي التي لم أعد أتحملها، ملابس الموتى التي أرتديها، جوادي المجهد المقاوم خار هو أيضًا. شعور غريب أقوى مني، أقوى حتى من الرغبة في النجاة، كان الجنود يصرخون، يشجع بعضهم البعض، تَماستكوا، اعبروا الجسر، لم يبق إلا أميال ونصل إلى الوطن، أما أنا فلماذا أعبر الجسر؟

الجسر يتكسر من تحت أقدامنا، دمر الروس الجسر، نقع جميعًا في تلك المياه الجليدية، مئات من الجنود والضباط والخيول، مَنْ عبّر لا يلتفت وراءه لمن وقع.

ربما ينجو، أخذت في فك السرج، حررته، كانت المحاولة الأخيرة لنا، فلكل قدره، ربما ينجو، أما أنا فبحركة لا إرادية في البداية ضمنت رجلي إلى صدري، حاولت أن أقاوم قليلًا، ولكن بدأت العضلات تتيبس، وقدرتي على الحركة تقل، أما جوادي فمن المؤكد أنه قريب مني في إحدى تلك الثقوب التي شكّلها أجسادنا في تلك الطبقة الجليدية، لمحته وهو يقاوم وينظر لي،

يقاوم ليس للخروج، ولكنه يتحرك باتجاهي، كانت آخر حركة استطاعت ذراعي أن تفعلها، ضربته على مؤخرته، نهخته، لا بدَّ أن ينجو، لا بد أن ينجو أحدنا.

كان سيفيز معلقًا ببقايا الجسر متشبثًا بالحياة، وتملؤه الرغبة في العودة إلى الوطن، قاوم سيفيز أن يسقط، لمح جسدي الطافي فوق المياه بين الثقوب، مد يده لي، أراد الشاب بقدر رغبته في الحياة أن يسحبني.

- جنرال، فضل أعطني يدك.

إنها دقيقة، ربما أقل، سيسقط سيفيز إذا حاول إنقاذي.

- سيفيز، انجُ بنفسك.

لم يسمع سيفيز تحذيراتي، فقد كنت أضعف من أن أنطقها، بدأ الدم ينسحب من وجهي وأطرافي، بدأت الرعشة تسري في جسدي، بدأت أفقد الشعور بأطرافي، ولم أعد قادرًا على الحركة، العضلات تتصلب، جسدي الطافي على المياه الجليدية، وروحي الطوافة العابرة للمكان والزمان، كنيسة الأمير تادرس الشطبي، أمي، دق الصليب، ضحكاتي في النيل، في الغطاس، ميدان النشابة، وجه محبوبه عندما وقع برقعها في مولد سيدي العريان، المعلم يعقوب، فابيان، الباخرة بالاس، أوسترليتز، نيشان الليجون دوأونر، شمس المحروسة..

بدأ جسدي يتجمد، بدأت أفقد الإحساس، لاحت أمامي صورة الصلبوت تذكرت كلمات اللص على يمين ربنا يسوع المسيح حينما صرخ:

«اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك»، رددتها وراءه في داخلي.

خرجت آخر كلماتي: «يا أبتِ إليك أستودع روحي».

هدأ كل شيء، أخذ الجسد في الهبوط تدريجيًا حتى استقر عند الطبقة الثالثة في النهر المتجمد، ظلت جثث معلقة أيامًا بين طبقات المياه الجليدية في نهر تريزينا، وبعد عدة أيام طفت على السطح جثة الجنرال القبطي مع مئات من جثث القتلى التي ظلت أشهرًا تسد نهر تريزينا.

عندما علمت بخبر موت فضل، صليت شاكرًا أن فضل أتى لزيارتي قبل رحيله إلى روسيا، لم يستطع فضل بعد أن تحدث عن عمر أفندي أن يكتفم ما بداخله، وبعد أن فهم أنني ما زلت على إيماني صارحني بظنه فيّ وحكى لي عن خطيئته، كانت دموع التوبة تملأ مقلتيه، وشعور الندم الممزوج بفرحة الراحة بادية على وجهه، وضعت يدي على رأس فضل قارئًا عليه التحليل، وصلينا معًا الصلاة الربانية، أخيرًا بعد كل هذه السنوات ارتاح فضل، بعد أن ألقى عنه بخطيئته الثقيلة، والتي دفع ثمنها غاليًا ونال الغفران من المسيح، وكأن الله أراد له أن يموت نقيًا طاهرًا، ولكن لم أنم ليلتي، فكل ما عاناه فضل كان من الممكن تفاديه إذا قبل الكاهن الكاثوليكي اعترافه منذ عشر سنوات، بدأت الأسئلة تتوالى عندي. كم من معاناة تحملها بشر بسبب هذا الخلاف، وظهر تساؤل بداخلي: أين هنا مبدأ إني أريد رحمة، لا ذبيحة؟ هل يمكن تحقيق الوحدة مع الكنائس الأخرى دون التفريط في إيمان الكنيسة القبطية الأرثوذكسية؟

قررت أن أتعلم في قراءة كتب الآباء الأوائل، وآباء اللاهوت اللاتيني التي بتدبير إلهي كانت متاحة لي، مثل كتابات غريغوريوس الكبير، ولاون الكبير، وأغسطينوس، وتوما الأكويني وسجلاته مع ابن رشد، وفرنسيس الأسيزي، مما ساعدني على الانفتاح على تعاليم الكنيسة الرومانية، وأخذت في مراجعة الخلافات التي أدت للانشقاق الكبير عام ٤٥١ م في مجمع خلقيدونية.

بدأت أشعر أن الله اختارني لدور أهم من تجميع شعب القبط وإقامة القداس لهم في فرنسا، دور على مستوى وحدة الحياة الروحية بين الكنائس، وتجليات الإيمان الذي يتجاوز العجز اللفظي إلى نور الحق الإلهي المعاش مع الإحساس العميق بوحدانية جسد المسيح، ربما يكون ما أفعله نقطة صغيرة لن يراها الآن أحد، وربما يهاجمها الجميع، ولكن الكتابات خالدة، والمخطوطات تبقى، كرّست المرحلة الباقية في حياتي للكتابة عن تعاليم الآباء وترجمة بعض منها إلى اللغة العربية، كما ألفت عددًا من المخطوطات باللغة العربية من فهمي لكتابات الآباء الأوائل منها «الشرح الفريد في تجسد الابن الوحيد» و«مقالة في فضل الصلبوت»، و«الدرة السنية في تاريخ الأمانة اليعقوبية الأرثوذكسية»، وألفت أيضًا كتبًا باللاتينية عن إيمان الكنيسة

القبطية الأرثوذكسية، والأنبا باخوميوس مؤسس رهبنة الشركة، وأيضًا عن
بيندكت مؤسس الرهبنة الغربية.

مرت أعوامي هادئة، عشت مع مؤلفاتي وتراجمي ومدرسة اللغة القبطية،
وكان لي كثير من التلاميذ الفرنسيين الذين اهتموا بدراسة القبطي كان
أنبغهم شامبليون، لم يظهر لوسيان، ولم أصل إلى الأب اللامتسرول والذي
بحثت عنه كثيرًا، ولكنني في رحلتي الطويلة وجدت إجابة عن السؤال الذي
دفعني لأن أتبع يعقوب.

«هل لنا نحن رجال الإكليروس دوژ أكثر إيجابية غير اللجوء إلى العظات في
القداس الإلهي؟ دوژ يسعى إلى مواجهة البؤس والظلم الهائل بدلًا من
تحملهما، أملاً في الخلاص؟».

كنت أميًّا على القلب الذي أعطاه لي لوسيان، خفت أن يقع في أيدي
أعداء الحرية، أخفيته في مكان سري، دعيت الله أن يجده فقط من يدافع
عن حق المقهورين، ويؤمن بالمساواة استودعته المسيح قائلاً:
«حَيْثُ رُوحُ الرَّبِّ هُنَاكَ حُرِّيَّةٌ».

(0)

شهرًا بعد شهر، ازدادت حالتها سوءًا، فقد عافت نفسها الطعام، لا تلبث أن
تضع القليل منه حتى تتقيأ، كانت الأخبار التي تزيد من هلع أبيها عن تسلُّط
عسكر العثمانية على الناس بالسب والشتم، وأخذ دراهمهم، وتشليحهم
ثيابهم، وقتلهم وقطع رأس مصطفى الطاراتي بين المفارق بباب الشعرية،
بعد أن حبسوه أيامًا عديدة وضربوه وعاقبوه حتى تورمت قدماه وطاق مع
المعينين عدة أيام يتداين بواقى ما قُرر عليه، لا تعنيها، ولا تحرك لها ساكنًا،
بينما جرجس يرتعش قائلاً:

- كثر الأذى على الخلايق ويقبضون على مشايخ القرى ويلزمونهم بالكلف
الفاحشة ويخطفون الأغنام، ويهجمون على النساء، يركب العسكري منهم
حمار المكارى قهْرًا، ويخرج به إلى الخلاء، فيقتل المكارى ويبيع العسكري
الحمار.

ظل جرجس هكذا يخرج نهاره ويعود كل ليلة يحكى لمحبوبة عما يرى وما
يحدث هنا، دخل العسكر على أهل الدار وطردوهم، وآخرون دخلوا بيوتهم
وأخذوا أكلهم ومتاعهم ودراهمهم، وإذا اشتكى أهل الدار أجابوهم كيف

تطردون إخوانكم المجاهدين الذين أتوا لحمايتكم من الفرنسيين الكفرة؟ وهناك تذهب الجماعة منهم إلى القرية، ويدهم ورقة مكتوبة باللغة التركية، ويوهمونهم أنهم حضروا إليهم بأوامر ما، برفع الظلم عنهم أو ما يتدعون من الكلام المزور، ويطلبون حق طريقهم مبلغًا عظيمًا.

كان جرجس مذعورًا، يقول لنفسه، إذا كان هذا هو الحال مع الأهالي المسلمين، ماذا سيفعلون بنا؟

تَمَلَّكه الهلع حتى أنه لم يلاحظ استدارة بطن محبوبه يومًا بعد يوم، لم يلاحظ هزال جسدها ولوتها الشاحب. استجابت العذرا وتحققت النبوءة، «سأنجب من الخدّام ثمانية كما بشرتني العذرا، سأسميهم جميعًا فضل، فضل لم يرحل للأبد، ترك بذرتّه في أرضه، ولكن لن يفعلوا مثله، لن يرحلوا، لن يتركوا أرضي ليحرقوا أرضًا غريبة».

كانت محبوبه تتابع استدارة بطنها وهي تعود بها إلى الحياة، تتعافى كلما أثقلها الحمل، تعود النضارة والبهجة إلى روحها كلما زادت الأم المخاض.. ولكن عجيبة هذه الحياة تعطي وتأخذ في آن واحد، فبعد خروج الوزير الأعظم مرزوق من مصر للقبة، اعتاد محمد باشا أبو المرق يدور متخفيًا في البلد، فقتل في البداية الوالي والمحتسب الذي كان الوزير الأعظم عيّنهما، ومن بعد عشرين يومًا قتل السيد أحمد الزرو التاجر النابلسي في وكالة الصابون، فأرغش بقتل هؤلاء المدينة وقتلَ خَلْقًا كثيرين سرًّا.

وكان آخر يوم في الخماسين نهار اثنين العنصرة، أمر محمد باشا أبو المرق بقطع رقاب المعلم إبراهيم زيدان، والمعلم عبد الله بركات، وكان معهما أنطون أبو طاوية، أحد أكابر القبط الثلاثة، وهو الذي زار نابليون عندما كان بحاجة إلى الأموال، فنزع المعلم أنطون طاقيته من فوق رأسه، وأخذ يملؤها بالمال ويعطيها لنابليون حتى استوفى، أمر بقطع رقابهم في يوم واحد، وقتها وقع الخوف العظيم عند جميع النصارى، وعظم عندهم الوهم جدًّا، ثم رموا أجسادهم في بركة الأزبكية، وكان من بينهم جرجس المعجوني الذي لم يتحمل فكرة البقاء حتى يرى رقبته معلقة على باب الخلق أو باب زويلة، فأثر أن يرمي نفسه في البركة على انتظار قدرٍ أصبح جليًّا أمام عينيه.

كبر فضل، سنّه الآن في التاسعة عشرة، ربما أقل قليلًا أو أكبر قليلًا، حساب السنوات صعب على امرأة فاتها رَجَلها، لا تخشى تهذّل ثديها، ولا كسرة جفّتي عينيها، لا ترى في المرآة فرقًا بين أمس واليوم، لا تجد من

يقيس محيط خصرها.

طَرَقَتَانِ عَلَى الْبَابِ، طَرَقَتَانِ غَرِيبَتَانِ لَمْ تَعْهَدِ مِثْلَهُمَا.
فَتَحَتِ مَحْبُوبَةً، الْبَابَ لِتَجِدَ ضَابِطًا فَرَنْسِيًّا، يَسْأَلُهَا:

- هل أنت مدام الجنرال فضل الله الزيات؟

كانت إجابة ملتبسة:

- أنا أم فضل الله الزيات.

سارع المترجم الذي كان بصحبة الضابط قائلاً:

- يا ست محبوبة، هو يقصد زوجة السيد فضل.

كان قلبها يدق دقاتٍ مرتبكة، فقد نسيت هذه الكلمة منذ سنوات، ولم يعد هناك سوى فضل واحد، هي أمُّه، أجابت وكأنها تستدعي الموافقة من جوف الزمن:

- نعم، ولكننا لا نعلم عنه شيئاً.

- الجنرال سيفيز جاء من طرفه، وهو يريد أن يطمئن عليك.

نظرت إلى المترجم:

- لا أعرف مَنْ هو الجنرال سيفيز.

توجهت إلى الجنرال سيفيز متسائلة:

- هل فضل هو الذي طلب منك زيارتنا والاطمئنان علينا؟

أجابها المترجم قبل أن يترجم كلماتها للضابط:

- محمد علي باشا قرر تكوين جيش لمصر، والجنرال سيفيز وضباط فرنساوية معه سيدربون العساكر ويعلمونهم نظام الجيوش الكبيرة، شيء آخر غير همجية الغز.

شردت محبوبة بحسرة مَنْ سُرِقَ مِنْهُ عَمْرُهُ، الْآنَ الْعُثْمَانِيُّونَ وَالْفَرَنْسَاوِيَّةُ
أَصْبَحُوا أَحِبَابًا. وهي التي عاشت عمرها كله بوصمة زوجة الخائن.

اعتذرت المترجم للجنرال، وأوضح له أنه كان يُعَرِّفُ أم فضل به، وترجم، له

سؤالها.

أجابها:

نعم، لقد جئت إلى هنا وكان الجنرال فضل له أثر كبير في قراري هذا، فقد كان يحكي لي دائماً عن مصر وعن حبه لها، وكم تمنى أن يكون لها جيش قوي، كم حلم أن يعود ليؤسس جيشاً يشبه جيشنا الوطني الفرنسي، يكون قوامه من الشعب، للأسف بعد هزيمة نابليون وأسرِهِ ونفيهِ لجزيرة سانت

هيلانة، تم تسريح الجيش الفرنسي، رفضت وقتها أن أبحث عن أي عمل مدني، مثل كثير من القادة، سمعت أن شاه فارس يبحث عن قادة فرنسيين لتدريب جيشه، فسعيت عند أحد معارفي أن يرسلني بكتاب توصية للشاه في تبريز أو طهران، ولكن عندما عرفت أن محمد علي باشا كان يطلب خدمة ضباط فرنسيين لنفس الغرض.. شعرت أن الأقدار أعطتني فرصة لأن أحقق حلم قائدي الجنرال فضل، وقررت المجيء إلى مصر.

لم يُجِبها إجابة شافية، مالها هي وهزيمة نابليون ونفيه، وتسريح ضباط جيشه، لم يُقَل لها إن فضل ما يزال يحبها ويتمناها، وإنه ما يزال يشتاق إلى حرتها، لم يُقَل أي شيء، متى سيعود؟ وهل سيعود أم لا؟ وما معنى تلك الزيارة التي لا تحمل أي رسالة؟

قطع أفكارها دخول ابنها فضل.. قدّمته محبوبة للضابط.
هذا فضل الصغير.

نظر سيفيز إلى فضل قائلاً:

- تشبهه جدًّا، والدك، كان قائدًا عظيمًا في جيوش نابليون، كان محاربًا بارعًا واستراتيجيًا أبرع، تعلمت منه الكثير، حاربت تحت قيادته كثيرًا في النمسا وروسيا، كان فدًّا في قيادته لنا، لم نكن أبدًا نشعر معه أننا مقيدون بسلطته، ولكننا كنا نتبع قيادته بطريقة مذهلة، فقد كنا نشعر معه أننا شركاء في كل شيء، وأنا هنا الآن أطبق بعض ما تعلمته منه: تأسيس جيش عظيم لمصر.

شرد سيفيز متذكّرًا قائده الجنرال فضل الذي ساعده في إرجاء تنفيذ حكمٍ مشدد، ودافع عنه بعد أن تعرض لمحاكمة عسكرية لخشونته في معاملة أحد قادته، كادت أن توقف ترقيته لرتبة رقيب بعد أن نجا من الغرق أثناء هروبه مع الجنود الفرنسيين إلى ساحل إسبانيا، بعد الهزيمة في الطرف الأغر، وكيف عمل كل مساعيه أن يخرج سيفيز في تبادل أسرى بعد أن قضى في النمسا عامين أسيرًا.

نظر فضل إلى هذا الفرنسي مبهورًا بما يحكيه عن أبيه، حالمًا بهذا الجيش العظيم في مصر، ثم سأله:

- أنت المسئول عن تأسيس جيش لمصر؟

أجابه سيفيز بابتسامةٍ كبيرة:

- نعم مسيو فضل.

- هل أستطيع أن ألتحق بالجيش لأكون ضابطًا عظيمًا مثل أبي؟
وقع قلب محبوبه، هلعت، فرنسي آخر يأتي ليأخذ فضل، هل ستحرمها
شهوة السلاح من زوجها وابنها؟

أجابه سيفيز:

- إذا ما أتحت لك الفرصة، فمن المؤكد ستكون قائدًا عظيمًا مثل والدك.
كانت إجابته ذكية دبلوماسية، فلم يكن متأكدًا هل يستطيع فضل الالتحاق
بالجيش الذي يؤسسه محمد علي باشا، وهل سيسمح الباشا بتجنيد الأهالي؟
كل الإجابات المرواغة لهذا الضابط أخبرتها أن فضل مات، قررت أن تكون
حاسمة صارمة كعادتها وسألته:

- أين دُفن فضل؟ ربما يستطيع فضل ابنه يومًا ما أن يزور قبره؟
تعجب سيفيز لذكائها الحاد أو لحدسها العالي، حدس الزوجة الحبيبة التي
تفقد زوجها.

ولكن حتى هذا السؤال لم يجد له إجابة..

تمت

القاهرة، الأول من نوفمبر ٢٠١٨

بعض المراجع التي تمت الاستعانة بها: * الجيرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، دار الكتب المصرية، ١٩٩٨.

* مذكرات نيقولا ترك - أخبار المشيخة الفرنسية في الديار المصرية، تحرير وتحقيق عبد العزيز جمال الدين، دار آفاق للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

* الأمة القبطية - الحلقة الثالثة - الجنرال يعقوب واستقلال مصر، تأليف لجنة التاريخ القبطي، سنة ١٩٣٥.

* الرسائل مسجلة في أوراق وزارة الخارجية الإنجليزية في المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية تحت رقم FO.78 Turkey 33 (September- December 1801).

* سجل المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية وأوراق وزارة الخارجية الفرنسية المجلد رقم ٢٠٣. مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية - جوزيف ماري مواريه - ترجمة كاميليا صبحي، المشروع القومي للترجمة.

* الجنرال والمغامر، شفيق غربال وتقديم دكتور محمد عفيفي، دار الشروق، ٢٠٠٩. * هنري لورنس - الأزمات الشرقية - المسألة الشرقية واللعبة الكبرى - ١٧٦٨ - ١٩١٤ ترجمة بشير السباعي، المشروع القومي للترجمة ٢٠١٣.

* الوجيز في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز- ترجمة أكرم الديري والهيثم الأيوبي. * تاريخ الثورة الفرنسية - ألبير سوبول، ترجمة جورج كوسي، منشورات البحر المتوسط والعيودات، باريس، ١٩٨٩.

* أفلام وثائقية.

* وصف بعض الأحداث التاريخية الحقيقية مأخوذة نصًّا من بعض المراجع.